

الجاحظ ناقدًا أدبيًا

أعداد

نهي عبدالكريم خليفة

إشراف

عصمت غوشة

رسالة ماجستير

الجامعة الاردنية

١٩٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه دراسة ، تناولت جانباً من جوانب النقد عند الجاحظ ، بعنوان " الجاحظ ناقد أدبياً " .

والجاحظ ، علم من أعلام أدبنا وتراثنا ، وهو أديب فذ ، ولغوى مشهور ، وصاحب فكر ومدرسة معروفة ، منذ القرن الثاني للهجرة ، حتى الوقت الحاضر .

وتعود صلتى الوثيقة بالجاحظ ، منذ المرحلة الجامعية الأولى ، حيث تعرفت إليه من خلال دراستنا النثر في العصر العباسي ، مع أستاذتي الدكتورة عصمت غوشة ، وقد تعمقت هذه الصلة به ، والاعجاب بأدبه وفكره ، من خلال دراستنا كتابه " البيان والتبيين " مع أستاذي الدكتور بركات أبو علي ، وفي المرحلة الجامعية الثانية ، كان إعجابي بالجاحظ وأدبه وفكره يزداد عمقا ، فقامت بإعداد بحث حول كتابه " البخل " مع أستاذي الدكتور نصرت عبد الرحمن ، وقد أدت بي دراسات المتواضعة ، إلى الوقوف باهتمام ، عند الجوانب النقدية في أدبه وتأليفه .

وعندما همت باختيار موضوع لرسالتي هذه ، اتجهت بكلّيتي إلى الجاحظ ، لما يتميز به من فكر عميق ، وثقافة موسوعية ، وأسلوب شائق وشخصية فذة ، في عالم الفكر والنقد والأدب ، إذ كان عالما من علماء فرقة الاعتزال ، المعروفة باحترامها الشديد لحريّة الإرادة الإنسانية ، وفي حضنها على استعمال العقل ، في كل أمر من أمور الكون .

وللجاحظ أدب غزير ، وماع طويل ، في مجالات شتى ، من المعارف اللغوية والأدبية ، والفكرية . وقد اتجهت إلى دراسة الجانب النقدي عنده ، وما أن قطعت شوطا بعيدا في دراسة تأليفه المتنوعة ، متبعة الجوانب النقدية في مختلف مجالاتها اللغوية ، والأدبية والاجتماعية ، والأخلاقية ، والفكرية ، والسياسية ، حتى وجدت نفسي أمام خضم واسع زاخر ، فرأيت أن هذه المجالات النقدية تستحق ، بصورة موضوعية ، دراسات متعدّدة ، كي تستطيع أن تفي هذا الأديب الناقد ، حقّه وتنزله منزلته في تاريخ النقد العربي ، وقد حملني هذا كله ، ومتوجيه من أستاذتي المشرفة الدكتورة عصمت غوشة أن أحدد معالم هذه الدراسة " بالجاحظ ناقد أدبياً " .

لقد تناول الجاحظ ، كثير من الدارسين ، في القديم والحديث ، واختلفت الآراء حول كثير من القضايا الأدبية واللغوية والفكرية التي طرحها في مؤلفاته الخصة . واهتم بعض الدارسين في العصر الحديث ، بإثارة قضية النقد عنده ، وذهبوا في ذلك مذاهب متناقضة ، فمنهم من يرى أن آراء الجاحظ النقدية لا تتعدى " أصول نظريات لم يمنحها ما تستحقه من شرح وتفسير وتمثيل ، وظلت مغلقة على الذين جاءوا بعده . . . " كما أشار إليه الأستاذ الدكتور احسان عباس ، في كتابه " تاريخ النقد الأدبي عند العرب " (ص ٩٥ - ٩٦) . ومن الدارسين المحدثين من يرى غير ذلك ، وفي جميع الأحوال ، لم أجد دراسة وافية متكاملة للنقد الأدبي عند الجاحظ .

وعسى أن تساهم هذه الدراسة المتواضعة ، في سدّ بعض الثغرات ، التي مازال الجدل حولها قائما في المسيرة التاريخية للنقد بصورة عامة ، وللنقد الأدبي عند الجاحظ بصورة خاصّة .

وقد جعلت دراستي هذه ، الموسومة " بالجاحظ ناقدًا أدبيًا " في مقدّمة ، وتمهيد حاولت فيه أن أبرز العلامح الأساسية ، والمصادر التي ساهمت في تهيئة البيئة الأدبية والنقدية التي أثرت في التكوين النقدي عند الجاحظ ، وجعلت جوهر هذه الدراسة في فصول ثلاثة :

جعلت الفصل الأول بعنوان " النقد البياني عند الجاحظ " ، تحدثت فيه عن التعبير والبيان عنده ، وتناولت فيه قضايا رئيسة في القول والمعنى ، وفي القول والصمت ، والبلاغة ، والبيان ، والفهم والافهام واللفظ والمعنى ، ولكل مقام مقال ، كما تحدثت في هذا الفصل عن أساليب التعبير ووسائل البيان عنده ، تناولت فيه قضايا في الإيجاز ، والاطناب ، والمجاز ، والاستعارة ، والكناية ، والتورية ، والاشتقاق ، والتشبيه ، والسجع ، والبديع ووسائل البيان .

وجعلت الفصل الثاني ، بعنوان " النقد التطبيقي عند الجاحظ " ، تحدثت فيه عن نقد اللغة وعلم اللسانيات ، تناولت فيه قضايا رئيسة في اللغة ، واللحن ، والترجمة ، والفصاحة ، واللسانيات ، وأهمية اللسان والأسنان في عملية النطق ، واللثغة ، والأصوات ،

وتحدثت في هذا الفصل عن نقد الشعر وفنونه ، حيث تناولت فيه قضايا الشعر المديح ، والهجاء ، وشعر العرب والمولدين ، والشعر والموسيقى ، ودور الشعر في الأخبار والروايات ، وشعر المرأة ، وشعر الجاحظ ، كما تحدثت في هذا الفصل ، عن نقد النثر ، تناولت فيه قضايا رئيسة في الخطابة والمناظرات والرسائل ، والنادرة ، والخرافة .

وجعلت الفصل الثالث بعنوان " المعرفة عند الجاحظ وتجربته في التأليف " ، تناولت فيه قضايا رئيسة ، في الموهبة ، والمعرفة ، والكتاب وتأليفه ، كما تناولت فيه تجربته الخاصة في التأليف .

وقد اعتمدت في دراستي هذه على مصادر ومراجع كثيرة ، فاستعنت بما كتب عن الجاحظ في القديم والحديث . . وكان اعتمادي الأساسي ينصب على دراسة علمية مستوفاة ، لنتاج الجاحظ ، فاستعرضت جميع ما وصل الى أيدينا من كتاباته ومؤلفاته المنشورة ، ومن أهم هذه المؤلفات التي وقفت عندها وقفة متأنية :

١ . كتاب " البيان والتبيين " ، ويقع في أربعة أجزاء ، بتحقيق عبدالسلام هارون ، فكان مصدرا مهما في تقرّي آرائه النقدية في اللغة والأدب على الرغم من ذهب اليه بعض الباحثين ، من أنه كتاب لم يعتمد في مجمله ، حدود الجمع والرواية ، وقد رأيت فيه ما يمكن أن يعتبر بحق ، كتابا في النقد الأدبي واللفظي .

٢ . كتاب " الحيوان " ، ويقع في ثمانية أجزاء ، بتحقيق عبدالسلام هارون ، وهو كتاب يمثل أدب الجاحظ الموسوعي ، وكان مصدرا مهما في دراستي الآراء النقدية عند الجاحظ في مختلف جوانبه .

٣ . " رسائل الجاحظ " ، ويقع في أربعة أجزاء ، بتحقيق عبدالسلام هارون ، وهي رسائل متنوعة ، وفي موضوعات مختلفة ، مدّت هذه الرسالة بمعلومات مهمة حول النقد الأدبي عند الجاحظ ، هذا مع العلم أنه أفرد رسالة خاصة ، وسمها " بالبلاغة والايجاز " ..

٤ . كتاب " البخل " ، تحقيق طه الحاجري ، وعلى الرغم من أنه يشكل مصدرا مهما للنقد الاجتماعي والأخلاقي عند الجاحظ ، فقد وجدت فيه ما يغني هذه الدراسة في حقل النقد الأدبي .

٥ . كتاب " العشائية " ، تحقيق عبد السلام هارون ، وعلى الرغم من أنه مصدر مهم في النقد الفكري والسياسي عند الجاحظ ، فإنه يمدنا بآراء نقدية في اللغة والأدب .
أما في مجال المراجع الحديثة ، فقد حاولت الاطلاع على كل ما كتب عن النقد عند الجاحظ ، ومن أهم هذه المراجع :

١ . مـن تاريخ الادب العربي ، المعصر العباسي الاول ، لطف حسين ، ومن أهم القضايا التي تطرق اليها ، قضية نظرية البيان عند الجاحظ .

٢ . التـنقـد ، للدكتور شوقي ضيف ، ومن أهم القضايا التي تطرق اليها قضية اللفظ والمعنى ، وأثر علم الكلام في نقد الجاحظ .

٣ . تـيـارـيـخ النـقـد الأدبي عند العرب ، للدكتور احسان عباس ، ومن أهم القضايا التي تطرق اليها ، قضية موقف الجاحظ من الصراع بين القديم والحديث ، ونظرية اللفظ والمعنى .

٤ . مـقـسـالـات في تاريخ النقد العربي ، للدكتور داود سلّوم ، ومن أهم القضايا التي تطرق اليها ، قضية منهج الجاحظ في النقد اللغوي .

٥ . الـبـلاغة عند الجاحظ ، للدكتور أحمد مطلوب ، ومن أهم القضايا التي تطرق اليها ، قضية اللحن .

٦ . دـرـاسـات في نقد الأدب العربي ، للدكتور بدوي طبانة ، ومن أهم القضايا التي تطرق اليها قضية الصنعة والتكلف .

٧ . تـاـريـخ النـقـد الأدبي والبلاغة... الدكتور محمد زغلول سلام ، ومن أهم القضايا التي تطرق اليها ، قضية اللفظ والمعنى .

٨ . أدب المعتزلة... الدكتور عبد الحكيم بلبع ، ومن أهم القضايا التي تطرق اليها ، قضية اللفظ والمعنى .

وقد استعنت أيضا في دراستي هذه بمجموعة من المصادر المهمة في التراجم والتاريخ والأدب واللغة .

معد ، فأرجو أن تكون هذه الدراسة مساهمة متواضعة ، في خدمة أدبنا العربي وتراثنا ، وكان لرعاية أساتذتي المشرفة ، الدكتورة عصمت غوشة ، ولأرائها وتوجيهاتها القيمة ، الأثر الكبير في إعداد هذه الرسالة ، فجزاها الله عني ، خير الجزاء ، وأتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي الدكتور بركات أبو علي الذي كان له الفضل في قيادة آفاق أدب الجاحظ ونقده ، وللملاحظات القيمة التي أسداها لي ، كما أتقدم بجزيل الشكر ، وعظيم الامتنان ، لأستاذي الدكتور عبد الجليل عبد المهدي ، لأرائه القيمة التي أفدت منها في دراستي هذه .

وأتقدم بالشكر العميق ، والاحترام لجميع أساتذتي في قسم اللغة العربية وآدابها .

ولا يفوتني أن أشكر جميع الأخوة والأخوات في مكتبة الجامعة الأردنية ، لما قدّموه لي من التسهيلات .

وأسأله تعالى ، التوفيق والصواب في الرأي .

ملاح النقد الأدبي لهل الجاحظ

يقول الجاحظ : " وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا ، كسبيل من كان قبلنا
فينا " (١) .

فهو يشمر ، أن واجبه العلمي ، يقتضي أن يقدم الفائدة ، للأجيال اللاحقة ،
كما أفاد هو نفسه ، من الأجيال السابقة له ، فيعلن ذلك ، معترفاً لسابقه بهـذا
الفضل الجليل ، فالابداع لا يأتي من العدم ، ولا يظهر من الفراغ ، بل لا بد لكل
مبدع ، من خلفية تراثية ، وإنسانية ، تغذيه ، وتعرفه بالركيزة التي يطأ عليها لينطلق منها
الى عالم الابداع .

ومما لا شك فيه ، أن كل علم من العلوم ، وكل فن من الفنون ، يبدأ مع الحاجة
الإنسانية التي تدفع الانسان الى التعليل والتفسير للظواهر المختلفة التي تطرأ عليه ،
وما أن التواصل الاجتماعي بين البشر ، يقتضيه التعبير عما في النفس ، من الحب والكراهة ،
والفرح والحزن ، وشتى المشاعر والأفكار . . . فقد دعا هذا كله الى نشأة فن القول ،
والتفنن فيه والعناية بآثاره في أجمل صورة ، وأكمل وجه ، فان الحاجة الى التفسير
والتعليل ، نشأت مع فن القول ، لتكون توأماً له ، وظلاً يستظل به من يبتغي مزيداً من
الفائدة ، وزيادة في الايضاح . وهذه الحاجة ، هي التي وضعت البذور الأولى
لفن من القول ، أصبح يعرف في مراحل تطوره " بالنقد الأدبي " .

وان أول ما وصل الى أيدينا ، من تراثنا القديم ، الشعر الجاهلي ، الذي
كانت اللغة العربية قد وصلت به الى مرحلة النضج والاكتمال ، بعد أن انقطعت بنا
السبل مع المراحل الأولى التي تلقي الضوء ، على بداية تكون هذه اللغة الفنية ، وكيفية
تطورها ، الى أن وصلت الى شكلها المعروف في العصر الجاهلي .

(١) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، بيروت ،
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م / ج ١ ، ص ٨٦ .

قال : فخنس حسان لقوله . (٣)

(۳) نفسه ج ۱۱ ص ۶۰ .

ومن أمثلة هذا النقد الذي يهدف إلى المفاضلة بين الشعراء ، ما يروى عن
حكم أم جندب لعلقة بن عبدة الفحل ، أنه أشعر من زوجها امرئ القيس ، بمسند أن
ألقى كل منهما عليها قصيدة له في وصف فرسه ، شريطة أن يكون شعرها " على قافية
واحدة وروى واحد " (١) لكنها في هذا الموقف ، عدت إلى تعليل حكمها هذا
بقولها لزوجها : " لأنك قلت :

فللسوط ألحوب وللساق درة

وللزجر منه وقع أخرج مهذب

الأخرج ذكر النعام والخرج بياض في سواد وبه سمي ، فجهدت فرسك بسوطك في زجر
ومرته فأتعبته بساقلك ، وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه

يمركم الرائج المتحلب

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه لم يضره بسوط ولم يتعبه . " (٢)

ونقد أم جندب هذا ، يعتمد على المفاضلة في المعاني ، لا الالفاظ ، كما أنها
حكمت على القصيدة كلها ، من بيت واحد من أبيات القصيدة ، ولعل هذه السمة في الحكم
على العام ، انطلاقاً من الخاص ، سمة تميز المجتمع الجاهلي بشكل عام .

ومن أمثلة النقد الموجز الذي يعتمد على المعنى ، قول طرفة بن العبد للمسيب
ابن علس الضبعي " استنوق الجميل " ، حين جعل المسيب " الصيعرية " صفة للجميل ،
في قوله :

.. وقد أتناسى الهم عند ادكاره

بناج عليه الصيعرية مكدم

و " الصيعرية " في الاصل ، صفة للناقصة . (٣)

(١) انظر العزباني - أبو عبد الله محمد بن عمران - ، الموشح في مأخذ العلماء على
الشعراء ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٨٥هـ / ص ٢٦ - ٢٧ .

٣٩١٣١٧

(٢) نفسه ، ص ٢٧ .

(٣) انظر نفسه ، ص ٦٩ .

وللشعر قواعد لا بدّ من اتباعها ، وكانوا في الجاهلية يقرضونه على السليقة ،
ويلحظون العيب بأذانهم الرهفة ، وإحساسهم الشعري الأصيل ، ولذلك فقد استنكروا
الاقواء ، وفي قول النابغة :

" آمن آل مية رائج أو مفتند

عجلان ذا زاد وغير مـزود

زعم البواح أن رحلتنا غـدا

وذاك خبرنا الغراب الأسود

وقوله :

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه

فتناولته واتقتنا باليد

بمخضب رخص كأن بنانـه

عنم يكاد من اللطافة يعقد^(١)

ولكنه لم يلحظ العيب في شعره ، ألا حينما كلفوا جارية بغنائها في حضرته . (٢)
وقالوا لها " اذا صرت الى القافية فرتلي . فلما قالت " الغراب الأسود " و " يعقد "
و " باليد " علم فانتبه فلم يعد فيه . " (٣)

وهكذا ، كان النقد الجاهلي ، يتسم بالاحساس الخاص ، مع التعليل الموجز
في بعض الاحيان ، كما ينسب عن الموهبة الشعرية التي تنقل معانيها بالتذوق والاحساس
كما ينسب عن آذن موسيقية ، تلحظ الخطأ في الإيقاع ، حين يطرق سمعها .

وقد استمر هذا النوع من النقد في صدر الاسلام ، فترى الرسول صلى الله عليه
وسلم ، يقول : " ان من البيان لسحرا " في نقده لكلام عمرو بن الاثم في الزبرقان بن
بدر ، فقد مدحه أولا ثم ذمه ، معلّلا هذا التناقض ، بأنه حين كان راضيا عن

(١) أنظر ، الموشح ، ص ٣٦ .

(٢) أنظر ، نفسه ، ص ٣٦ .

(٣) نفسه ، ص ٣٦ .

الزهرقان قال فيه أحسن ما علم ، وحين غضب منه ، قال فيه أقبح ما علم . (١)

ويروي ابن رشيقي القيرواني ، حديثاً للرسول صلى الله عليه وسلم ، في نقد الشعر بشكل عام ، فيقول : " روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنما الشعر كلام مؤلف لنا ، وانق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه " (٢) . وهننا يعتمد نقد الشعر على الميزان الأخلاقي ، لأن الشعر ليس مجرد ألفاظ منمقة ، وإنما هو علاقات من الألفاظ المتناسبة والمتناغمة ، التي تعبّر عن المعاني السامية ، وتحضّ على الخير والحق ، وذلك يظهر أثر الدين الجديد ، في تهذيب النفوس وتوجيهها . فقد كان نزول القرآن الكريم ثورة اجتشت العادات والتقاليد التي تحكم الأدب والفكر من جذورها ، لتحل محلها قيم ، وأسس اقتصادية واجتماعية وفكرية جديدة ، غدت توجه الأدب والفكر . وفي ظل هذا التغيير الجوهرى ، بدأ النقد يتخذ سبيله نحو النمو والتطور ، حيث تلاشت بعض أغراض الشعر التي تؤكد القيم والعادات القبلية ، لتحل محلها أغراض الشعر التي تحض على القيم الانسانية ، وشعر الجهاد وتدعيم قواعد الدين الجديد

غير أن التطور لا يحدث فجأة ، ولا ينقلب رأساً على عقب ، بل لا بدّ من أن يمرّ بمراحل متتالية ، ليستمر في النمو تدريجياً ، ولذلك فإن النقد في صدر الاسلام ، كان مزيجاً من التأثير بطريقة النقد في الجاهلية ، ومن التأثير من حيث الجوهر ، بمعاني الدين الجديد . ولذلك فقد كان السؤال المطروح في الجاهلية ، حول من هو أشعر الشعراء ؟ لا يزال مطروحا في صدر الاسلام ، فنرى عمر بن الخطاب مثلاً يقرر أن زهيراً أشعر الشعراء ، ويعمل ذلك بقوله : " لأنه لا يماثل بين الكلامين ، ولا يتبع وحشي الكلام ، ولا يمدح رجلاً بغير ما فيه " . (٤)

- (١) انظر ، الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م / ج ١ ، ص ٥٣ .
- (٢) القيرواني الأزدي - أبو علي الحسن بن رشيقي العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مصر ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م / ج ١ ، ص ٢٧ .
- (٣) انظر ، القرشي - أبو زيد محمد بن أبي الخطاب ، جمهرة أشعار العرب - فني الجاهلية والاسلام ، تحقيق د . محمد علي الهاشمي ، دمشق ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م / ج ١ ، ص ١٨٨ .
- (٤) نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٨ .

وفي نقد عمر هذا يتبين ذلك التطور في النقد ، ان أصبح الاهتمام باللفظ المذهب ، البعيد عن الوحشي والإغراق في الفرابية والغموض . وكذلك أصبح الصدق في الفن من القيم الجديدة التي جاء بها الدين الإسلامي ، فأضحى الاهتمام باللفظ المذهب والمعنى الشريف المعبر عن الصدق والحق من المقاييس التي يقاس بها الشعر والفنون الأدبية الأخرى .

وهذا الصدق ، هو الذي دفع بعلي بن أبي طالب ، أن يفضل امرأ القيس بقوله " كل شعرائكم محسن ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا أيهم أسبق الى ذلك ، وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه وان يكن أحد فضلهم فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن حجر ، فانه كان أصحهم بصادرة وأجودهم نادرة . " (١)

وفي العصر الأموي ، نجد أن الصدق ، لا يزال من أهم المقاييس النقدية ، من ذلك ما يرويه أبو الفرج الأصفهاني ، عن ابن أبي عتيق حين سمع عمر بن أبي ربيعة وهو ينشد قوله :

ومن كان محزوناً بإهراق عـبرة

وهي غرثها ، فليأتنا نـيكـه غدا

نعنه على الإثـكال ان كان ثاكـلا

وان كان محروماً وان كان مقصدا

قال : فلما أصبح ابن أبي عتيق أخذ معه خالدا الخريت (٢) . وقال له : قم بنا الى عمر . فمضيا اليه ، فقال له ابن أبي عتيق : قد جئناك لموعـدك ، قال : وأي موعد بيننا ؟ قال : قولك " فليأتنا نيكه غدا " قد جئناك ، والله لا نبرح أو تبكي ان كنت صادقاً في قولك ، أو ننصرف على أنك غير صادق . ثم مضى وتركه . (٣) فلا يمكن الفصل اذن

(١) الاغانى ، ج ١٦ ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

(٢) " وقال ابن عائشة : خالد الخريت هو خالد بن عبدالله القسري " ، الاغانى ،

ج ١ ، ص ١٥٢ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

بين الأخلاق والفكر والأدب ، فالصدق مزية أخلاقية ، ينبغي أن يتحلى بها الأديب في كتاباته ، ولعل النقاد في العصر الأموي ، كانوا ينظرون الى مسألة الصدق الفني على أنه ينبغي للأديب أن يقول ما يفعل ، أو يفعل ما يقول ، أي أن يترجم تجربته الخاصة شعرا أو نثرا . . . وربما يدعو هذا كله الى انتحال أفعال لم يفعلها الشاعر ، إذ كان قد ادعاها في شعره ، ومن ذلك الرواية التي ينقلها أبو الفرج الاصفهاني (١) فقد سأل الهمداني عمر بن أبي ربيعة قائلا " يا أبا الخطاب ، أكل ما قلت في شعرك فعلته ؟ قال : نعم ، وأستغفر الله . " (٢) ولا يحتمل المقام ، النظر في صحة هذه الرواية أو كذبها ، ولكنها تبين مفهوم الصدق الفني في ذلك العصر .

وكان من مقاييس النقد في العصر الأموي ، النظر الى المعاني من حيث التقارب فيما بينها ، والعلاقة المنطقية التي تحكمها ، فمثلا حين قال الكمي :
 " أم هل ظعائن^(٣) بالعليا نافعة
 وإن تكامل فيها الأئس والشنب^(٤) " (٤)

أجابه نصيب بقوله " باعدت في القول ، ما الأئس من الشنب ، ألا قلت كما قال ذو الرقة :

لمياء في شفيتها حوة لعس
 وفي اللثا وفي أنيابها شنب^(٥) " (٥)

وحين أنشد قائلا :

-
- (١) انظر ، الاغاني ، ج ١ ، ص ١٥٣ .
 (٢) نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٣ .
 (٣) " والظعينة : اليهودج تكون فيه المرأة وقيل : هو اليهودج ، كانت فيه أولم تكن . . . وقيل : سميت المرأة ظعينة لأنها تظعن مع زوجها وتقيم باقامته كالجلسة . . . وانا سميت النساء ظعائن لأنهن يكن في اليهودج " لسان العرب (ظعن) .
 (٤) " الشنب : ماء ورقة تجرى على الثفر ، وقيل : رقة ويرد وعذوية في الأسنان . . . قال الجرمي : سمعت الأصمعي ، يقول : الشنب برد الفم والأسنان لسان العرب (شنب) .
 (٥) الاغاني ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

"إذا ما الهجارس^(١) غثينها

تجارتن يالفلوات الويكارا^(٢)

فقال له النصيب : والوإزار لا تسكن الفلوات . ثم أنشد حتى بلغ منها :

كأن الفطاميط^(٣) من غليها

أراجيز أسلم تهجو غفارا

فقال النصيب : ما هجت أسلم غفارا قط ، فانكسر الكميث وأمسك^(٤) "

فنقد النصيب لهذا النص ، يقوم على العلاقة بين الشعر والواقع ، إذ ينبغي أن يتحرى الأديب الدقة في نقل الواقع إلى الأديب .

ولقد كان الاهتمام باللفظ والمعنى على السواء في العصر الأموي ، من المقاييس النقدية التي يفضل على أساسها الشعراء . فمن ذلك يقول ابن أبي عتيق : " أشعر قريش من دق معناه ، ولطف مدخله ، وسهل مخرجه ، ومتن حشوه وتعطفت حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأعرب عن حاجته " . (٥)

ومن ذلك يقول القرشي " وقال الذين قدّموا النابغة : هو أوضحهم معنًى ، وأجودهم جوهرًا ، وأبعدهم غاية ، وأكثرهم فائدة " . (٦)

وكان الخلفاء الأمويون يتذوقون الشعر ، ويبدون آراءهم فيه ، فعبد الملك بن مروان مثلاً ، ينصح مؤدب أبناءه ، بتدريسهم شعر الأعشى (٧) . وذلك لأن لأشعاره

- (١) " والهجارس الثعالب " لسان العرب (هجرس) .
- (٢) " والهجر بالتسكين : دويبة على قدر السنور غبرا أو بيضا من دواب الصحراء... لسان العرب (وير) .
- (٣) " والفطاميط بالضم : صوت غليان موج البحر ، وقد قيل : إن الميم زائدة " لسان العرب (غطط) .
- (٤) الاغانى ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .
- (٥) نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٩ .
- (٦) الجمهرة ، ج ١ ، ص ١٩١ .
- (٧) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

* عذوبة تدلهم على محاسن الأخلاق قاتله الله ، ما أغزر بحره ، وأصلب صخره . * (١)

فنقد عبد الملك هنا ، يقوم على الشكل والمضمون ، فأما نقد الشكل فيقوم على التذوق الخاص والاحساس ، إذ يرى أن شعره غزير وقوى ، وأما نقد المضمون ، فقد أعجب بما يعلمه شعر الأعشى من الأخلاق الحسنة .

وكان النقد في ذلك العصر ، يقوم أيضا على تصنيف الشعراء في الجودة ، من حيث الأغراض الشعرية التي يتقنونها ، من ذلك مثلا يقول ابن أبي طريفة : * كفاك من الشعراء خمسة ، زهير إذا طرب ، والنايفة إذا رهب ، والأعشى إذا رغب ، وعنترة إذا كلب ، وامروء القيس إذا ركب . * (٢)

وفي أواخر العصر الأموي ، وأوائل العصر العباسي ، بدأت التأليف المختلفة التي تحتوى على المحاولات النقدية في الأدب ، من أمثال عبد الحميد الكاتب (- ١٣٢ هـ) المعروف ببلاغته في النثر . (٣) لا سيما في رسائله (٤) ، وابن المقفع (- ١٤٢ هـ) المشهور بتأليفه وترجماته . (٥)

ويرر ابن المقفع عدم قرضه للشعر بقوله * الذي أراض لا يجيئني ، والسبدي يجيئني لا أراض * (٦) لأن الشعر موهبة أصيلة في النفس ، لا تتأتى لكل من يتفسي أن يصبح شاعرا ، إذ ينبغي أن يقصد الإنسان إلى قول الشعر ، إذا وجد في نفسه الموهبة والقدرة ، فينميها بالدراسة والعمان . وآلا فلا فائدة من كد النفس ، إن لم تستجب الطبيعة .

-
- (١) الجمهرة ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .
 - (٢) نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٠ .
 - (٣) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .
 - (٤) انظر ، الزركلي - خير الدين - الأعلام ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ج ٣ ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .
 - (٥) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٠ .
 - (٦) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٨ ، ٢١٠ .

ولابن المقفع آراء نقدية مختلفة ، منها رأيه في البلاغة ، حيث يقول : " البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجماً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعمامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها ، والإشارة إلى المعنى ، والإيجاز ، هو البلاغة . " (١) كما أن هناك خطباً تحتاج إلى الإطالة ، يذكرها ابن المقفع . (٢)

وأما الشعر ، فهو يرى أن " خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته " (٣) وذلك من قبيل التناسب الموسيقي والإيقاع .

ومن أشهر تاليف الخليل بن أحمد (- ١٧٠ هـ) كتابه في " العروض " (٤) وقد استقى ترتيب بيوت الشعر ، من البيئة البدوية ، يقول : " رتب البيت من الشعر ترتيب البيت من بيوت العرب الشعر - يريد الخباء - قال : فسميت لإقواء ما جاء من المرفوع في الشعر والمخفوض على قافية واحدة . . . لأن العرب تقول أقوى الفاتل إذا جاءت قوة من الحبل تخالف سائر القوى . . . قال وسميت تغير ما قبل حرف الزوي سناداً من مساندة بيت إلى بيت إذا كان كل واحد منهما ملقى على صاحبه ليس مستويا كهذا . ومثل ذلك من الشعر :

فاملأى وجهك الجميل خموشاً

ثم قال : وينا سميت قریش قریشاً

قال : وسميت الإكفاء ما اضطرب حرف رويه فجاء مرة نونا ومرة يما ومرة لاما ، وتفعل العرب ذلك لقرب مخرج الميم من النون . . . مأخوذ من قولهم بيت مكفاً إذا اختلفت شقاه التي في مؤخره ، والكفاة الشقة في مؤخر البيت . . . " (٥)

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) أنظر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ١١٦ .

(٤) أنظر ، الأعلام ، ج ٢ ، ص ٣١٤ .

(٥) الموشح ، ص ٢٠ .

كما يمثل الأسباب التي دعت إلى تسمية بحور الشعر بالطويل ، والبسيط ، والمديد والواقر ، والكامل ، والهزج ، والرجز ، والرمل ، والسريع ، والمتسرح ، والخفيف ، والمقتضب ، والمضارع والمجتث ، والمقارب . (١)

ويستمر النقد الأدبي بالتطور ، إلى أن تتضح بعض معالمه مع الأصمعي (٢١٦ هـ) وقد ساعده على ذلك سعة درايته بالشعر ، إذ كان راوية للشعر ، عالماً باللفظة والشعر والبلدان * (٢) مما دعاه إلى التذوق والتفسير والتعليل . . . وأبدأ رأيه فسي الأشعار المختلفة والشعراء . ولذلك نجد المصادر المختلفة تحرص على النقل عنه ما يرويه من الأشعار ، وتبيان آرائه فيها ، ففي مجال نقده في اللفظة يقول : " إذا تمتع اللسان في التاء فهو تمام ، وإذا تمتع في الفاء فهو فائء " . (٣) ، وفي البلاغة يقول : " البليغ من طبق الفصل ، وأغناك عن المفسر " . (٤)

ومن نقد الشعر عند الأصمعي أنه عاب على امرئ القيس قوله :

* وأركب في الروع خيفانسة

كبا وجهها سمف منتشر

وقال إذا غطت الناصية الوجه لم يكن الفرس كريماً . والجيد الاعتدال كما

قال عبيد :

مضبر خلقها تضبيرا

ينشق عن وجهها السبب * (٥)

وهنا ينقد الأصمعي الخطأ في المعنى .

(١) أنظر ، العمدة ، ج ١ ، ص ١٣٦ .

(٢) أنظر ، الاعلام ، ج ٤ ، ص ١٦٢ .

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٧ .

(٤) نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

(٥) الموشح ، ص ٣٣ .

ومن نقده للشعراء ، يقول : " طفيل الفنوى في بعض شعره أشعر من امرئ القيس " (١) . غير أنه لا يلجأ الى التعليل في هذا الموضع . وهو يشكك في صحة بعض أشعار امرئ القيس فيقول : " ويقال ان كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه " (٢) . ومن الملاحظ هنا أنه بدأ البحث عن الانتحال في الشعر ، وقد يكون هذا من تأثير منهج الدراسات في صحة الأحاديث المروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وينقل الحاتمي عن الجاحظ قوله : " كنا نغمد بعد صلاة العصر في حلقة الأضاعي للمذاكرة قبل حضوره ، فجاءنا شيخ في بعض الجمعات فذاكرنا أحسن مذاكرة ، ومرّ فيما مرّ قول مهلهل :

أنبضوا معجس القسي وأبورة

نا كما ترعد الفحول الفحولاً

قال الجاحظ : فقلت : سمعت الأضاعي يقول : إنها مصنوعة فقال الشيخ سمعت الأضاعي يقول ذلك ، وهي من مولدي العقبيق . " (٣)

وينتهي بنا المطاف مع محمد بن سلام الجمحي (٢٣٢ هـ) وهو من معاصري الجاحظ ، فله مؤلفات عديدة . (٤) من أبرزها " طبقات فحول الشعراء " الذي تحتوى مقدمته على آراء نقدية ، لا سيما في الشعر ، فيرى أن الشعر كثير جداً في القبائل المختلفة " ان كان لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب " ، ولذلك ، فقد انتقى من هذا الشعر " ما لا يجهله عالم ، ولا يستغني عن علمه ناظر في أمر العرب " (٥) إذ أن في الشعر الفت والسمين ، ولقد تداول الناس الشعر السقيم ، الذي لا فائدة

(١) الموشح ، ص ٣٢ .

(٢) نفسه ، ص ٣٢ .

(٣) الحاتمي - أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر - حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، تحقيق د . جعفر الكتاني ، العراق ، ١٩٧٩ م / ج ٢ ، ص ٣٦ .

(٤) أنظر ، الاعلام ، ج ٦ ، ص ١٤٦ .

(٥) أنظر ، الجمحي - محمد بن سلام - طبقات فحول الشعراء ، تحقيق محمود محمد شاكر ، القاهرة / ج ١ ، ص ٣ .

ترجى منه ، وتناقلوه " من كتاب الى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء . " (١) وإن هذه الأقوال تلقي ضوءاً على ملامح المنهج النقدي في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، فقد كانوا يحكمون على الشعر بعد عرضه على الأعراب ، الأقحاح ، والعلماء ، لمعرفة قيمته ومدى جودته ، وما إذا كان موضوعاً أم صحيحاً . . . وغير ذلك من الجوانب النقدية المختلفة ، فإذا أجمعوا على قبوله يؤخذ والّا فإنه يرفض . (٢)

والشعر فن ، له أصوله فهو كما يعرفه ابن سلام " صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم " (٣) فللشعر إذن علماء ، وهم النقاد الذين يحكمون بجودته ورفعته ، أو ركاكته وضعفه ، ولكل فن رواده وعلماء ، ولكل علم فقهاء . (٤)

وفي معرض حديثه عن محمد بن اسحاق بن يسار (٥) الذي " أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه " (٦) ووضع أشعاراً على لسان عاد وثمود ، فيصف ابن سلام ذلك الشعر الموضوع بأنه " ليس بشعر وإنما هو كلام مؤلف معقود بقواف " (٧) فهو هنا يتطرق الى الحديث عن ماهية الشعر ، إذ ليس كل كلام موزون ، شعراً .

ويأتي بالأدلة القرآنية التي تؤكد انقطاع آثار عاد وثمود . (٨) كما يأتي بالأقوال والأشعار التي يدحض بها منطقاً ادعاء ابن يسار هذا ، بوجود أشعار لعاد وثمود . (٩) وهذا من المناهج النقدية في ذلك العصر .

-
- (١) انظر ، الطبقات ، ج ١ ، ص ٤ .
 - (٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤ .
 - (٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٥ .
 - (٤) أنظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٥ - ٧ .
 - (٥) أنظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧ - ٨ .
 - (٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٧ .
 - (٧) نفسه ، ج ١ ، ص ٨ .
 - (٨) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٨ .
 - (٩) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٩ - ١١ .

ويحدثنا ابن سلام ، أن محمدا بن علي يقول : " أول من تكلم بالعربية ونسي
لسان أبيه اسماعيل بن ابراهيم صلوات الله عليهما . " (١)

ويتوقف ابن سلام عند قوله " العربية " ، فيرى أن محمدا بن علي يقصد بقوله
" العربية " أي " اللسان الذي نزل به القرآن " ، وما تكلمت به العرب على عهد النبي
صلى الله عليه وسلم " (٢) . ثم ينتقل إلى الحديث عن النحو العربي ، وأن أول من
بدأه أبو الأسود الدؤلي ، ويتعرض في حديثه هذا إلى موضوع اللحن والأخبار المختلفة
حول هذه القضية ، ويعرض أيضا إلى الاختلاف في القراءات القرآنية . (٣) ثم يعود
بعد ذلك إلى الحديث عن الشعر ، في منهج شبيه بالاستطراد عند الجاحظ ، إذ يقول
ابن سلام : " رجع إلى قول الشعراء " ، وإلى قول العلماء " فيه ولكل من ذكرنا قول فيه " (٤) .

ويحدثنا ابن سلام ، أن الجاهليين قد دونوا علومهم وحكمهم شعرا . (٥) ولذلك
كثرت الأشعار في مختلف الموضوعات ، إلى أن " جاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا
بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايتهم " . (٦)

وقد أدى هذا كله ، إلى عدم الانشغال بجمع الشعر وتدوينه ، فلما استتب
الأمر ، واستقر الناس " وأطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى
ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ،
فحفظوا أقل ذلك ، ونهب عليهم منه كثير " (٧) فقد وجدوا أنه ضاع من الشعر أكثره
إن كان الاعتماد في جمع الشعر على الرواية والمشافهة . وهذا يفسر قلة الشعر لطرفة

-
- (١) الطبقات ، ج ١ ، ص ٩ .
 - (٢) نفسه ، ج ١ ، ص ١٠ .
 - (٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٢ - ٢٢ .
 - (٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣ .
 - (٥) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤ .
 - (٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥ .
 - (٧) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥ .

وعبيد في أيدي " الرواة المصححين " وما وضع على ألسنتهما من الشعر الفث . وكان نصيبهما من الوضع أكثر من غيرها من الشعراء إذ " كانا أقدم الفحول " . (١)

ومن جهة أخرى ، أقدمت بعض القبائل على وضع الشعر على ألسنة شعرائها القدامى ، للتفتي بوقائعها وأشعارها وتفاخيرها بين العرب (٢) فدخل في جمع الأشعار من لا يوثق بأمانته العلمية ، إذ " كان أول من جمع أشعار العرب وسباق أحاديثها : حماد الراوية وكان غير موثوق به ، وكان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ، ويزيد في الأشعار " . (٣)

وبعرض ابن سلام ، أشعارا صحيحة ، قديمة مفسرا بعض الكلمات الغامضة ، أحيانا ومعرفا ببعض الأعلام ، وذاكرا بعض أخبارهم أحيانا أخرى . (٤)

ويتحدث عن شعراء الجاهلية ، وقبائلهم ، وأسبقيتهم في الشعر (٥) ، كما يذكر من اشتهر منهم بالعفة ، ومن فسق في شعره . (٦)

فمنهج ابن سلام في النقد ، يتمثل بالاعتماد على القرآن والأشعار والأقوال والأخبار ، كما يميل الى شرح الالفاظ التي يرى أنها تحتاج الى قليل من الشرح ، والتعريف ببعض الأعلام .

ويأخذ الحديث في بعض المواضع ، الى الاستطراد ، ومن الملاحظ أن القضية الأساسية التي تشغله في هذا الكتاب ، هي قضية الوضع ، على لسان قدامى الشعراء .

-
- (١) انظر ، الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٥ - ٢٦ .
 - (٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤٦ .
 - (٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٤٨ .
 - (٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦ - ٤٠ .
 - (٥) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤٠ - ٤١ .
 - (٦) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤١ - ٤٦ .

ولعل ذلك هو السبب الذي دعاه الى تأليف هذا الكتاب ، وفي مقدمته هذه ، يشرح منهجه الذي سار عليه في كتابه هذا ، يقول : " ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام ، والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الاسلام ، فنزلناهم منازلهم واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة ، وما قال فيه العلماء " . (١)

ومعد ، فإن هذه العلامح للتطورات التي مرّ بها هذا الفن من القول فـ في النقد الأدبي ، تشير الى المصادر التي أوحى الى الجاحظ منهجه الابداعي فـ في النقد الادبي . وربما تساهم هذه النظرة الشاملة في وضع الجاحظ ناقدا أدبيا فـ في مكانته التاريخية التي يستحقها في تطور هذا الفن ، فقد تتلمذ على من كان قبله ، ونهل من مصادرهم ، وأبدع وأحسن العطاء لمن جاء بعده ، فقد تتلمذ عليه الكثيرون ، وأصبح صاحب مدرسة أدبية ونقدية معروفة في تاريخ أدبنا العربي ، عبر القرون وحتى عصرنا الحاضر .

(١) الطبقات ، ج ١ ، ص ٢٣ - ٢٤ .

الفصل الأول

النقد البياني عند الجاحظ

- ١ . التعبير والبيان عند الجاحظ .
- ٢ . أساليب التعبير ووسائل البيان عند الجاحظ .

أ . في القول والمي :

لا قال أبو عثمان عمرو بن بحر ، رحمه الله :

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من
التكلف لما لا تحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ، ونعوذ بك من السلاطمة
والهذر ، كما نعوذ بك من العي والحصر . وقد يما ما تعوذوا بالله من شرهما ، وتضرعوا
إلى الله في السلامة منهما . (١)

بهذه الدعوة ، يفتح الجاحظ ، كتابه الذي وسه ب " البيان والتبيين " . ولعل
من أشد ما يخشس ، فتنة القول ، التي تفتن صاحبها عن الحق ، وتخرجها
عن جادة الصواب . فالجاحظ ، كاتب أديب ، فضلا عن كونه مفكرا عالما ، وفن القول
صناعتة التي تفرغ لها ، وأفرغ فيها من جهده وسنّي عمره ، وجاد بمعرفته وحسن منطقته
وميانه . من خلالها ، فأفادت منه الأجيال على مدى العصور ، إلى وقتنا هذا . فمن
البديهي أن ، أن يتهيب من القول وما قد يتبعه من الافتتان والاعجاب بالنفس ،
خاصة إذا خاض الأديب فيما يتقن من الآداب والعلوم المختلفة ، ما قد يؤدي إلى
عواقب وخيمة كالزهو بالنفس والكبر ، والاستهانة بالخصوم والنقاد الذين يترصدون
به ، وهنا يكون موضع القتل منه ، أن يتراخي فيما يكتب ، وتكثر أخطاؤه وهفواته ، فتعسي
بصره وصيرته (٢) ، ليجعل من نفسه هدفا لخصومه وأعدائه . ولذلك يضع الجاحظ
نصب عينيه قول ابن هرمة :

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣ .

(٢) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٤٠٩ ، وانظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

وانظر ، د . محمد بركات حمدي أبو علي ، الاصول الادبية في كتاب البيان والتبيين ،
عمان ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م / ص ١٤ - ١٥ .

" إن الحديث تفر القوم خلوتهم
حتى يلج بهم عتي واكشار " (١)

ولهذا ، فإن الأديب الذي لا يحتز لنفسه ، من منبة الوقوع لقمة سائفة بمن
السنة النقاد والخصوم ، فإنه يفامر بسمعه الأدبية ، ويحط من قيمة ما يكتب .

أما إذا كلف الكاتب نفسه ، جرم الوقوع في متهات ما لا يحسن من العلوم والفنون
وشتى صنوف المعرفة ، فإنه بذلك يحكم على نفسه بالانهيار الأدبي والفكري ، ويعرض
نفسه لتهم النقاد واستهزائهم به ، فيتلاشى صوته ، ويدرس أثره ، ويجلب على نفسه
ما لا يحمد عقباء . ولذا يقول الجاحظ : " ونحن نعوذ بالله من التكلف وانتحال
ما لا نحسن ، ونسأله القصد في القول والعمل ، وأن يكون ذلك لوجهه ، ولنصرة دينه ،
إنه قريب مجيب " . (٢)

وقد يكون هذا الربط بين القول والعمل ، يعتبر بداية للولوج الى الحديث
عن قضايا البيان كاللفظ والمعنى ، أو الشكل والمضمون بشكل عام ، لأن العمل يعبر عنه
بالقول ، فعلى الرغم من هذه المقابلة بين هذين الطرفين فإنهما يرتبطان بعلاقة
تأثير وتأثير . فالمعنى يعطي اللفظ صورته في التعبير ، واللفظ يبين طبيعة هذا المعنى
وحقيقته ، ويكشف عنه ستار الفموض . ومن الملاحظ ، أن هذا هو شأن الجاحظ ، يقابل
بين المتضادين ، ويربط بينهما بعلاقة خفية ، كزهو العارف ، وتكلف الجاهل ، فكلاهما
يقضي على نفسه ، الأول بزهوه ، وكبره ، والثاني بتكلفه وإغراق نفسه فيما لا يعرف . وكذلك
يتحدث الجاحظ عن كثرة الكلام الذي يجلب معه السقط والوقوع في الزلل والخطأ ، ويقابله
بالعجز عن الكلام وعدم القدرة على التعبير . وكلاهما يحكم على نفسه بالاستهانة بهما ،
الأول بكثرة كلامه دونما فائدة ، والثاني بالعجز الذي يعتبر أكبر مذمة ، خصوصا عند

(١) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ .

(٢) الجاحظ - ابو عثمان عمرو بن بحر ، رسائل الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون

مصر ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م / ج ٣ ، ص ٣٠٨ .

العرب أولي البيان والبلاغة . ولذلك كانت الكلمة ترفع قائلها وتعلي من شأنه ، أو تسقطه وتميت اسمه . بل إنها قد تؤدي إلى هلاكه . يقول : " ... فإنك إذا نظرت إلى جميع شرور الدنيا وجدت أولها كلمة عارت فجنت حرباً عواناً ، ... وإذا تأملت أخيار الماضين لم تحص عدد من قتله لسانه وكان هلاكه في كلمة بدرت منه " . (١)

والجاحظ ، بذلك يبين أهمية فن القول ، ومدى خطورته في جميع مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فإذا كانت الكلمة قد تدفع إلى الحرب الضروس وتفسير تاريخ أمة بأكملها ، فإن خطورة فن القول لا تزال تدفع بأصحابها إلى الهلاك حتى وقتنا الحالي ، وهذا يبين مدى تأثير الكلمة الصادقة ، الصادرة عن ذوي الأقلام الحرة ، " ولربما كان اللسان أنفذ من السنان ، وأقطع من السيف اليمان " . (٢) فيرد على الكلمة بالقمع أو القتل ، ليدفع الكاتب حياته ثمناً لكلمته .

وهذه هي حال المجتمعات ، منذ غابر الأزمنة والعصور ، فالتاريخ ملوئٌ بذكر أعلام لاقت مصرعها من جرأ بيت شعر ، أو رسالة أو خطبة ، أو فكرة جديدة صائبة تهتد التفكير السائد وتزلزل كيان النظام المتبني لذلك التفكير وتزيل الغشاوة عن العقول والضائس .

ولذلك فإنه يعتبر " أن فتنة اللسان والقلم أشد من فتنة النساء والحرص على المال " . (٣) ولهذا ينصح الإنسان أن يتأنى قبل القول ، وأن يعرف كيف يضبط لسانه " . (٤) .

هذا ، وفي مقابل سلاسة القول ، ينتقل الجاحظ إلى الحديث عن العي فيمرقه بقوله : " ووقع اسم العي على كل شيء قصر عن المقدار . فالعي مذموم والخطل مذموم ،

(١) رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .

(٣) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٠٨ .

(٤) أنظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

ودين الله تبارك وتعالى بين المقصر والغالي . * (١) فنظرته الأدبية العامة تنادي بالمذهب الوسط، كي لا يقع القائل في الشطط من الكلام، وهنا تتضح العلاقة بين الفكر والأدب، فسلامة التفكير ترتبط ارتباطاً عضوياً في نظره، بسلامة اللغة ودقة التعبير ووضوح الدلالة . وقد جعل من هذا " المذهب الوسط " القاعدة الفكرية التي يطبقها على الأدب . (

ويتسم منهجه بشكل عام بإيراد الأمثلة الغزيرة المتنوعة، ولا ثبات نظرية يتبناها، أو فكرة يقول بها، فهو يعرف حق المعرفة أنه لكي يتسنى للفكرة أن تشيع، وتلقى القبول والاعتناء بها، لا بدّ لمبدعها من الأدلة القرآنية والشعرية . لذلك نجده يستشهد بأمثلة كثيرة قرآنية أو شعرية، معلقاً على بعضها ومفسراً بعضها الآخر . وقد نهج هذا المنهج في معرض الحديث عن القول والعق (٢) . فمن الأشعار، يقول على سبيل المثال معلقاً " قول زيان بن سيار " :
ولسنا كأقوام أجّدوا رياسة

يرى مالها ولا يحسن فعالها

يريفون في الخصب الأمور ونفهم

قليل إذا الاموال طال هزالها

وقلنا بلا عي وسسنا بطاقسة

إذا النار نار الحرب طال اشتعالها

لأنهم يجعلون المعجز والعق من الخرق، كانوا في الجوارح أم في الألسنة. * (٣)

ومن القرآن الكريم، يذكر الجاحظ قصة الحبسة التي عقدت لسان موسى عليه السلام، فيقول : " وسأل الله عز وجل موسى بن عمران، عليه السلام، حين بعثه إلى

(١) البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٠٢ .

(٢) أنظر نفسه، ج ١، ص ٣ وما بعدها .

(٣) نفسه، ج ١، ص ٤ - ٥ .

فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حجته، والإفصاح عن أدلته، فقال حين ذكر المقدمة التي كانت في لسانه، والحبسة التي كانت في بيانه: (وَأُحْلِلُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) (...). وقال موسى صلى الله عليه وسلم: (وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدّقني) (٢) وقال: (ويضيق صدري ولا ينطق لساني) (٣) رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكسب الأعناق اليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس اليه أسرع، وإن كان قد يأتي مسن ورا، الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة. (٤)

ولا يزال الجاحظ في هذا الموضع يركز على تلك العلاقة بين اللغة والفكر، فيفصل الحديث عن العلاقة بين فصاحة اللسان وبيانه وبلاغته وبين سلامة الفكرة التي يعبر عنها بوضوح وجلالة، فينفذ بها عبر لغته السلسلة المؤثرة إلى النفوس والقلوب، لتستميلها وتقرّبها.

(فإذا كان لا بدّ للرسول من بلاغة اللسان، لتكون وسيلة لقوة الاقتناع، فانه يعمل سبب هذه الحبسة التي عقد الله تعالى بها لسان موسى عليه السلام، بأن الله حكّمه التي يمتحن بها الناس، فأمّا أن ييسر لهم الأمور، وأمّا أن يعسرها عليهم، وفي كلتا الحالتين فإن ذلك اختبار لهم. (٥)

ولعلّ القارىء، يلمس في فكرة امتحان الله لعباده، خيطاً يرتبط بأحد مبادئ المعتزلة الخمسة، وهو مبدأ العدل الإلهي الذي ينتهي إلى أن الإنسان مخير غير مسير، وهو خالق لأفعاله مختار للخير. وإذا سار في سبيله، ومختار للشر إذا سلك طريقه. والله في كلتا الحالتين يمتحنه، ومن ثمّ يحاسبه على ما جنت يده. (٦)

(١) طه ٢٧ - ٢٨.

(٢) القصص ٣٤.

(٣) الشعراء ١٣.

(٤) البيان والتبيين ١ ج ١، ص ٧.

(٥) أنظر نفسه ١ ج ١، ص ٧.

ويعلق الجاحظ قائلاً : " ولكل زمان ضرب من المصلحة ونوع من المحنة ، وشكل من العباداة . " (١) ولعله يرمي في هذه الجملة الأخيرة ، الى أنه لكل زمان ظروفه وطرائقه في التفكير ، ونظرته الى الحياة ، تفسر في مجملها علاقات الناس وتصوراتهم ، وما يتقبلونه من الامور وما يرفضونه . . . فكانه يدعو الباحث عند دراسته لأي عصر من العصور أن يراعي هذه الامور دون إسقاط من عصره يحول دون فهم حقيقي لذلك العصر الذي هو بصدده .

ويستمر في الاستشهاد بالآيات القرآنية التي تبرهن على أن الله تعالى قد استجاب لدعاء موسى (٢) ، فيقول معلقاً على الآية الكريمة (قد أوتيت سؤالك يا موسى) (٣) " فلم تقع الاستجابة على شيء من دعائه دون شيء لعموم الخبر . " (٤) وهذا يوضح منهجنا في التفسير ، فهو يعتمد على أن الله قد استجاب لدعاء موسى كله ، حيث إن قوله تعالى (أوتيت سؤالك) مطلق ، عام ، لا تقييد فيه ، أو تخصيص .

ثم يتطرق إلى السبب الحديث عن بلاغة قريش ، وسلامة منطقها ، ورجاحة عقولها . . . وما يتصف به العرب بعامة ، من الدهاء وبلاغة اللسان وحدثة ، والشراسة حين يحتدم الخصام ، وقوة المجادلة ، وما يتمتعون به من " خلاصة ألسنتهم واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم " (٥) ، مستشهداً في ذلك كله بالآيات القرآنية الكريمة (٦) ، ومن ذلك قوله تعالى (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) (٧) وقوله تعالى (آللهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون) (٨) وقوله

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٨ .

(٣) طه ، ٣٦ .

(٤) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨ .

(٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٩ .

(٦) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٨ - ٩ ، ١١ .

(٧) الاحزاب ، ١٩ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨ .

(٨) الزخرف ، ٥٨ ، نفسه ، ج ١ ، ص ٩ .

تعالى (وإن يقولوا تسمع لقولهم) (١) وقوله تعالى (وإن كان مكرهم لتزول منسه
الجهال) (٢) ، وكذلك ، يأتي به الجاحظ ، ليدل على تميز العرب في فن القول ،
حيث إن الآيات القرآنية التي يأتي بها في هذا الموضع ، وإن كانت تقصد الكفار ، إلا
أنها تقر للعرب بالصفات المذكورة آنفا من البلاغة والبيان والتفوق في فن القول الذي
يدخل في صميم حياتهم اليومية ، فحسن القول والمحادثة يرتبط عند هم بكرم الضيافة ،
يقول : " ولأن العرب تجعل الحديث والبسط والتأنيس والتلقي بالبشر ، من حقوق
القرى ومن تمام الإكرام به . وقالوا : " من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة
الحديث عند الموائمة " (٣) .

وهنا يتبين الجانب الاجتماعي عند العرب ، فالكرم لا يقتصر على تقديم ما طاب
من الطعام للضيف ، وإنما لا بد من الترحيب به ، وإطالة الحديث والقول الحسن ، خلال
الجلوس إلى المائدة . . . ويدل . . . كماداته . ، على هذا الموضوع ، بالأشعار
المختلفة (٤) ، من ذلك يقول : " وقال آخر :

أضاحك ضيفي قبل أنزال رجليه
ويخصب عندي والمحل جديد
وما الخصب للضياف أن يكثر القرى

ولكنما وجه الكريم خصيب (٥)

(وهو في حديثه عن منطق العرب وبيانهم ، وقد رتبهم على المنازعة والجدل ، يبدأ بشحن
سيفه ، ليخوض المعركة ضد الشعوبية ، عن طريق تبين قوة العرب البيانية التي تميزهم
عن سائر الشعوب الأخرى ، لا سيما أن القرآن الكريم ، قد نزل بلغتهم .)

(١) المنافقون ، ٤ ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٩ .

(٢) إبراهيم ، ٤٦ ، نفسه ، ج ١ ، ص ١١ .

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٠ .

(٤) أنظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٠ - ١١ .

(٥) نفسه ، ج ١ ، ص ١١ .

وإذا كان الجاحظ ، يستعيز بالله من القول وفتنته ، وما يتبعه من سلاطة اللسان وكثرة الكلام ، وما يقابله من العمل وفتنته . . . فهو يستعيز بالله كذلك من " المصير " والحصص " (١) ، مستشهدا بما ينتقيه من الآيات القرآنية والأشعار ، يقول : " وضرب الله عز وجل مثلاً لعمى اللسان ورداءة البيان ، حين شبه أهله بالنساء والولدان : فقال تعالى : (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) (٢) ، ولذلك قال النمر ابن توليب :-

وكسلٌ خليلٍ عليه الرَّعْصُ

تُ والحُبَلَاتُ ، ضَعِيفٌ مِلْقُوقٌ " (٣)

فالعجز عن الإتيان بالحجة ، والإقناع المنطقي . . . انما هو نتيجة للكسل ، وقلة الهمة ، والقعود عن تدريب العقل وتمرينه والانغماس في اللهو واللذات . فالجاحظ يدعو إلى عدم إهمال العقل والموهبة كي لا يستولي على الانسان العجز (٤) ، ذلك السداء المستعصي ، إذ على الرغم من مساوئ سلاطة اللسان وكثرة الكلام ، فإن خطر العمى والعجز عن الكلام أعظم وأشد ، خاصة إذا اجتمع مع العمى تكلف الخطابة ، وادعاء القدرة على المناظرة ، فمن كانت هذه صفته ، فإن ذنبه يتعاضد ، وذمه يتضاعف ، إذا سمع لمعارضه " البليغ المصقع " أو " الشاعر المقلق " . هذا والناس لا يتعرضون لدم من استولى على

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣ ، والبحث ، ص ٢٤ .

(٢) الزمخشري ، ص ١٨ .

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١ : يقول الجاحظ : " الرعاع : القِرْطَةُ . والحُبَلَات : كسل ما تزينت به المرأة من حسن الحلي ، والواحدة حُبْلَة " .

يقول الزمخشري في " الكشف " مفسراً " الحلية " على أنها " النعمة " : " . . . (ينشأ في الحلية) - أي يترتب في الزينة والنعمة ، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم ومجاراتة الرجال ، كان غير مبين ، ليس عنده بيان ، ولا يأتي ببرهان يحتج به - من يخاصمه " ، (الزمخشري - محمود بن عمر ، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تحقيق مصطفى حسين أحمد ، القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م / ج ٤ ، ص ١٩١) . ولا توجد في القرآن الكريم إشارة تسم النساء وتنعتنهن بالعمى ورداءة البيان ، على حد تفسير الجاحظ ، وانما هذا اجتراء منه ، يبين نظرية المجتمع للمرأة في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، حيث يحلو للرجل أن ينظر للمرأة نظرة القوي للضعيف ، على الرغم من التقدم الحضاري والفكري الذي شهده ذلك العصر .

(٤) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

لسانه المعجز العضوي، كالأخرس مثلاً، لأنه لا يد له في الأمر، ولا حول له ولا قوة (١)،
لذلك يقول: "وليس اللّجلاج (٢) والتّمّتام (٣)، والألّثغ (٤) والفأفاء (٥)، وذو الحبسة (٦)
والحكلة (٧) والرّثة (٨) وذو اللّف (٩) والمجلة، في سبيل الخصر في خطبته،
والعبيّ في منازلة خصومه" (١٠).

والعبيّ، لا يستولي على المتكلم أو المتحدث وحسب، وإنما يسري كذلك على
الشاعر والخطيب ولا يزال الجاحظ يفضل الذي يطيل ويسهب في الخطابة والشمـر
على ذلك الذي يتكلفهما وهو مصاب بـ"العبيّ" (١١).

من جهة أخرى يرى أن المتكلمين من أرباب "التشديق" (١٢) والتقمير (١٣)

- (١) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٢: "وَأَلَّا يَخْرُجَ بَعْضُهُ فِي أَثَرِ بَعْضٍ... والّلجلاج
- (٢) "الّلجلاج: ثقل اللسان، ونقص الكلام، وألّا يخرج بعضه في أثر بعض... والّلجلاج
- (٣) "الّتّمّمة: ردّ الكلام إلى التاء والميم... ورجل تّمّام والأنثى تّمّامة... محمد بن
- (٤) "الّلثغة: أن تعدل الحرف إلى حرف غيره... واللّثغة ثقل اللسان بالكلام... لسان العرب (لثغ)
- (٥) "الفأفاء: على فعال: الذي يكثر ترداد الفاء إذا تكلم... والفأفاء: حبسة في اللسان
- (٦) "والحبسة والاحتباس في الكلام: التوقف... قال المبرد... الحبسة تعذر الكلام
- (٧) "الحكمة كالعجّة لا يُبين صاحبها الكلام، والحكمة والحكيمة: اللّثغة... لسان
- (٨) "الرّثة، بالضم: عجلة في الكلام، وقلة أناة... الأرت: الذي في لسانه عقدة
- (٩) "وَرَجُلٌ أَلْفٌ بَيْنَ أَلْفَيْنِ، أي عبيّ بطيء الكلام، إذا تكلم ملأ لسانه منه... لسان العرب (لفف)
- (١٠) البيان والتبيين، ج ١، ص ١٢.
- (١١) نفسه، ج ١، ص ١٣.
- (١٢) "والمتشديق: الذي يلوي شدقه للتفصيح... ويقال: هو متشديق في منطقه إذا كان
- (١٣) "وقعر في كلامه وتقر تشدقه وتكلم بأقصى قعره، وقيل: تكلم بأقصى حلقه... والتقمير: التعميق... لسان العرب (قمـر)

والتعقيب (١) من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف وشنعة التزيد أعذر من عيب يتكلف الخطابة ، ومن حضر يتعرض لأهل الاعتقاد والدربة . ومذاق اللائمة وستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف ، وميانا يمازجه التزيد . إلا أن تعاطي الحصر المنقوص مقام الدرب التام ، أقبح من تعاطي البليغ الخطيب ، ومن تشادق الأعرابي القح . وانتحال المعروف ببعض الفزارة في المعاني والألفاظ ، وفي التعبير والارتجال ، أنه البهــــــــــــــ الذي لا يُنزع ، والفقر الذي لا يُسبر ، أيسر من انتحال الحصر المنخوب أنه في مســـــــــــــ التام الموقر ، والجامع المحكم (٢) .

فيلغ من هجومه على العمي والحصر حدا أنه لا يرى أسوأ من هذا الداء الذي لا دواء له ! فالقول وإن مازجه التكلف ، يبقى فتا ، وإن شابه التشديق والتعقيب والتعقيب وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك كله (٣) في قوله : " آيـآى والتشادق " وقال " أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون " ، وقال : " من بدأ جفا " (٤) ، تظـلـل فيه روح البيان ، أما إذا كان مصابا بالعمي ، فإنه يهوى بقائله ، في مهاوي الجمود والفقر الفكري واللغوي ، لذلك ينبغي أن لا يخوض القائل في أمر ، ألا وهو عالم فيه متمكن منه ، قادر عليه ، فإن تشدق وتقمـر . . . ليم على ذلك ، ولكن أمره يظل أهون شرا من العمي الحصر ، الذي يتمنطق سيف الخطابة والشعر ، وهما منه براء . " فمن أسوأ حالا - أيقاك الله - من يكون ألوم من المتشدقين ، ومن الثرثارين المتفيهقين ومن ذكره النبي صلى الله عليه وسلم نصا ، وجعل النهي عن مذهبه مفسرا ، وذكر مقتله له وبغضه آيـآء " (٥) .

(١) والتعقيب في الكلام : كالتعقيب . . . وهذا كلام له قعب ، أى غور . . . لسان العرب (قعب) .

(٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٣ .

(٣) انظر نفسه ، ج ١ ، ص ١٣ - ١٤ .

(٤) نفسه ، ج ١ ، ص ١٣ .

(٥) نفسه ، ج ١ ، ص ١٤ .

٣ : في القول والصمت -

يقول الجاحظ : " وفي الحديث المأثور : " رحم الله من سكت فسلم ، أو قال فغنم " .
والسلامة فوق الفنية ، لأن السلامة أصل والفنية فرع " (١) .

ولا يزال متهيئا من القول وفنتته تتنازع الرغبة فيه والرغبة منه ، فأما الرغبة ففي
الغنم الذي يناله حيث إن " حظ القول الجمع بين الفنية والسلامة " (٢) وأما الرغبة
فمن العقوبة التي قد يجبرها عليه قوله ، وعندئذ يكون الصمت أسلم وأمن .

وإذا كان الأصل في السلامة التي يلجأ إليها الصامت ، فإن القول الحسن يجلب
السلامة والغنم معا (٣) ، لذلك ، كان للقول رونقه الجذاب وبريقه الآخاذ فمثل القول
كمثل النار ، تدفي وتثير من يحسن إنارتها وتحرق من يسيء استخدامها . لذلك فإنك
" لا تسمع الناس يقولون : جلد فلان حين سكت ، ولا قتل فلان حين صمت . وتسمعهم
يقولون : جلد فلان حين قال كذا ، وقتل حين قال كذا وكذا " (٤) .

وليست هذه المفاضلة ، ما بين القول والصمت ، من حيث الاختلاف والتضاد بينهما
لأن المفاضلة لا تكون إلا في المتشابه من الأمور ، وإنما هي من حيث التقاؤهما في أمر البلاغة
والبيان ، كل في موضعه ، فالصمت في موضعه قد يكون أبلغ من القول وأقوى (٥) . وذاك صمتك
عند من يعلم أنك لم تصمت عنه عيا ولا رهبة ، فليزدك في الصمت رغبة ما ترى من كثرة فضائح
المتكلمين في غير الغرض ، وهذر من أطلق لسانه بغير حاجة " (٦) مع العلم أن الصمت
عن قوة وقدرة ، أصعب من القول لأن الحاجة هي التي تدعو الناس إلى القول والعمل ،
فمن الصعوبة بمكان ، هذه الحاجة التي هي أقرب إلى الفريزة ، وللطبيعة
البشرية (٧) . ومن هنا يكتسب الصامت عن قدرة ، وقوته لأن معنى صمته يظل مشوша

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٧٠ ، وانظر رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٥٩ وفيه "
حيث قال : " رحم الله امرأ قال خيرا فغنم ، أو سكت فسلم "

(٢) رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٩ .

(٤) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .

(٥) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(٦) نفسه ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(٧) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

ببعض الغموض . أما معنى القائل ، فيتضح ويتجلى في ألفاظه . فيسرع إلى الناس معرفة أخطائه وتبينها ، بينما يصعب عليهم تبين أخطاء صمت الصامت (١) . غير أن الصمت في بعض المواضع ، يصبح خطرا ، ويفدو في معنى النطق بالباطل " (٢) حين يكون ذلك الصمت قعودا وسكوتا عن قول الحق (٣) .

فمن حيث المبدأ اذن ، ليس الكلام بأفضل من الصمت دائما ، وليس الصمت بأفضل من الكلام (٤) ، فلكل مقام مقال " وحسن البيان محمود ، وحسن الصمت حكم " (٥) فإما منطق شديد في موضعه وإما صمت ينوب عن الكلام في موضعه .

ولعل تفصيل الجاحظ هذا في " القول والصمت " يعتبر تهيدا للولوج في قضية من أهم قضايا النقد ، وهي " لكل مقام مقال " .

أما إذا نظر إلى الموضوع نظرة شمولية ، فلا شك أن فضل القول ، يفوق فضل الصمت لأن العام يفضل الخاص ، اذ " كيف يكون الصمت أنفع ، وإلا يثار له أفضل ، ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه ، ونفع الكلام يعم ويخص " (٦) ، ومن ثم يبدأ الجاحظ في تعداد منافع القول ، الذي به تتطور البشرية ، وتتناقل الحضارات خبرات بعضها البعض عن طريق الرواية والنقل ، مبينا خطر إطالة الصمت على الانسان (٧) . بل إنه يذهب إلى أفراد رسالة خاصة في " تفضيل النطق على الصمت " نشر عبد السلام هارون جزءا منها (٨) . وفيها يفضل الجاحظ فضل القول في شكر الله وعبادته ومعرفة دينه ، وفي قضاء الحاجات وفي معرفة فضل البشر والتمييز بينهم وبين سائر المخلوقات الأخرى ، وفي كافة العلوم

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧١ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧١ ، وانظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٥) رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٥١ .

(٦) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٧٢ ، وانظر رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

(٧) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

(٨) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ .

والصفات وترجمة ما يختصر في القلوب ، ويختلج في الصدور ، وفي كون القول عامًا وكون الصمت خاصا يتوقى به من الإثم ، ومن العجز عن إدراك الحق لا غير ، كما أن ثواب القائل يفوق ثواب المستمع ، وينتقل ، في رسالته هذه الى الحديث عن فضل النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ بعث لهداية الناس ، بِلغة العرب وبيانهم ، فكان أفصحهم وأبينهم والجاحظ في ذلك كله يستشهد بالآيات القرآنية والأثر . فعلى سبيل المثال ، يقول : * وقد ذكر الله جل وعز في قصة إبراهيم عليه السلام حين كثر الأصنام وجعلها جذاذا ، فقال حكاية عنهم : (قَالُوا أَأنتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِلَهَتَنَا يَا إِبْرَاهِيمَ ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) (١) فكان كلامه سببا لنجاته ، وعلامة لخلاصه (٢) .

ويقول : * وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا أفصح العرب بيده أنسي من قریش ، ونشأت في بني سعد بن بكر " (٣) .

ولعله في حديثه المطول هذا ، عن فضل القول على الصمت ، إنما ينتصر للعرب الذين اشتهروا ببيانهم ، ومن القول ، لا سيما أن الشعوبيين قد اتهموهم بالجهل في كل شيء ، لا يعرفون حضارة ولا رقيًا ، قد اعتادوا الهداوة وشطف العيش ، ولا يحسنون أمرا سوى القريض ! كما ينتصر للنبي صلى الله عليه وسلم ، إذ كان القرآن الكريم معجزته التي خرج بها على الناس يقول : * وإن أصح ما يوجد في المعقول ، وأوضح ما يحد نفسي المحصول للعرب من الفضل ، فصاحتها وحسن منطقها ، بعد فضائلها المذكورة ، وأيامها المشهورة .

ولفضل الفصاحة وحسن البيان بعث الله تعالى أفضل أنبيائه وأكرم رسله من العرب ، وجعل لسانه عربيًا ، وأنزل عليه قرآنه عربيًا ، كما قال الله تعالى : (بلسان

(١) الأنبياء ، ٦٢ ، ٦٣ .
(٢) رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ .
(٣) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ .

عربيّ مبين (١) فلم يَخْصُ اللسانُ بالبيان ، ولم يُحمد بالبرهان إلاّ عند وجود الفضل في الكلام ، وحسن العبارة عند المنطق ، وحلاوة اللفظ عند السمع " (٢) . ويعزّي سبب فصاحة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسهولة مخارج كلامه ، أنه كان من صميم العرب ومن قبائلها المعروفة في العروبة ، مبيناً نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وفصاحة قبيلته (٣) .

ولا شك ، أنه يُستدل على هوية كل شعب من الشعوب ، وكل أمة من الأمم ، بوساطة أدبها وما يحويه من فكر واعتقادات وتوجهات وعادات . . . تدلّ عليها وتبين مزاياها ، ولذلك كان القول عند العرب ، بكل فنونه مصدر فخرهم واعتزازهم وتفوقهم ، يقول الجاحظ " ثم انظر في أشعار العرب الصحيحة ، والخطب المعروفة ، والأمثال المضمومة ، والألفاظ المشهورة ، والمعاني المذكورة ، ما نقلته الجماعات عن الجماعات ، وكلام العرب ومعانيهم ، في الجاهلية . ثم تفقد ، وسل أهل العلم والخبرة عن بني اسرائيل ، فإن وجدت لهم مثلاً سائراً كما تسمع للقيط والفرس ، فضلاً عن العرب فقد أبطلنا فيما قلنا .

وقد كان الرجل من العرب يقف المواقف ، ويسير عدة أمثال ، كل واحد منها ركن مبني عليه ، وأصل يتفرع منه " (٤) .

وهو ، في هذا النص ، يبحث على الدرس ، والنظر في كل فنون القول عند العرب ، ويتبين من قوله : " ثم انظر في أشعار العرب الصحيحة " مدى حرصه على الدقة ، والأمانة العلمية ، فهو يرفض الأشعار الموضوعة على لسان العرب والمنسوبة اليهم ، حتى ولو كان في ذلك خدمة لقضيته في التصدي للشعوبية والدفاع عن العرب ، فسلاحه في هذه المعركة الحق والتاريخ الصحيح ، لا الباطل والتاريخ المزور .

(١) الشعراء ، ١٩٥٠ .

(٢) رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ٢٣٧ .

(٣) انظر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ .

(٤) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧١ .

كما يلاحظ في هذا النص ، نظرة الاحتقار لبني اسرائيل والاستهزاء بهم ، وهسي نظرة القوى للذليل الضعيف ، فهسو يمتدح بها للقيط والفرس من الأمثال ، ويتحدى بني اسرائيل بأن يأتوا بمثل واحد فقط من ابداعهم وانشائهم .

ويبلغ اعجابهم بالعرب حداً أنه لا يرى لهم مثيلاً في قوتهم الكلامية وقد رتبهم الفنية ، التي طرّقوا بها كل ما يمكن أن يخطر على بال من الموضوعات (١) . فيقول : " ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عدد هم واختلاف علمهم ، والكلام كلامهم ، وهو سيد علمهم ، فقد فاض بيانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغلبتهم وقوتهم عليه عند أنفسهم ... ولهم بعد أصناف النظم ، وضروب التأليف ، كالقصيد ، والرجز والمزج ، والمجانس والأسجاع والمنشور " (٢) .

ويطيب له ، كما يذكر ، أن يسهب في تعداد ما يتمتع به العرب من المزايا في هذا الموضوع ، إلا أنه يعدل عن ذلك ، خشية الإطالة (٣)

ولأنه حريص على قارئه ، فهو يطبق النصيحة التي يسديها بعدم الإطالة كي لا يمل القارئ ويعدل عن قراءة ما يكتب .

فجملة القول ، وخلاصة الموضوع ، أن الجاحظ يرى للقول مجالا ، وللصمت مجالا ، إلا أن القول عام ، مما يكسبه قوته التي يمنح من خلالها الإنسانية ، القدرة على استمرارها وتكاثرها ، وأما الصمت فخاص ويقتصر على مواقف محدودة تقتضي الصمت والسكوت . " ومواضع الصمت . المحمود قليلة ، ومواضع الكلام المحمود كثيرة " (٤) .

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ .

(٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧٣ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ .

(٤) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

ج : البلاغة :-

لعلّ من أبرز ما يستحوذ على اهتمامات الجاحظ اللغوية والأدبية ، الناحية البلاغية ، فهو يسهب في الحديث عن مختلف العلوم البلاغية ، مدعماً آراءه النقدية ، بالآيات والأحاديث النبوية ، والأشعار والأقوال . . . مدّلاً عليها بالعلل والحجج المنطقية ، وما حبه إياه الطبيعة من عقل ذكي واضح ، وملكة أدبية وحس علمي ، ولا غرو في ذلك ، فالمبحث البلاغي ينقّب عن مواطن الجمال في الصناعة الأدبية ، والجاحظ أدب فنان يهوى عملية التنقيب هذه ، وينشد الإرتقاء بالكتابة والفكر ، عن طريق الفهم الواعي للقضايا البلاغية المختلفة .

وباللاغة ، كما يعرفها : "هي إصابة المعنى والقصد إلى الحجة مع الإيجاز ، ومعرفة الفصل من الوصل " (١) .

فهذا التعريف الموجز ، يتعرض إلى قضايا بلاغية مختلفة ، تكون في مجملها تعريفاً بلاغياً عاماً .

ويذكر المصنف المصنف التي جاء فيها ذكر لفظ " البلاغة " في القرآن الكريم ، للتدليل على أهمية هذا الفن ، يقول : " قال الله عز وجل : (وقل لهم في أنفسهم قولاً بليفاً) (٢) " (٣) . ثم يعقب قائلاً : " ليس يريد بلاغة اللسان " ، ولعل خير من تنبه لقصد الجاحظ في مفهومه للإشارة القرآنية عن البلاغة وشرحه ، صاحب تفسير الكشاف ، الزمخشري ، إذ يقول : " (وقل لهم في أنفسهم قولاً بليفاً) بالغ في وعظهم بالتخفيف والإنذار . فإن قلت : بم تعلق قوله (في أنفسهم) ؟ قلت : بقوله (بليفاً) أي : قل لهم قولاً بليفاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يفتنون به اغتاما ، ويستشعرون

(١) رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٥١ .

(٢) النساء ، ٦٣ .

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٤٠٨ .

منه الخوف استشعاراً ، وهو التوعد بالقتل والاستئصال إن نجم منهم النفاق وأطلـع قرنه ، وأخبرهم أن ما في نفوسهم من الدّغل (١) والنفاق معلوم عند الله ، وأنه لا فرق بينكم وبين المشركين ، وما هذه المكافاة (٢) إلا لإظهاركم الإيمان وإسراكم الكفر واضماره ، فإن فعلتم ما تكشفون به غطاءكم لم يبق إلا السيف أو يتعلّق بقوله (قل لهم) أي قل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولا بليفاً ، وأن الله يعلم ما في قلوبكم لا يخفى عليه فلا يفني عنكم إبطانه . فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق ، وإلا أنزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك من انتقامه ، وشرّاً من ذلك وأغلظ . أو قل لهم في أنفسهم ، خالياً بهم ليس معهم غيرهم ، مساراً لهم بالنصيحة ، لأنها في السرّ أنجع ، وفي الامحاض أدخل - قولا بليفاً يبلغ منهم ويؤثر فيهم * (٣) . وهذا ما يريد الجاحظ ، أي الحديث النفسي المؤثر في النفوس والقلوب ، الذي له الأثر البالغ العميق ، لا الكلام المزخرف الخالي من المضمون .

هذا ، وبلاغة اللسان ضرورية ، في التأثير على الأسماع ، للوصول إلى القلوب ، بل للسان وإن لا يؤثر في القلوب والنفوس ، إلا بالبلاغة (٤) ، وهنا تتبيّن تلك العلاقة التي تربط بين التأثير النفسي والمعنوي ، والتأثير اللفوي والبلاغي . في حالة أن يصاحب هذا الأسلوب اللفوي المؤثر ، مضمون عميق ، وهذه هي القضية المهمة ، التي يستلزمها علمها ، وهي التي تستلزمها العقل والآدب ، أو الفكر واللغة . والقرآن الكريم ، يمدح " بجودة الأفهام وحكمة البلاغ " (٥) ، وهذا خير دليل على أهمية البلاغة ، وعلى تلك الصلة الوثيقة بين الفكر واللغة ، التي لا ينقسم عراها .

-
- (١) " الدّغل بالتحريك : الفساد . . . لسان العرب (دغل) .
 (٢) " . . . ابن الأعرابي : كفكف إذا رفع بفريته أو ردّ عنه من يؤذيه . . . والكفكفة : كفك الشيء أي ردك الشيء عن الشيء " . . . لسان العرب (كفف) .
 (٣) الكشف ، ج ١ ، ص ٤٠٧ - ٤٠٨ .
 (٤) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٤٠٨ .
 (٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٨ .

واذا كان القرآن الكريم ، قد نزل بلغة العرب وبلاغتهم * وسماء فرقانا كما سمّاه قرآنا . وقال : (عربيّ مبين) (١) ، وقال : (وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا) (٢) . . . (٣) فلا غرو ان * . . . اذا ادّعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز ، ومن المنشور والأسجاع ، ومن المزدوج وما لا يزدوج * (٤) . لا سيّما أن للعرب دليلا على بلاغتهم ، من شعرائهم الأقدمين ، مما يثبت أن البلاغة تضرب في جذورهم وتجري في عروقهم مجرى الدم ، وهي دليل على تقدمهم الفكري ، لا بل قد فاقوا الشعراء اللاحقين ، ببيان بلاغة ، * فَمَعَنَا الْعِلْمُ ، أن ذلك لهم شاهد صادق من الدِّبَاجَةِ الْكَرِيمَةِ ، والرواق المعجيب ، والسبك والنّحت ، الذي لا يستطيع أشعرُ الناس اليوم ، ولا أرفعُهم في البيان أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير ، والنّبذ القليل * (٥) .

فالجاحظ يحاول في ذلك كله ، أن يعطي للغة العربية ، قيمتها البلاغية ، التي تتبوأ بها المكانة العليا بين سائر اللغات ، إذ بها نزل القرآن الكريم .

(١) النحل ، ١٠٣ .

(٢) طه ، ١١٣ .

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨ ، وانظر رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ٢٣٧ .

(٤) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

(٥) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

د : البيان :-

بعد هذا التعريف بالبلاغة ، وتبيان أهميتها ، يبدأ الجاحظ في سبر غور العلوم البلاغية وأولها ، علم البيان :-

وللبیان وسائل وطرق مختلفة للتعبير ، والتبيين ، يحددها الجاحظ ، بخمسة أمور وهي : " اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نصبة " (١)

ومن الملاحظ ، أن الوسيلة الأخيرة ، من هذه الوسائل الخمس ، هي التي تسوِّق الجاحظ في منحها اللفظ الدقيق المعبر عنها ، والمقصود بها كل صامت جامد ، حيث يعبر عن نفسه ، من خلال حالته وهيئته ، أي التعبير في الصمت ، والكلام في الجمود ، وهي في هيئتها تلك تدل على وجود الخالق . ولذلك تختلف ألفاظه في الدلالة عليها ، فتارة هي " الحال التي تسمى نصبة " (٢) ليجد أن لفظ " النصبة " غامض ، فيحاول تفسيره بقوله : " والنصبة هي الحال الدالة ، التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات " (٣) .

وتارة ، هي " الدليل الذي لا يستدل " (٤) أي كل شيء يشكل دليلاً في حد ذاته ، لكنه لا قدرة له على الاستدلال ، ويمكن " المستدل " أي الإنسان ، من معرفة ما كُنَّ وَطَنُ من أمره (٥) ، وزيادة في التوضيح يقول : " فالأجسام الخرس الصامتة ، ناطقة من جهة الدلالة ، ومعربة من جهة صحة الشهادة ، على أن الذي فيها من التدبير والحكمة ، مخبر لمن استخبره ، وناطق لمن استنطقه فالجماد الأبيكم الأخرس من هذا الوجه ، قد شارك في البيان الإنسان الحي الناطق . . . " (٦) .

- (١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٦ ، وانظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٣ - ٣٥ ، ٤٥ - ٤٦ .
- (٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٦ .
- (٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٦ .
- (٤) الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤ .
- (٥) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤ .
- (٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

ولا يزال الجاحظ هنا ، يجمع بين المتناقضين بعلاقة خفية داخلية ، كما هو الأمر في معالجته لمبحثي " القول والعق" و " القول والصمت " حيث يكشف عن الخيوط التي تجمع بين المتناقضات . فعلى الرغم من التناقض الواضح بينها ، فإن أحدها يدل على الآخر ويرتبط به ، وهذه هي نظرية " المتضادات " التي يسير عليها .

ولا تزال الحاجة تدعو إلى توضيح أكثر ، لوسائل البيان (١) وعلى وجه الخصوص الوسيلة الأخيرة فيوضحها قائلا : " والخصلة الخامسة ، ما أوجد من صحة الدلالة ، وصدق الشهادة ووضوح البرهان ، في الأجرام الجامدة والصامتة والسكنة التي لا تتبين ولا تحس ، ولا تفهم ولا تتحرك إلا بداخل يدخل عليها ، أو عند مسك خلتي عنها ، بعد أن كان تقييده لها " (٢) .

ولعل هذا التردد في اختيار اللفظة المناسبة ، يرجع إلى أن هذه الوسيلة التي يعتبرها نفسه ، إحدى وسائل البيان مضافة إلى الوسائل الأربعة المذكورة ، وربما أن هذه الإضافة كانت حديثة في وقت نفسه ، نتيجة للفكر الاعتزالي ، الذي يدعو إلى النظر في المخلوقات الكونية ، واستخدام العقل للاستدلال على وجود الخالق ، وبالتالي كانت هذه المخلوقات الصامتة الجامدة ، مبنية عن نفسها ومفصلة ، لا عقل لها تستدل به ، ولكنها تمكن ذا العقل من الاستدلال بوساطتها .

كما يبين : مجال كل وسيلة من الوسائل الأربع ، حيث " جعل اللفظ للسامع ، وجعل الإشارة للناظر ، وأشرك الناظر واللامس في معرفة العقد ، إلا بما فصل الله به نصيب الناظر في ذلك على قدر نصيب اللامس ، وجعل الخطر ليلا على ما غاب من حوائجه عنه ، وسببا موصولا بينه وبين أعوانه ، وجعله خازنا لما لا يأمن نسيانه ، مما قد أحصاه وحفظه ، وأتقنه وجمعه ، وتكلف الإحاطة به ، ولم يجعل للشام والذائق نصيبا " (٣) .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٤٥ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٤٥ - ٤٦ .

فلكل وسيلة من وسائل البيان هذه أهميتها ، وضرورتها حين تدعو الحاجة إلى استعمالها . وبذلك فالجاحظ يراعي حالة المتلقي في مختلف أحواله وأوضاعه ، فلا بأس إذن ، من استخدام احداها ، أو استخدامها جميعا إذا تطلّب الأمر ، ما دامت تفسي بالغاية الأساسية ، وهي الفهم والإفهام .

ويمضيني ، في الاستشهاد بالآيات القرآنية ، التي تدل على أهمية البيان حتى إن القرآن الكريم قد مدح به كما مدح بالفصاحة والوضوح ، من أجل تحقيق الغاية الأساسية من البيان وهي الفهم والإفهام (١) . فكأنفسه في هذا الموضع يدعو الكاتب أن يضع نصب عينيه أسلوب القرآن الكريم ، وما يتميز به من السلاسة والوضوح ، ليكون قدوة له ، ومثالا أعلى ، فيحاول أن يحتذيه ليرتقي بأسلوبه إلى مراقي الابداع الفني . ومن الملاحظ أن هذه الأوصاف التي مدح بها القرآن الكريم ، تهتم بالمضمون والمعنى ، أكثر من اهتمامها بالزخرف اللفظي . وللدلالة على أهميتها وأهمية البيان بوجه خاص يقول : " وقال الله تبارك وتعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومهم ليبين لهم) (٢) ، لأن مدار الأمر على البيان والتبيين ، وعلى الإفهام والتفهم ، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد ، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد " (٣) فإذا كان القصد الأول من البلاغة ، الإفهام للتأثير في القلوب (٤) فإن الوسيلة إلى ذلك هي البيان ، فعلى قدر قوة البيان وفصاحة اللسان ، يتحقق الإفهام ومن ثم التأثير واستمالة القلوب وإقناع ذوي الأبواب فإن " اللسان لا يبلغ من القلوب حيث يريد إلا بالبلاغة " (٥) ولهذا يشترك كل من المتفهم والمتلقي في الفضل ، فالأول يقدم محاولا الإفهام وتنبيه العقول ، والثاني يتقبل ما يتلقى ، محاولا الفهم والاقتناع ، مقدما للمتفهم فرصته في التعبير عما يجول في خاطره ، وهذه العملية المشتركة ، يقوم البناء الحضاري ، والتقدم البشري . فما من شك في أن الفضل في ذلك يعود إلى الطرفين " إلا أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم " (٦) . وهذا أمر طبيعي ، فليس الأخذ كالعطاء وليس التقديس

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨ .

(٢) إبراهيم ، ص ٤ .

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١١ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤٠٨ ، والبحث ، ص ٤٠ .

(٥) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٤٠٨ .

(٦) نفسه ، ج ١ ، ص ١١ - ١٢ .

كالتلقي ، حتى ولو كان الخيط الذي يربط بين هذين الطرفين المتناقضين ، اشتراكهما في العطاء الإنساني والعمل من أجل الحضارة والبناء ، فلكل دوره في هذا المضمار ، إلا أن الثباين في دور كل منهما ، يميز بينهما ، ويفضل أحدهما على الآخر ، فالأول يقدم ، والثاني يتلقى .

ولعلّ هذا هو التعليل المقصود بالآية الكريمة المذكورة آنفا وهي (ومما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم) (١) فكل رسول هو " المفهم " السندى أرسله الله تعالى بلغة قومه ليحقق هذه الغاية ويشرح لهم صدورهم ويهديهم للحق ، والناس هم المتعلمون المتفهمون ، فلا يستوى الرسول والناس في الفضل ، لأن الرسول هو المتفضل عليهم وهو مرشدهم لطريق الخير ، ويحرص الجاحظ على تدعيم رأيه بقوله : " هكذا ظاهر هذه القضية ، وجمهور هذه الحكومة " (٢) مما يبيّن منهج التفسير القرآني عنده ، وهو المنهج اللغوي . إلا أنه يستدرك قائلا : " إلا في الخاص الذي لا يذكر ، والقليل الذي يشهر " (٣) فلكل قاعدة شواذها .

هذا البيان الذي أتى ذكره في القرآن الكريم ، يعرفه الجاحظ بأنه " اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يغض السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محضوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع ، إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع " (٤) .

وفي هذا التعريف للبيان ، يوضح رأيه ، في قضية اللفظ والمعنى ، توضيحا قاصدا ، فالبيان ، يكمن في اللفظ الذي يبيّن عن المعنى ويوضحه ونما زيادة أو نقصان فتتحقق الغاية الأولى من البيان الذي منحه الله تعالى للإنسان ، وجعله وسيلة التفاهم بين البشر من أجل إشباع احتياجاتهم ورغباتهم وناء حضاراتهم (٥) .

- (١) انظر ، البحث ، ص ٤٤ .
- (٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٢ .
- (٣) نفسه ، ج ١ ، ص ١٢ .
- (٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٦ .
- (٥) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٤ .

(١) وإذا كانت أية وسيلة تحقق "الفهم والإفهام" تعتبر بياناً، فإن هذا البيان يصنف في طبقات بحسب رقي الوسيلة أو انحطاطها وإن قوله: "بأي شيء تفاهم الناس فهو بيان" (١)، على شدة إيجازه، إنما يعبر بدقة، عن ماهية البيان، الذي غايته الأولى تحقيق الفهم والإفهام "الآ أن بعضه أحسن من بعض" (٢). وهذا دليل على أن الوسيلة إلى هذه الغاية، هي الألفاظ التي يعبر بعضها بصورة أجمل وأدق من بعضها الآخر، وهنا تكمن أهمية اللفظ، ليس في كونه وسيلة فحسب، بل في كونه وسيلة فنية معيزة، قادرة على التعبير عن ذلك المعنى المميز، ليجتاز به القائل إلى قلوب الناس وأفهامهم، والتأثير فيهم. ولهذا يقول: "وحسن البيان محمود" (٣)، فإذا كان البيان، هو ما يتفاهم به الناس، فالمحمود منه ما كان حسناً، بعيداً عن المداورة والنفاق، ففي معرض حديثه عن خبر غيلان بن خرشة الضبي مع عبد الله بن عامر (٤) مرة، ومع زياد مرة أخرى، على نهر أم عبد الله، وكيف استطاع غيلان أن يمدح النهر مع الأول، ويذمه مع الثاني. يعلق الجاحظ: "فالذين كرهوا البيان إنما كرهوا مثل هذا المذهب، فأما نحن حسن البيان فليس يذمه إلا من عجز عنه. ومن ذم البيان مدح العي، وكفى بهذا خبالاً" (٥). وهنا تتبين العلاقة بين الأخلاق واللغة.

فالبيان، ولو عذبت ألفاظه وحسنت فاته ينحط إلى أسفل سافلين، وإذا ما داخله النفاق والرياء، ومازجته الخديعة والمراوغة، لأن البيان يحمل بين طياته فكراً وخلقاً. فهو لم يسمّ بياناً إلا لأنه يبين عن المعنى، إما خيراً وإما شراً.

ويرد الجاحظ بقوة، على من زعم، أن الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: "شعبتان من شعب النفاق: البذاء، والبيان. وشعبتان من شعب الإيمان: الحياء، والعي" (٦).

(١) الصحاح، ج ٥، ص ٢٨٧.

(٢) نفسه، ج ٥، ص ٢٨٧.

(٣) رسائل الجاحظ، ج ٤، ص ١٥١.

(٤) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ٣٩٤ - ٣٩٥.

(٥) نفسه، ج ١، ص ٣٩٥.

(٦) نفسه، ج ١، ص ٢٠٢.

فيقول متعجبا من هذا القول الخطير ، الذي يقارب الكفر : " ونحن نعوذ بالله أن يكون القرآن بحث على البيان ورسول الله صلى الله عليه وسلم بحث على المعنى ، ونعوذ بالله أن يجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البذاء والبيسان " (١) فهو يسرد الآيات القرآنية التي تذكر البيان وتمدحه كما سبق وأشار (٢) ، ويرى أن لهذا الحديث وجهين : الأول كونه موضوعا ، حيث يشكك في صحته في قوله " وقد زعمتم " (٣) .

[والوجه الثاني : كونه صحيحا ، فلا بد إذن ، من أن يكون له تفسير آخر وهو أن البيان في حقيقته أن يعبر اللفظ عن معناه دونما زيادة أو نقصان . فالزيادة عندئذ تصبح " خطلا " ، والنقصان يفدو " عيا " " ودين الله تبارك وتعالى بين المقصر والغالط (٤) . ولا يزال هــنا يطبق المنهج الفكري على الأدب ، وهو المنهج الوسط أو ما يسميه المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين ، فهو يرى أن الأشياء تترايط فيما بينها ، ويتصل بعضها ببعضها الآخر ، يؤكد ذلك نظرية " التناقض " التي يشير إليها بين الحسنيين والآخر ، كما يؤكد ذلك الرطب بين الدين والأدب ، أو الفكر والأدب ، وقد أتى ذكره غير مرة ، من ناحية ، وبين الخلق والأدب أو اللغة ، فلا فصل إذن بين الأدب والفكر والأخلاق ، وهذه العناصر الثلاثة تكوّن وحدة واحدة متناسبة ومتناسقة ، إذا اختل أحدها فقد الإبداع الأدبي قيمته ، حيث يستحيل الأدب شكلا خارجيا أجوف فارغا بلا فكر ولا أخلاق أبي بلا مضمون ، وهذا ما يعقته الجاحظ أشد العقات . وهو ما ينفك متعجبا أشد التعجب من أولئك الذين يذمون البيان ، وينسبون ذمه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيستشهد بأحاديث نبوية مختلفة ، تحت على القول والخطابة (٥) ، ومن ثم يعلق قائلا : " وما نشك أنه عليه السلام قد نهى عن المراء (٦) ، وعن التزيد والتكلف ، وعن كل ما

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٨ ، ونفسه ، ج ١ ، ص ١١ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(٥) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

(٦) " وما ريت الرجل أماريه مراء إذا جادلته والرئية والرئية : الشك والجسدل ، بالكسر والضم . . . والامترا في الشيء : الشك فيه ، وكذلك التماري . والمراء : المارة والجدل ، والمراء أيضا : من الامترا والشك . . . لسان العرب (مراء) .

ضارع (١) الرياء (٢) والسّمة (٣) ، والنّفج (٤) ، والبذخ (٥) ، وعن التّهاتر (٦) ، والتشاغب (٧) ، وعن الماتنة (٨) ، والمغالبة . فأما نفس البيان ، فكيف ينهى عنه * (٩) .

فالبيان الذي به وصف القرآن ومدح ، **منه** تحلى الصحابة والتابعون . وذوو الصلاح ومحبو الخير والحق ، كعليّ بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ، والحسن البصري وغيرهم (١٠) هو ذاك الذي يرتفع بالإنسان ، بفكره وأخلاقه ، ليكون أهلاً لإنسانيته ، وليست هذه النعوت الوضيعة ، المنافية للمثل والقيم والأخلاق الرفيعة ، من البيان في شيء ، وهذا ما حذر منه الرسول صلى الله عليه وسلم . ولا يزال الجاحظ بذلك يصرّ على الربط بين الأدب والأخلاق ، فيقول : "وأبين الكلام كلام الله ، وهــو

- (١) " . . . والمضارع : المشبه . والمضاربة : المشابهة ، والمضاربة للشيء : أن يضارعه كأنه مثله أو شبيهه . . . لسان العرب (ضارع) . وهو المرائي ، كأنه يرى الناس أنه يفعل ولا يفعل بالنية . لسان العريب (رأى) .
- (٢) " . . . ومنه الحديث : أنا فعله سمعة ورياء ، أي ليسمعه الناس ويرووه . . . وتقول فعله رياء وسمعة ، أي ليراه الناس ويسمعوا به . . . لسان العرب (سمع) .
- (٣) " . . . والنّفج : اسم ما نفج به . وكرجل نفّاج إذا كان صاحب فخر وكبر ، وقيل : نفّاج يفخر بما ليس عنده . . . لسان العرب (نفج) .
- (٤) " البذخ : الكبر . والبذخ : تطاول الرجل بكلامه واقتخاره . . . لسان العرب (بذخ) .
- (٥) " . . . والتّهتر : كالتّهتار . وقال ابن الأنباري في قوله : فلان يهاتر فلانا معناه يسابه بالباطل من القول ، قال : هذا قول أبي زيد ، وقال غيره : المّهاترة القول الذي ينقض بعضه بعضاً . . . والهتر : الباطل . . . وتهاتر القوم : ادعى كل واحد منهم على صاحبه باطلا . . . لسان العريب (هتر) .
- (٦) " الشغب ، والشغب ، والتشغيب : تهيج الشر . . . وفي الحديث : نهى عن المشاغبة ، أي المخاصمة والمقاتلة . . . لسان العرب (شغب) .
- (٧) " والماتنة : المباحدة في الغاية . . . وماتن الرجل : فعل به مثل ما يفعل به ، وهي المطاولة والمطاطلة . . . ويقال : ماتن فلان فلانا إذا عارضه في جمل ، أو خصومة . . . لسان العرب (مستن) .
- (٨) " البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ ، وانظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠١ .
- (٩) " أنظر البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

الذي مدح التبیین وأهل التفصیل . وفي هذا كفاية إن شاء الله " (١) فحسبنا بهذه الحقيقة أنها تدافع عن البيان خير دفاع وتعبي مهاجميه عن الرد ، وبهذه النتيجة ، ينتهي هذا الهجوم الذي يشنه على أعداء البيان ، ومن يدعي أن الرسول صلى الله عليه وسلم يذمه وينهى عنه .

وبأني الجاحظ ، بنصيحة ، لسالم أديب بليغ ذي معرفة ، " ممن يكره التشاؤم والتعق ، ويفيض الإغراق في القول ، والتكلم والاجتلاب ، ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه ، وما يعترى المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول ، وما يعرض للسامع من الافتتان بما يسمع ، والذي يورث الاقتدار من التهم والتسلط ، والذي يمكن الحاذق والمطبوع من التموه للمعاني ، والخلابة (٢) وحسن المنطق . . . " (٣) .

[وهنا يعرض لعيوب الكتابة التي ينبغي أن يتجنبها المتفنن ، شفقة على فته من الوقوع فيما من شأنه أن يقلل من قيمة إبداعه ، فتأتي على أدبه وتقضي على موهبته . كما يشير إلى خطر اللفظ في التموه للمعنى ، وهنا تبرز أهمية اللفظ في التأثير والإبداع . فعلى الرغم من كونه وسيلة إلى غاية ، فإن له دوراً عظيماً في عملية التأثر والتأثير . وهنا سر إبداع من يمتلك زمام حسن البيان والمنطق معاً]

[وفي تلك الموسوعة ، يدعو هذا العالم الأديب المذكور ، إلى حسن الألفاظ ، وحلاوة مخارج الكلام وسهولتها ، لتقع من القلوب موقعا حسنا ، ويبيّن مقدرة اللفظ على وصف المعنى ، بل ومنحه فوق ما يستحق من الوصف : " والمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرفيعة ، تحولت في العيون عن مقادير صورها ، وأريت على حقائق أقدارها ، بقدر ما زينت ، وحسب ما زخرفت . (

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

(٢) " والخلابة : المخادعة ، وقيل : الخديعة باللسان . . . لسان العرب (خلب) .

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض ، وصارت المعاني في معنى الجسوارى .
والقلب ضعيف وسلطان الهوى قوي ، ومن دخل خدع الشيطان خفي " (١) .

وهذه النصيحة تؤكد رأي الجاحظ ، وتوضح مذهبه ، ولذلك يشتهر ويوصي بعدم
نسيانها (٢) . لأهميتها . ولأنها تبين أهمية اللفظ والمنطق ، وشروط
الكتابة الجيدة . ويوافق هذا الاحتجاج لفن القول والبيان ، والمنطق السوي خبر عمر
ابن الخطاب مع الأحنف بن قيس حين احتج بقول للرسول صلى الله عليه وسلم وذلك :
" . . . لما كان راعه من حسن منطقه ، ومال اليه لما رأى من رفقه وقلة تكلفه ، ولذلك
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن من البيان لسحرا " (٣) . ويقول عمر بن
عبد العزيز : " هذا والله السحر الحلال " ، وقول آخر للمصنف صلى الله عليه وسلم :
" لا خلاصة " (٤) .

فيأتي الجاحظ بهذه الأقوال جميعا ، ليعمل القصد منها بقوله : " فالقصد
في ذلك أن يجتنب السوقي والوحشي ، ولا تجعل همك في تهذيب الألفاظ ، وشغل
في التخلص إلى غرائب المعاني . وفي الاقتصاد بلاغ ، وفي التوسط مجانية للوعورة ،
وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه . . . وليكن كلامك ما بين المقصر والغالي فإنك
تسلم من المحنة عند العلماء ، ومن فتنة الشيطان " (٥) .

فالمذهب الوسط ، ذلك المنهج الذي اصطفاه لنفسه ، ليكون سبيلا
يتبعه ، وطريقا ينهجه في الفكر والحياة والأدب ، مما يفسر المرونة التي يتحلل بها
والوعي الفكري الذي يتسم به المعتزلة بعامة ، حين ابتعدوا عن التطرف والتشدد
وذلك انطلاقا من مناداتهم بالمنزلة بين المنزلتين . وهو في ذلك كله لا يزال يدعو

(١) انظر البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .

(٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .

من ذلك مثلاً يقول : " قال الشاعر :-

عليك بأوساط الأمور فانتهزها

نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذُلًّا وَلَا صَعْبًا

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِلْحَسَنِ : عَلَّمَنِي دِينًا وَسُوطًا ، لَا نَاهِبًا شَطُوطًا ، وَلَا هَابِطًا هَبُوطًا . فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ : لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ إِنْ خَيْرَ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا .

وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ : " خَالَطُوا النَّاسَ وَزَايَلَوْهُمْ " (٢) .

ومن جهة أخرى ، لا يكتفي الجاحظ بالدفاع عن فن القول والبيان والمنطق الانساني بل يذهب بنا الى فكرة غريبة بعض الشيء ، إذ يدافع عن منطق الطير ويانه ، متعـلـلاً بما جاء في القرآن الكريم والأشعار وكلام العرب (٣) ، " فان كنت إنما أخرجته من حدّ البيان ، وزعمت أنه ليس بمنطق لأنك لم تفهم عنه ، فأنت أيضا لا تفهم كلام عامة الأمم ، وأنت إن سميت كلامهم رطانة وطميطمة فإنك لا تمتنع من أن تزعم أن ذلك كلامهم ومنطقهم ، وعامة الأمم أيضا لا يفهمون كلامك ومنطقك ، فجائز لهم أن يخرجوا كلامك من البيان والمنطق " (٤) .

(١) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(۲) نفسہ ، ج ۱ ، ص ۲۵۵ .

(٣) انظر، الحيوان ، ج ٧ ، ص ٥٧ .

(٤) نفسه، ج ٧، ص ٥٧.

ويعلم الجاحظ ذلك ، بأن كل إلف يفهم عن إلفه ويميل إليه ، وكل شبيه ينجذب إلى شبيهه لما يقع بينهما من التفاهم ، سواء أكان ذلك بين ضروب الحيوان وأشكال الطيور ، أم بين صنوف البشر حيث الصبي يفهم عن الصبي والعالمان يتفاهمان فيما بينهما وكذلك الجاهلان* . . . (١) .

ولذلك كان للطير منطقته وبيانه الذي يفهم عنه مثيله من الطيور ، مثله في ذلك مثل الإنسان الذي يفهم لغة أمته ، ولا يفهم لغات الأمم الأخرى ، والجاحظ بانطلاقته المعمة هذه ، يعود بنا إلى الغاية الأولى من البيان وهي الفهم والافهام ، حيث الحاجة هي التي تحت على ضرورة التفاهم ، وبوساطة الصوت المؤلف الذي يخرج من حركات اللسان والفم ، سواء أكانت هذه الحاجة تخص الإنسان أم الحيوان (٢) .

غير أن نوعاً من التفاهم قد يحصل كذلك بين الأشكال المختلفة بطبيعة تكوينها ، ومدى استعدادها للاستجابة الغريزية لذلك التفاهم (٣) ، كما أن هذا التفاهم قد يحصل عن طريق التعليم ، يقول : " وعلى أنك قد تعلم الطير الأصوات فتتعلم ، وكذلك يعلم الإنسان الكلام فيتكلم ، كتعليم الصبي والأعجمي ، والفرق بين الإنسان والطير أن ذلك المعنى معنى يستعمل منطقاً وكلاماً على التشبيه بالناس وعلى السبب الذي يجري ، والناس في ذلك لهم على كل حال " (٤) .

فليس الفرق إذن بين بيان الإنسان وبيان الحيوان ، سوى اختلاف التسمية ، حيث سمي الإنسان أصواته المؤلفة بياناً ومنطقاً .

ويستشهد الجاحظ ، جرياً على عادته ، بالأدلة المتيسرة بين يديه ، من الشعر والقرآن والأقوال (٥) ولعل أبرز هذه الأدلة تعليم الله تعالى لسليمان عليه السلام ،

- (١) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٥ .
- (٢) انظر ، نفسه ، ج ٧ ، ص ٥٧ .
- (٣) انظر ، نفسه ، ج ٧ ، ص ٥٧ .
- (٤) نفسه ، ج ٧ ، ص ٥٧ - ٥٨ .
- (٥) انظر ، نفسه ، ج ٧ ، ص ٥٨ .

" منطق الطير ، وكلام النمل ، ولغات الجن " مستنداً إلى الآية الكريمة (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) (١) . وكذا الأمر مع جميع أنواع الحيوان والمخلوقات على ظهر البسيطة " لو قال علمنا منطق البهائم والسباع " (٢) وفي هذه الجملة الأخيرة ، يدعو الجاحظ إلى القياس ، والاجتهاد ، استناداً إلى الآيات القرآنية ، كما يحث على المعرفة وتحكيم العقل في قوله : " فافهم فهمك الله ، فإن الله قد أمرك بالتفكير والاعتبار ، والتعريف والاتعاظ " (٣) .

ولعليسه ، بتعريجه هذا ، على بيان الطير والبهائم وأنواع السباع . . . والفرق بينها وبين بيان الانسان ، يدخل في الحديث عن نظرية علم اللغة العام ونشئها ، وفي الوقت ذاته ، ينهي حديثه عن ماهية البيان بشكل عام ، وبيان اللسان واللفظ بشكل خاص ، مختتما حديثه هذا بالوصية التالية :-

" . . . وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ، ويشاكلانك في بعض المشاكلة ، ولا تهمل طبيعتك فيستولي الإهمال على قوة القريحة ، ويستبد بها سوء العادة . وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة ، وقوة المنة (٤) يوم الحفل ، فلا تقصر في التماس أعلاها سورة (٥) ، وأرفعها في البيان منزلة ولا يقطعك تهيب الجهلاء ، وتخويف الجبناء ، ولا تصرفك الروايات المعدولة عن وجوهها ، المتأولة على أقبح مخرجها " (٦) .

(١) النحل ، ١٦ .

(٢) أنظر ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٣١ ، وانظر الحيوان ، ج ٧ ، ص ٥٨ .

(٣) الحيوان ، ج ٧ ، ص ٥٨ .

(٤) " والمنة ، بالضم ، القوة ، وخض بعضهم به قوة القلب . يقال : هو ضعيف المنة " .

لسان العرب (مسنن) .

(٥) " والسورة : المنزلة والجمع سور وسور والسورة من البناء : ما حسن وطال " .

لسان العرب (سور) .

(٦) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٠ .

هـ : الفهم والإفهام :-

يذكر الجاحظ ، في مواطن متعددة ، أن الغاية من البلاغة والبيان ، هي الفهم والإفهام ، وقد سبق ذكر ذلك في معرض الحديث عن البيان وتعريفه (١) .

ويعود هنا ، ليؤكد هذه الغاية ، فيقول : " إنما تدار الأمور والغاية التي يجري إليها ، الفهم ثم الإفهام ، والطلب ثم التثبيت " (٢) فينبغي إذن ، أن يفهم المتكلم أولاً ما ينوي قوله ، وأن تكون الفكرة واضحة في ذهنه ، قبل أن ينقلها إلى المستمع لكي يتوصل إلى إفهامه . ولما صعوبة أو غموض ، ومن الملاحظ أنه يحرص ، في كل مناسبة ، وكل فرصة تسنح ، على التنويه بنظرية العلاقة بين الفكر واللفظ ، حيث إن الفكر الواضح يؤدي إلى لفظ واضح بالضرورة ، فكلما كانت الفكرة واضحة ، كان التعبير عنها أدق وأسرع .

وعملية الفهم والإفهام هذه ، لا تتأتى إلا مع فراغ البال ، وخلوه من كل الفكر والهموم ، التي تبعد الإنسان عن التركيز فيما يقرأ أو يسمع (٣) ولذلك يثبت وصية بشر بن المعتز للكتاب ، التي يحث في مستهلها على ضرورة تحيين الساعة الملائمة التي يكون فيها نشيطاً خالي الذهن ، متفتح العقل . . . (٤) .

وهنا يربط الجاحظ بين الناحية النفسية والناحية الفكرية والعقلية ، لأن النفس الإنسانية وحدة متكاملة لا يجوز تجزئتها .

ولتوضيح قضية الفهم والإفهام ، يعرض قول العتابي (٥) ليفسره قائلاً :-
" . . . والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه ، بالكلام الملحون ، والمعدول عن جهته ،

- (١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ٧٦ ، وانظر ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ . . . ج ٧ ، ص ٥٧ .
- (٢) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٣٩ .
- (٣) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٤١ .
- (٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٣٥ .
- (٥) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١١٣ .

والمصروف عن حقّه ، أنّه محكوم له بالبلاغة كيف كان . بعد أن نكون قد فهمنا عنه . ونحن قد فهمنا معنى كلام النبطيّ الذي قيل له : لم اشتريت هذه الأتان ؟ قال : "أركبهما وتلد لي " . وقد علمنا أن معناه كان صحيحا (١) ، فمن الملاحظ ، أنه فسي تفسيره لقول العتّابيّ هذا ، يورد مفهوم رأى العتّابيّ بصورة جوهريّة ، دون التقيد بالنص حرفيا ، حيث إن العتّابي يقول : " . . . كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة ، ويفوق كل خطيب ، فاطهار ما غشى من الحقّ ، وتصوير الباطل في صورة الحق " (٢) .

ومن الواضح أنّ قول العتّابيّ هذا ، يؤكّد ما يذهب اليه الجاحظ في تفسيره ، من حيث العناية باللفظ والمعنى ، فالبليغ ، سواءً أكان عربيا أم عجميا ، هو الذي يخلو كلامه من العقد التي قد تصيب اللسان كالإعادة والحبسة . . . بعيدا عن اللحن ، ورتما يسمى من خلال تفسيره هذا ، إلى التعبير عن نظريته الخاصة في هذه القضية ، وذلك في تركيزه على أن الغاية من البيان والبلاغة ، هي الفهم والإفهام ، فضلا عن تأكيده أهمية اللفظ والأسلوب التي توازي أهمية المعنى أو المضمون . ونرى ذلك بوضوح فسي قوله : " فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل ، جعل الفصاحة واللكنة (٣) ، والخطأ والصواب ، والإغلاق (٤) والإبانة ، والمطعون والمعرب ، وكله سواءً ، وكلّه بياناً وكيف يكون ذلك كلّ بياناً ، ولولا طول مخالطة السامع للمعجم وسماعه للفاسد من الكلام ، لما عرفه . ونحن لم نفهم عنه إلّا للنقص الذي فينسا " (٥) .

-
- (١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٦١ ، وانظر سائر الأمثلة في هذا الشأن ؛ نفسه ، ج ١ ، ص ١٦١ - ١٦٢ .
- (٢) نفسه ، ج ١ ، ص ١١٣ .
- (٣) " اللكنة : عجمة في اللسان ومعني . . . المبرّد : اللكنة أن تعترض على كلام المتكلم اللغة الأعجمية . . . لسان العرب (لکن) .
- (٤) " واستغلق عليه الكلام أي ارتج عليه : وكلام غلق أي مشكل . . . ومعني الاغلاق الاكراه . . . لسان العرب (غلق) .
- (٥) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

فالزاعم إنَّ ، أنَّ البلاغة تقتصر على فهم السامع مقصد المتكلم ، فإنَّه يخلط بين الأمور جميعها جاعلا الفصاحة والعجمة ، والخطأ والصواب . . . سواء بسواء ، كما يشير في هذا النص ، إلى تأثير الكلام الفاسد وكلام العجم ، في لسان العربي . والعربي لم يفهم عن العجم لإحسانهم التعبير ، وإنَّما لما طالت مخالطته لهم أصبح يفهم عنهم (١) ويضرب الجاحظ أمثلة على كلام العجم بلغة عربية ركيكة مشوبة بالعجمة ومع ذلك يفهمه العربي : (٢) .

ولو كان مدار الأمر على الفهم بمعناه المجرد ، فإنَّ الانسان يفهم عن الفـرس والقط والحصار والطفل الرضيع . . . الكثير من حاجاتهم ، كما أنَّ العربي استطاع أن يفهم عن الموالي ، على الرغم من أنه لا يعرف لغتهم ، مثل كلام الصقلي والرومي (٣) وبطبيعة الحال ، فليس هذا المراد ، من القول بأن الفاية من البلاغة والبيان هي الفهم والإفهام ، وإنَّما المقصود بذلك ، هو الإفهام بالقول الفصيح المعرب ، يقول الجاحظ في معرض تفسيره لقول العنابي السابق ذكره : " وإنَّما عنى العنابي إفهامك العرب حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء . وأصحاب هذه اللفظة لا يفقهون قول القائل منّا : " مكره أخاك لا بطل " . و : " اذا عزَّ أخاك فهن " .

ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبت الى أبو زيد ، ورأيت أبي عمرو . ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه بهرجوه ولم يسمعوها منه ، لأنَّ ذلك يدل على طول اقامته في الدار التي تفسد اللفظة وتنقص البيان . لأن تلك اللفظة إنَّما انقادت واستوت وأطردت وتكاملت ، بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة ، وفي تلك الجيرة ، وفي تلك الخطأ من جميع الأمم " (٤) .

(١) انظر، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٤) نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

ومن الملاحظ أنه يركّز في هذا النص على العرب ، وذلك لأنه يتحدث عن البيان العربي والبلاغة العربية ، من حيث إيمانه بأن البلاغة العربية تتصدّر بلاغات الأمم الأخرى إذ بها نزل القرآن الكريم (١) ، وما أن " الشكل أفهم عن شكله ، وأسكن إليه وأصَبُّ به " (٢) والحديث يدور حول البلاغة العربية ، فبالضرورة إذن أن يكون الإفهام موجّهاً للعرب ، غير أن القارئ يلمح في هذه الكلمة رنة خفية ، فيها فخر بالعرب واهتمام بهم دون سائر الشعوب . فإذا كانت الغاية تسعى إلى افهام العرب فمن الطبيعي إذن ، أن يسير الكلام على طرائقهم في التعبير . كما يشير الجاحظ في معرض تفسيره لقصد العتّابي ، إلى ظاهرة لاحظها على النحويين ، الذين يرجعون إلى اللغة الصحيحة الفصيحة ، فيستقون منها أفواه الأعراب الذين يقطنون في الجزيرة العربية ، ولم توثّر فيهم المدنية ، لمصرفة الصحيح من الكلام ، ولمنع الخطأ من الاستفحال في الحواضر الإسلامية المختلفة ، التي سادت فيها اللغة العربية بسيادة الإسلام ، باعتبارها لفظة القرآن الكريم . فإذا وجد النحويون مثلاً أن الأعرابي يفهم " مكره أخاك لا بطل " . . . وغير ذلك مما يقال على سبيل الحكاية ، فمعنى ذلك أنه قد تأثر بالمدنية ، وأطلع على آراء النحويين في اللغة ، فلا شك إذن أن لفته قد فسدت ، وبيانه قد تراجع ، وتبعسما لذلك فهم يعرضون عنه ، ولا يأخذون بكلامه ، لأن اللغة العربية السليمة ، تطوّرت وتشكّلت وانتهت إلى هذه الصورة التي نعرفها بها ، في الجزيرة العربية مهد هذه اللغة ، وأصل نشوئها .

وإذا كانت الغاية من القول بشكل عام ، هي الفهم والإفهام ، فما بالنا بالغاية من فن القول ، الذي تحتضنه رقفا الكتاب ، المؤلف أصلاً من أجل هذه الغاية (٣) . . . ولكي ينجح الكاتب في إيصال المعاني التي يريد ها إلى القارئ ، فينبغي عليه أن يهتم باللفظ الذي هو الوسيلة ، والواسطة المؤدية للمعنى ، فيقدّم الجاحظ للكاتب النصيحة التالية : " ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو ،

(١) أنظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨ ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

(٢) الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٥ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٨٩ - ٩٠ .

ويحطه من غريب الإعراب ووحشي الكلام ، وليس له أن يهذب به جداً ، وينقحه ويصفيه ويروقه ، حتى لا ينطق إلا بلبّ اللبّ ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله ، وأسقط زوائده ، حتى عاد خالصاً لا شوب فيه ، فإنه إن فعل ذلك ، لم يفهم عنه إلا بأن يجدد لهم إفهاماً مراراً وتكراراً . . . * (١)

ولا يزال الجاحظ يدعو الكاتب لأن يستعمل اللفظ المتوسط الذي لا تعقيد فيه ولا رككة ، حيث يدعو غير مرة إلى المذهب الوسط في كافة مناحي الحياة ، فتتابع الألفاظ سهلة جزلة في الآن ذاته ، دون مبالغة في تشذيبها ، لأن هذه المبالغة تدعو إلى استغلاق فهم معنى اللفظ على المتلقي ، فلا يفهمه إلا بعد لائي وجهه كبيرين ، وإعادة وتكرار مما يسى إلى أذنيه .

ويعلل ذلك قائلاً : " لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها " . (٢)

وهنا يتطرق إلى قضية مهمة ، لا تزال قائمة إلى وقتنا الحالي ، وهي ، لمن يكتب الأديب ؟ فيقدم لنا الإجابة عن هذا السؤال في قوله " لأن الناس كلهم . . . " وأذن ، ينبغي على الكاتب ، أن يتوجه في كتاباته إلى الناس كلهم ، بمختلف طبقاتهم وعلى تفاوت مستوياتهم ، لذلك ينبغي أن تكون ألفاظه في منزلة تتوسط - الفريب والمبتذل من الكلام ، لكي تفهم العامة والخاصة على السواء . وفي إجابة الجاحظ هذه ، تلوح لنا دعوة موجهة إلى العامة للارتقاء بلغتهم ، والترفع عن ساقط الكلام حتى تستطيع بدورها أن تفهم على الكاتب ، والكاتب بدوره ، بألفاظه غير المبتذلة ولا الوحشية الفريية ، يعمل على رفع مستوى العامة الأدبي والثقافي والفكري . . . وهكذا تكون عطية التأثر والتأثير بين كل من الأديب ، وعامة الناس . (

(١) أنظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٩٠ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٩٠ .

[ولعلنا هنا ، يقصد بـ " الناس " عامة المثقفين والمتعلمين ، ومن الملاحظ أن هذا الاهتمام الخاص بالناس عامة ، على كافة مستوياتهم ، واختلاف طبقاتهم ، يرجع إلى اهتمام المعتزلة بنشر فكرهم بين الناس ، ولذلك يهتم الجاحظ بالفهم والإفهام ، أي بالمعنى ، واعتبره الفاية التي ينبغي أن يصبو إليها كل أديب ومتفطن ، للتأثير في الناس . وبالتالي ينصب اهتمام الجاحظ ، على اللفظ الذي يحتل منزلة وسطى بين الغريب والمبتذل ، حتى يستطيع بوساطته النفاذ إلى عامة الناس ، ونشر الفكر المعتزلي بينهم .

(ولهذا فانه يعزو صعوبة فهم كتاب " المنطق " لأرسطو ، وكتاب " أقليدس المترجمين إلى العربية ، حيث إن ألفاظ هذين الكتابين ومصطلحاته المنطقية مفرقة ، في التعقيد كما يبدو من خلال كلام الجاحظ عنهما ، بأنه لو قرئ الأول على الخطباء في المدن ، والبلغاء مسنن الأعراب لما فهمه معظمهم ، وكذلك لو قرئ الثاني على الخطباء لما فهمه البعض (١) ، ولذلك " لا يمكن أن يفهم من يريد تعليمه ، لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر ، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام . " (٢) وهنا يشير النسفي أن هناك ألفاظا تختص بعلم المنطق ، أي اصطلاحات منطقية ، لا يفهمها سوى العلم بهذا العلم ، كما يشير إلى صعوبة هذا اللفظ المنطقي .

وفي المجمل ، ينبغي أن : " مدار الأمر على فهم المعاني لا الألفاظ ، والحقائق لا العبارات . فكم من دارس كتابا خرج غفلا كما دخل ، وكم من متفهم لم يفهم ؟ ولن يستطيع الفهم إلا من فرغ قلبه للتفهم ، كما لا يستطيع الإفهام إلا من صحت نيته في التعليم . " (٣)

فلكي تكتمل عملية الفهم والإفهام ، ينبغي أن يفرغ المتفهم قلبه للفهم ، وأن تصح نية المعلم للإفهام . لأن هذا الأمر ، يعتمد على كليهما .

(١) أنظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٩٠ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٩٠ .

(٣) نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٤٢ .

وبعد هذا التطواف، حول قضية الفهم والإفهام، يختتم الجاحظ كلامه بقول
للإمام إبراهيم بن محمد^(١)، وهو يستحسنه جداً - على حدّ قوله - عن عبد الرحمن بن اسحاق
القاضي عن جدّه إبراهيم بن سلمة، عن أبي مسلم (١) :
* يكفي من حظّ البلاغة أن لا يئوئى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يئوئى الناطق
من سوء فهم السامع * . (٢)

(١) أنظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ٨٦ - ٨٧ .

(٢) نفسه، ج ١، ص ٨٧ .

و : اللفظ والمعنى :-

شغلت هذه القضية الجاحظ ، فكان لها نصيب كبير من اهتماماته البلاغية والبيانية ، وعبر عنها بصورة مباشرة ، وغير مباشرة ، ولقد سبق تبيان حديثه في هذا الأمر ، من خلال العرض لقضيتي البيان ، والفهم والإفهام . فنراه يولي المعنى اهتماما كبيرا باعتباره الغاية من الفهم والإفهام ، كما يولي اللفظ اهتماما موازيا لاهتمامه بالمعنى بوصفه الوسيلة التي تحقق الغاية المنشودة . (١)

ويمضي الجاحظ ، مفصلاً في هذه القضية ، فيقول في مساواة اللفظ لمعناه :
 * . . . وأحسن الكلام ما كان قليله يفنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله . فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليفا ، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف ، صنع في القلوب صنع الفيت في التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أصبحها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجابرة ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة . * (٢)

وهنا ، يرى أن القول يرقى إلى مرتبة عالية ، حين تكون ألفاظه موجزة ، مساوية لمعانيها ومعبرة عنها بدقة ، دون غموض ، أو تمويه أو خداع ، وهذا الأمر ، يرجع إلى نية القائل نفسه وما يتزوي بين ضلوعه من مشاعر ودوافع . فيعود الجاحظ هنا إلى تأكيد العلاقة بين الأدب والفكر والأخلاق حيث إن الصناعة الأدبية في مجملها هي

(١) أنظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨ . والبيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٦ ،
 والحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ . والبيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٥٤ .
 ٢٥٥ ، والحيوان ، ج ١ ، ص ٨٩ - ٩٠ ، والحيوان ، ج ٥ ،

(٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨٣ .

عملية فكرية وذلك في قوله " نور الحكمة وأخلاقية كما في قوله " على حسب نية صاحبه وتقوى قائله " ، فضلا عن كونها عملية فنية . فحتى تصل هذه الصناعة إلى ذورة تألقها ، ينبغي على الأديب أن يتحلل بالصدق النابع من أعماق الذات ، ويمتصم بالفكر الذي يوجبه أدبه ، ويجعل منه فنا ذا قيمة وهدف ، فضلا عن الاهتمام بالشكل والتراكيب البلاغية ، واللغوية فيها هو ذا يعود للدعوة إلى الأدب الملتزم ، هذه الدعوة التي تلازمه لزوم ظلّه وترافقه في حلّه وترحاله . وزاده فيه العقل الراجح والنفس الصادقة ، والمعنى الشريف واللفظ البليغ . وعندئذ يوتر في قلوب الناس كما يوتر الفيث في التربة الكريمة . ومن الملاحظ أن تشبيه الجاحظ لنفوس المتلقين ، بالتربة الكريمة ، إنما هو إشارة إلى عملية التأثير والتأثير التي سبقت الإشارة إليها ، فقضية الفهم والإفهام لا تعتمد على الأديب وحسب ، بل على المتلقي كذلك ، فالفيث لا يصنع ذات الصنيع في التربة القاحلة ، أو العادية ، كما هو الحال حين يروى التربة الخصبة الكريمة ، وعلى هذا فإنه لا بد من أن يقع كلام الأديب في الصدور السليمة ، كي يوتر فيها تأثيرا قويا (١) .

ومتى كان الكلام على هذه الشاكلة ، من اللفظ البليغ ، والمعنى الشريف ، فإنّه يبلغ من السداد مبلغا ، يجعله يوتر في الناس جميعا ، الخاصة منهم والعامة ، مما دام توجه الأديب أصلا للناس كافة (٢) ، وما دامت الغاية هي الفهم والإفهام .

أما إذا حقر المعنى وفسد ، وتدنى وسقط ، فإنّ له تأثيرا خطيرا ، حيث يبقى في النفس لا يبرحها ، ويعظم أثره ، فإذا تمكّن منها ، ساد الجهل وقوي ، وحينئذ لا فائدة ترجى من شفاؤه ، فيعظم الداء ويمتنع الدواء (٣) . وسبب ذلك كما يفسره الجاحظ أن اللفظ السيئ الرديء " أعلق باللسان ، وآلف للسمع ، وأشدّ التحاما بالقلب من اللفظ النبّه الشريف ، والمعنى الرفيع الكريم " (٤) . غير أنه لا يعلّل السبب فسي ذلك ، فلعلّه يريد القول إن اللفظ البليغ ذا المعنى الشريف ، يحتاج إلى أعمال الفكر

(١) وانظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١١-١٢ ، والحيوان ، ص ٥ ، ص ٥٤٢ .

(٢) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٩٠ .

(٣) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨٥-٨٦ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٨٦ .

والتركيز، أكثر من اللفظ الرديء ذي المعنى المبتذل ، والدليل على ذلك قوله : " اللفظ النبیه " ، فمقول عامة الناس عاجزة عن استيعاب كل المعاني وجميع الألفاظ ، لذا فهسي تميل إلى ما سهل من اللفظ ولو كان رديئا ، ومن المعنى ولو كان مبتذلا ! وهنساك ظاهرة تسترعي الانتباه وهي أنه لو يخالط الإنسان ذوي الجهل والغباء شهرا واحدا ، لكان تأثيره بسخيف ألفاظهم أسرع من تأثيره بألفاظ ذوي الحكمة والعقل والعلم لو خالطهم دهرًا كاملا (١) ! ويقول مفسرا هذه الظاهرة : " لأن الفساد أسرع إلى الناس ، وأشد التحاما بالطبائع ، والإنسان بالتعلم والتكلف ، وبطول الاختلاف إلى العلماء ، ومدارسة كتب الحكماء ، وجود لفظه ويحسن أدبه ، وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك التعلم ، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخير " (٢) . فالكسل أقرب السبي الطبيعة الإنسانية من العمل ، والإنسان أميل إلى الراحة التي تخدر العقل ، فيقبل على السخيف من المعنى واللفظ ، ويعرض عن الكريم منه ، لأن الأخير يحتاج إلى الرياضة والروية بطول القراءة والدرس وحضور مجالس العلماء أي بالعمل الجاد الدؤوب .

فمن أراد أن يفد وأديبا فصيحاً مبينا ، ذرب اللسان ، راجح العقل ، ذائع الصيت ، فعليه بمخالطة الأعراب الأقحاح ذوي الفصاحة ، والعلماء ذوي البلاغة ، وإطالة الاستماع إلى أحاديثهم الشائعة (٣) ، لأنه بذلك ، يجمع التأثير بلفظ الأعراب الأصيلة النقية ، التي لم تتأثر بالمدينة ، ولفظ العلماء البليغة الراقية .

وإذا كان الجاحظ ، قد تحدث عن خطر اللفظ الرديء ذي المعنى المبتذل ، وأثره في النفوس ، فهو ينتقل إلى الحديث عن أثر اللفظ الرفيع ، ذي المعنى الحسن ، حين يكون اللفظ مساوياً لمعناه ، مطابقاً لحاله ، مجارياً للمقام الذي يطلق فيه ، غير مستكره ولا متكلف ، فإنه عندئذ يقع من النفوس موقعا حسنا ، وتعود الفائدة على المتكلم والمستمع

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨٦ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٨٦ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

معاً ، فالأول يمنع النقّاد الحسّاد المتربّصين به شراً ، من الطعن عليه والتعرّض له . والثاني يفدّي عقله وقلبه بما يسمع من الفكر وأنواع المعرفة والأدب . وهذا التفاعل بينهما ، تتطوّر المعرفة وينمو العلم وتعمّر البشرية . هذا من جانب ، ومن جانب آخر ، فإن هذا اللفظ الكريم إذا كان معبراً عن معنابديّة دون زيادة أو نقصان ، وعلى الأخص إذا كان سلساً غير معقّد " حبّ إلى النفوس ، واتّصل بالأذهان ، والتحم بالعقول ، وهبشت إليه الأسماع ، وارتاحت له القلوب ، وخفّ على ألسن الرواة وشاع في الأفاق ذكره ، وعظم فسي الناس خطره ، وصار ذلك مادّة للعالم الرئيس ورياضة للمتعلم الرّيس " (١) .

وهنا إشارة ، إلى أن العمل الأدبي ، يوجّه إلى الناس جميعاً ، لا إلى فئة معيّنة منهم . فهدف الأديب الأول ، هو التأثير في الناس كافّة . ولكي يحقّق هذه الفايضة ، عليه أن يقرب أدبه من نفوسهم وقلوبهم بالألفاظ الكريمة المتميّزة ، المعبرة عن المعاني الشريفة ، فيقبلون على قراءة كتبه واستماع أحاديثه ، فيؤثّر فيهم تأثير السحر ، ويعلمو شأنه ليصلح للعالم والمتعلّم على السواء . أي لخاصة المثقّفين وعامّتهم . فلماذا أراد الأديب إلى جانب ذلك كلّّه : " . . . صلاح شأن العامة ، ومصلحة حال الخاصة ، وكان من يعم ولا يخصّ ، وينصح ولا يفشّر ، وكان مشغوفاً بأهل الجماعة ، شنيفاً لأهل الاختلاف والفرقة ، جمعت له الحظوظ من أقطارها ، وسيقت إليه القلوب بأزمتها ، وجمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبّته ، وجلبت على تصويب إرادته . ومن أعاره الله من معونته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبّته ذنوباً " (٢) ، جلبت إليه المعاني ، وسلس له النظام ، وكان قد ألقى المستمع من كدّ التكلف ، وأراح قاري الكتاب من علاج التفهّم " (٣) .

ويعود الجاحظ في هذا النص ، إلى تأكيد فكرة الالتزام في الأدب ، حيث تتمازج الأخلاق النبيلة ، والفكر المستنير الملتزم بالجماعة ، والموهبة الأدبية الخالصة . فالأديب حين يتوجّه إلى الناس جميعاً ، ناشداً مصالحهم ، صادقاً في مخاطبتهم ، محبّاً للوحدة والتآلف ، نبغضاً للفرقة والتخالف ، عندئذ فإنه يمسك بزمام القيادة ، فتساق له النفوس

(١) انظره ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٧ - ٨ .
(٢) " والدنوب : الدلو فيها ماء " لسان العرب (ذنوب) .

(٣) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٨ .

وتجتمع على محبته القلوب على اختلاف أهوائها واتجاهاتها ومذاهبها وكأننا بالجاحظ هنا، يدعو إلى ضرورة اعتلاء المثقفين والعلماء سدة الرئاسة، ليس ثقافياً وحسب وإنما سياسياً كذلك . فحينئذ كان هذا الطموح يداعب مخيلة المعتزلة، إلى أن حققوه بالفعل في زمن اعتلاء الخليفة المأمون سدة الخلافة .

وفي الجملة الأخيرة من هذا النص، يؤكّد الجاحظ الغاية الأولى من البيان وهي الفهم والإفهام بالسهولة والوضوح واليسر حين تنساب الألفاظ سلسلة، والمعاني معبرة .

ويشعر غير مرة إلى أن اللفظ الكريم، هو ذاك الذي يتوسط الحوشي المتكلم والمبتذل من الألفاظ، جرباً على مبدئه القائل بالمذهب الوسط (١) : غير أنه يستدرك على نفسه حين يضع حال المتكلم والمستمع بعين الاعتبار (٢) "إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، فإنّ الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشيّ من الناس، كما يفهم السوقيّ رطانة السوقيّ" (٣) . فالقاعدة إذن تسير على استعمال اللفظ المتوسط، وما شدّ عنها فيؤخذ به حين تقتضي الضرورة ذلك مطابقة لمقتضى الحال .

(والناس تتفاوت طبقاتهم الفكرية والثقافية، وتبعا لذلك تتفاوت قدراتهم التعبيرية والبنائية (٤) ، فاللغة بألفاظها ومعانيها وأساليبها . . . تنبئ عن مدى ثقافة المتكلم الفكرية والأدبية ولتوضيح قصده من " طبقية " الثقافة والفكر واللغة يقول : " فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح والحسن، والقبيح والسّجع، والخفيف والثقيل، وكلّـه عربي، وكلّ قد تكلموا، وكلّ قد تمارحوا وتعابيسوا " (٥) ، وإن لا يوجد لفظ إلاّ ولمسه مقامه الذي يقال فيه كما لا يوجد معنى إلاّ وله مجاله، فكل الألفاظ لها معانيها المعبرة عنها، مهما سخفت وسقطت، كما أن كل المعاني لها مقاماتها التي تصلح لها (٦) .

(١) وانظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٤٤، وانظر نفسه، ج ١، ص ١٣٧ .

(٢) نفسه، ج ١، ص ١٤٤، وانظر، ج ١، ص ١٤٤ .

(٣) نفسه، ج ١، ص ١٤٤، وانظر، ج ١، ص ١٤٤ .

(٤) انظر، نفسه، ج ١، ص ١٤٤ .

(٥) نفسه، ج ١، ص ١٤٤ .

(٦) انظر، نفسه، ج ١، ص ٩٣ .

وبذلك يرد الجاحظ على من يرفض الإقرار بهذا الاختلاف بين كلام الناس وطرائقهم فسي التعبير عما يصنفهم في طبقات أدبية وفكرية . . مدعماً رأيه بذكر الأمثلة التي تقر باختلاف الأوصاف التي تطلق على الناس تبعاً لمقدراتهم اللغوية واللسانية والأدبية (١) ومن ثم معلقاً: "ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمى ذلك البعض البعض الآخر بهذه الأسماء" (٢). وهو في ذلك كله، يحرص على تأكيد تلك العلاقة بين اللغة والفكر، فعلى قدر عمق الفكر، يكون عمق المعنى الذي يتشكل فسي اللفظ المعبر عنه، فيوصف عندئذ اللفظ بالعمق والدقة، فاللفظ يرتقي بارتقاء المعنى وينحط بانحطاطه، يقول: "ولمّا الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها" (٣). (٤)

بل إنّه يرى أن هناك معاني لا تناسبها إلا ألفاظ معينة، وكأنها خلقت لها، وشكلت على النحو الذي هي عليه خصيصاً من أجلها (٤) نافياً بذلك مبدأ الاستتراف بين الألفاظ، هذا الخطأ الذي يقع فيه عامة الناس، حين يستعملون ألفاظاً مقارينة للمعاني التي يريدون، وليس مطابقاً لها، وذلك على سبيل استخفاف نطقها، حسنتي ولو كانت ضعيفة أو قليلة الاستعمال في "أصل اللغة" (٥). ويدلّ على ذلك بقوله: "ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر. والنام لا يذكر والسفب ويذكرون الجوع في حال القسوة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظه إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنّه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين: ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعاً. والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج" (٦).

- (١) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٤٤ - ١٤٥.
- (٢) نفسه، ج ١، ص ١٤٥.
- (٣) الحيوان، ج ٦، ص ٣٩، وانظر نفسه، ج ٣، ص ٣٩، وانظر البيان والتبيين، ج ١، ص ١٤٥.
- (٤) انظر، رسائل الجاحظ، ج ١، ص ٢٤٣، وانظر نفسه، ج ٣، ص ٤٠.
- (٥) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٠.
- (٦) نفسه، ج ١، ص ٢٠.

ولذلك فإن الجاحظ ينصح الأدب بتحرى الألفاظ بدقة من مصادرها الموثوقة، كالرجوع إلى القرآن الكريم مثلاً، إذ هذا هو الفرق بين العامي الذي يستخدم اللفظ الشائع، الخفيف، السهل، والخاصي الذي يتفقد ألفاظه ويتخيرها، ويتحرى الدقة في انتقائها. كما يحذره من التأثر بألفاظ العامة، التي لا تقع في خطأ الترادف وحسب في أمور لغوية أخرى كـ بعض الجمع، فالبحر مثلاً يجمع على "أبصار" كما جاء في القرآن وليس كذلك السمع إذ لا يجمع على "أسماع" والسما يجمع على "سماوات" وليست كذلك الأرض، فهي لا تجمع على "أرضين". وأما العامة فتقول "أسماعاً" و"أرضين". ولم يـ في ذلك كله يشير إلى ما نطلق عليه اليوم "الأخطاء الشائعة".

وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن أصل اللغة، فيقول في معرض حديثه عن آدم حين زلّ وعصى ربّه: "... وعلمه جميع الأسماء بجميع المعاني. ولا يجوز أن يعلمه الاسم ويدع المعنى، ويعلمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه. والاسم بلا معنى لغو كالظرف الخالي. والأسماء في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح، اللفظ للمعنى بدن، والمعنى للفظ روح. ولو أعطاه الأسماء بلا معان لكان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له، وشيئاً لا حس فيه، وشيئاً لا منفعة عنده" (١). فيدري أنه في هذا الشأن، انطلاقاً من عقيدته، إذ يرى أن الله علم آدم الأسماء كلها مع معانيها، إذ لا فصل بين اللفظ ومعناه، فالأسماء متضمنة للمعاني بالضرورة. ومتلازمة مع بعضها بعضاً، فالمعنى يستمد أهميته من حيث كونه مصدر الحركة، والحس، والمنفعة، واللفظ الخالي من المعنى، يشبهه بالجسم الجامد بلا حركة لا فائدة فيـه.

(ولا يحاول الجاحظ، في هذه الفكرة، أن يبخس اللفظ حقه من الأهمية، كما قد يتوهم، فلقد سبق أن تحدث عن أهمية اللفظ ومدى خطورته من حيث كونه جسماً يعبر به المعنى إلى القلوب، وسيلة إلى غاية، تثبت المعنى في النفوس، وعن دوره المهم في عملية الفهم والإفهام. ولهذا فهو ينتقل إلى الحديث عن أهمية المعنى ومدى خطورته وأثره، ليتوصل إلى النتيجة التي أعادها مراراً وتكراراً، وهي مساواة اللفظ لمعناه.

ولذلك فانه يرى أن اللفظ لا يعتبر اسماً إلا إذا كان متضمناً للمعنى ، لأن المعنى هو الجوهر ، ومن أجله وجد اللفظ . فاللفظ وسيلة المعنى ، والمعنى هو وسيلة لفهمه . التفاهم بين البشر عن طريق اللفظ . وإذا أراد الإنسان أن يعبر عن معنى ما في داخله فإنه عندئذ يبحث عن اللفظ المناسب له . فالمعنى موجود أصلاً دون الاسم ، ولا وجود للاسم دون معنى . وعلى هذا فإن قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) (١) أي تلك التركيبية التي لا تنفصم عراها ، من اللفظ ومعناه ، فحين تم الاتحاد بينهما أطلق عليها لفظ " الاسم " ، وهو المقصود في الآية الكريمة (٢) - ولزيد من التعليل ، يقول معلّقاً : " إخباراً أنه قد علّمه المعاني كلها ولسنا نعني معاني تراكيب الألوان والطعوم والأرايح ، وتضاعيف الأعداد التي لا تنتهي ولا تنهاى . وليس لها فضل عن مقدار المصلحة ونهاية الرسم اسم الآ أن تدخله في باب العلم فتقول : شيءٌ يُسمى " (٣) .

فالأسماء المقصودة بالآية الكريمة ، هي المعاني المحدودة الدالة على المصالح وتنتهي ، بانتهاء الحاجة إلى التعبير عنها . فما زاد عن ذلك من المعاني التي تنتج عن التركيبات المختلفة المتزايدة ، فليست داخلية ضمن إطار " الأسماء " الواردة في هذه الآية الكريمة . وإنما تدخل في إطار النظرة العلمية للأمور من حيث تصنيفها إلى أشياء ومعانٍ . ولذلك يقول متابعاً نظريته في تفسيره لهذه الآية القرآنية : " الأسماء التي تدور بين الناس إنما وضعت علامات لخصائص الحالات ، لا لنتائج التركيبات . وكذلك خاص الخاص لا اسم له إلا أن تجعل الإشارة المقرونة باللفظ اسماً .

وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ، ولعمري أنها لتحيط بها وتشتمل ، فأما العلوم المبسوطة فإنها تبلغ مبالغ الحاجات ثم تنتهي " (٤) .

فمجمع القول إذن ، أن " الأسماء " التي علّمها الله تعالى لآدم عليه السلام هي الألفاظ الدالة على معانٍ معينة ، وتعبّر عن حالات مخصوصة ، لا عما ينتج عن تفاعلها

- (١) البقرة ، ٣١ .
- (٢) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .
- (٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .
- (٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

من حالات جديدة مركبة ، حيث وهب الله للإنسان عقلاً يستطيع من خلاله أن يطور هذه الأسماء مع تطوره الفكري والحضاري . ومن هنا ، ينطلق الجاحظ في تفسيره للتطور اللغوي بين الحقيقة والمجاز والاشتقاقات اللغوية . . . الخ .

ثم يختتم نظريته هذه بقوله : " فإذا زعمت أن الله تبارك وتعالى علم آدم الأسماء كلها بمعانيها ، فإنما تعني نهاية المصلحة لا غير ذلك . هذا و آدم هو الشجرة وأنت شجرة ، وهو سماوى وأنت أرضي ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحق بالقوة والفرع أولى بالضعف " (١) .

ومعد هذا التعرّيج على نظرية أصل اللغة وتطورها ، في معرض تأكيد الجاحظ أن اللفظ ومعناه ، وحدة واحدة لا تتجزأ ، يتابع حديثه عن هذه القضية من منظور العلاقة بينها وبين الأدب . فيرى أن هناك جاذبية معينة تقوم بين بعض الألفاظ والأدب ، تلتمح بعقله ، وتمتزج بأسلوبه لتدور في معظم تأليفه ، حتى ولو كان " واسع العلم غزير المعاني كثير اللفظ " (٢) . غير أنه يعرض عن تفسير سر هذه الجاذبية ، التي لا علاقة لها بوفرة العلم أو نضوجه ، وكثرة المعرفة أو شحها ، خاصة أنها ظاهرة تسترعي الانتباه ، فهي لا تتوقّد عند حدود الفرد ، وإنما تتوسّع لتشمل الجماعة من أفراد الملة الواحدة . يقول مثلاً بالزنادقة : " فصار حظ الزنادقة من الألفاظ التي سبقت إلى قلوبهم ، واتصلت إلى قلوبهم ، واتصلت بطبائعهم ووجرت على ألسنتهم التناكح ، والنتائج والمسزاج ، والنور والظلمة ، والدفاع والمناع ، والساتر والغامر ، والمنحلّ ، والبطلان ، والوجسدان ، والأثر والصدّيق وعمود السبح ، وأشكالا من هذا الكلام فصّار وإن كان غريبا مرفوضا مهجورا عند أهل ملتنا ودعوتنا ، وكذلك هو عند عواننا وجمهورنا ، ولا يستعمله إلاّ الخواص وإلاّ المتكلمون " (٣) .

-
- (١) رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣٦٣ .
 (٢) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٦٦ .
 (٣) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

وفي هذا النص ، يعود الجاحظ ، إلى تأكيد تلك العلاقة التي تربط ، بين الفكر واللغة ، وأثر الفكر في تطويع بعض الألفاظ ، فتتحول إلى مصطلحات فكرية ، تعبّر عن مبادئ ، بعض الفرق دون غيرها ، إلى درجة أنها تغدو مرفوضة الاستعمال من قبل الملل الأخرى . وهذه الألفاظ ، لا تستعمل إلا من قبل الخاصة وعلماء الكلام . ولعلّسه في استشهاد هذا ، بالأمثلة العديدة ، التي يستعملها الزنادقة ، يبتغي كشفهم للناس وفضح أمرهم ، حيث إن بعضهم يستتر ولا يجاهر بزندقته فتفضحه ألفاظه ، ولعلّ هذا السبب هو الذي يدعو إلى التمثّل بالزنادقة من بين سائر الملل والنحل الأخرى .

هذا الأريب ، الذي تجذبه بعض الألفاظ التي تستهويه ، يشفق عليه الجاحظ من التعلّق بألفاظ غامضة المعاني ، شديدة التعقيد بحيث يصعب فهمها على المتلقّي فيعرض عنه وعن أدبه ، لأنّ عبارته المتكلّفة عندئذ تستحيل " لفوا أو ظرفا خاليا " (١) ، ولذلك يفخر بما تأخذه الشعوبية على العرب من " . . . ترك اللفظ يجري على سجيته وعلى سلامته حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف ، ولا التماس قافية ، ولا تكلف لوزن " (٢) ولهذا فهو يحذّر من عشق اللفظ الذي يبلغ بالأريب حدّا بأن يضع اللفظ قبل التفكير بالمعنى ، فتبدو هذه التركيبة من اللفظ والمعنى ، غير متناسقة

ولا متناسقة ، لأنّ ذلك اللفظ في الحقيقة لم يخلق أصلا لذلك المعنى ، ولهذا فهو لا يناسب المقام الذي استعمل لأجله ، فيظهر التكلّف جليّا ، حين يبدو الكاتب وكأنّنه " يجرّ إليه المعنى جرّا ، ويلزقه به إلزاقا . حتى كأنّ الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره ، ومنعه الإفصاح عنه الآب " (٣) . وهذه الصورة المضحكة التي يظهر عليها هذا الأريب أو الخطيب بسبب شدّة شغفه باللفظ ، تسخّفه وتحطّ من قيمة فنّه . وكان ذلك ما دعا الجاحظ للسخرية من ذلك المتكلّف الشغوف باللفظ المنقّ غير المبالي بالمعنى .

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٦ .

(٣) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٤٠ .

ومن التكلّف المقيت الذي يتبارى به بعض الشعراء، الإتيان بالألفاظ المتنافسة، دون مراعاة للمضمون، مما يوّدي إلى تسخيف العقل، فيقول معلقاً على بيت الشاعر الذي يضره الأصمعي مثلاً لتنافر الألفاظ :-

وقبر حرب بمكان قفر . وليس قرب قبر حرب قبر (١).

يقول : " ولما رأى من لا علم له أنّ أحداً لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتبع ولا يتجلىج ، وقيل لهم إنّ ذلك إنما اعتراه ، إذ كان من أشعار الجن ، صدّقوا بذلك " (٢).

وهنا ، يشير إلى عاقبة الإغراق في التكلّف ، وما قد تجلبه على العامة من نتائج وخيمة ، حين تهوى بهم في مهاوى الجهل ، والخرافات ، فحين توعّر اللفظ ، وثقل تكلفه ، مال الناس إلى التصديق بأن هذا البيت ، من أشعار الجن ، فيكش عن مثل هذه المزاعم الباطلة . وهنا تظهر قيمة الفكر المعتزلي ، الذي يعمل بالعقل والفكر وينزّهه عن تصديق مثل هذه الخرافة ، موجّهاً إياه نحو التفكير المنطقي السليم .

ولهذا يهبط الاستكراه وتكلّف الألفاظ بفضا شديداً ، فهو لا يجد له ذوقاً مهماً بلغت سخافة الموضوع أو جدّيته ، سواء أكان الحد يثغي البلاغة أم في الطرائف أو في أي موضوع آخر ، ولا يخلو الأمر من سخرية يطلقها الجاحظ ، بين الحين والآخر . فيقول : " معلقاً على هذا التكلّف : " وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فمه ، مسرودة فسي نفسه ، ولم تكن مخلّدة في كتبه " (٣) . هذا التندّر ، يطوي تحت جناحيه نقداً لا نعا ، ولكنه لا يصل بسخريته حدّ النيل من الآخرين . فحبه الشديد للغة العربية وحرصه على الارتقاء بها ، هو الذي يدفعه إلى نقد المتكلفين ، لأن تكلفهم واستكراههم للألفاظ ، يقف عائقاً يحول دون تطوّر اللغة ومرونتها ، من ناحية ، ويقلّل من إقبال العامة الناس على قراءتها لصعوبة اللفظ . فينفث الجهل ، وتراجع اللغة ، ويضيع الفكر ، ليؤدي إلى اندثار الحضارة رويداً رويداً .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٣) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٤٢ .

فالأصل إذن ، أن يكون اللفظ حاضرا في الذهن ، غير متكلف أو مستكره ، ألا أن هناك موضوعات معينة ، تحتاج إلى بعض التكلف ، لأن ألفاظها لا تسهل ولا تسلس إلا بعد طول مران وتدريب يقول : " فإن رأيي في هذا الضرب من هذا اللفظ ، أن أكون ما دمت في المعاني التي هي عبارتها ، والعادة فيها ، أن ألفظ بالشئ المعتيد الموجود ، وأدع التكلف لما عسى ألا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة " (١) غسير أن المتكلف ، ذا الموهبة الضعيفة ، واللفظ البطيء ، الذي لا ينأش إلا بعد طول تفكير ، المعجب بنفسه ، وهو مع ذلك ينسب نفسه للأدباء والكتابة والكتاب ، هو الذي يشيـر سخط الجاحظ وحنقه . لأن أمثال مدعي الأدب هؤلاء ، أو من نسميهم اليوم بأنصاف الأدباء - لا يدركون الفرق بين الموهبة الحقة ، حين تستجيب الألفاظ سلسلة ، معبرة دقيقة ، وبين استكرها الألفاظ وقسرها وتكلفها (٢) .

هذا بالنسبة للكاتب ، أما القارئ ، غنيضي أن يبتغي استفادة المعاني ، أثناء تصفحه للكتب القيمة ، دون أن يكون هدفه حفظ الألفاظ (٣) ، لأن الأساس يكمن في ما تتضمنه هذه الكتب من معارف وعلوم وآداب . ومن ثم تتبلور الألفاظ في ذهنه مع طـسول قراءة الكتب التي تضم بين طياتها الأساليب المتينة ، والألفاظ الكريمة والمعاني الشريفة ، دون أن يقصد إليها قصدا .

ولهذا يحذر الجاحظ من ابتغاء تحصيل الألفاظ ، حين يهـم القارئ بقراءة كتاب ما ، وليكن همه في توسيع مدارك عقله ، بفهم مضمون ما يحوي ومعاني ما يقرأ . وسبب ذلك في رأيه " لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ حمله الحرص عليها ، والاستهتار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها ، ويضعها في غير مكانها " (٤) .

(١) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

(٢) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٤٠ .

(٣) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٤) نفسه ، ج ٣ ، ص ٤١ .

ولذلك يرى أن لسماع الألفاظ وجهين : الأول ضار، والثاني نافع (١)، ثم يفصل حديثه عن هذين الوجهين بادئاً بالوجه النافع، فلم هذا الوجه مراحل التي يمر بها اللفظ، فيشبهه بالمراحل التي يمر بها العصفور حين يعيش ثم يبيض ثم يفخ ثم ينهض . . . وكذلك اللفظ، حين يدخل العقل، ويمكث في الصدر زمناً ليختبر، فيتلاقح مع غيره من الألفاظ. وتتدفق ألفاظه سلسلة، غير متكلفة، ويمتاز أسلوبه عند ذاك بالمرونة والقوة، والآن على موهبة فذة وفكر راجح، وثقافة غنية وعقل سليم المنطق، فيخرج أدبه غنياً لغة وفكراً (٢).

ومن الملاحظ، أن تشبيه الجاحظ اللفظ بالعصفور يستعمله للدلالة على اللفظ الرديء، تارة (٣)، واللفظ النبيل تارة أخرى. مما يدل على أن للكلام وجهين، فالأول أن يستعمل على سبيل المدح، أو على سبيل السذم.

هذا اللفظ، الذي يتحدث عنه، ليس كذاك الذي يخرج متكلفاً، مفتعلاً مستكرهاً، فيدلّ على أن صاحبه، يتكل على اعتياد الراحة، التي تورث الخمول. فينزع مدعي الأدب هذا، إلى السرقات الأدبية لتصبح عادة سيئة تستحكمه (٤). فهو حين يخلد إلى الكسل، ويلجأ إلى سرقة الألفاظ، لا ينال طائلاً، ويقضي على نفسه أدبياً وخلقياً، لأن الأخلاق والأدب صنوان لا يفترقان. والسقوط الخلقي يودي بالضرورة إلى السقوط الأدبي.

وهنا يستفحل خطره، حين يركن إلى تحفظ ألفاظ معينة من كتاب ما، أو من أقوال رجل مشهور، ثم يلجأ إلى إلصاق المعاني التي يريد بها بهذه الألفاظ التي يحفظها. فإذا مرّ كلامه بنقاد الألفاظ وجهابذة المعاني استخفوا عقله، وسهرجوا علمه (٥). فيخمد أثره، ويذهب ذكره، من أثر النضوب اللغوي والفكري والأخلاقي الذي أدى به إلى امتحان السرقة الأدبية (٦).

- (١) انظر، رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٤١.
- (٢) انظر، نفسه، ج ٣، ص ٤١ - ٤٢.
- (٣) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ٨٥ - ٨٦.
- (٤) انظر، رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ٤٢.
- (٥) انظر، نفسه، ج ٣، ص ٤٢.

ومن المعلوم ، أن السخرية ، علامة من علامات أسلوب الجاحظ ومنهجه . ومن خلالها يستطيع القارئ استشفاف آرائه النقدية في الأدب كما في غيره من المجالات ومن ذلك مجمل رأيه في قضية اللفظ والمعنى ، من خلال تهكمه من أحمد بن عبد الوهـاسب يقول : " . . . وتعطي المعنى حقه من اللفظ كما تعطي اللفظ حظه من المعنى . وتحسب المعنى إذا كان حياً يلوح ، وظاهراً يصيح ، وتبغضه مستهلكاً بالتعقيد ، ومستهوراً بالتفريب .

وتزعم أن شر الألفاظ ما غرق المعاني وأخفاها ، وسترها وعمّاها ، وان راقبت سمع الغمر ، واستمالت قلب الرّيس .

أعجب الألفاظ عندك ما رَقَّ وعذب ، وخَفَّ وسهل ، وكان موقوفاً على معناه ، ومقصوراً عليه دون ما سواه . لا فاضل ولا مقصر ، ولا مشترك ولا مستغلق ، قد جمع خصال البلاغة ، واستوفى خلال المعرفة " (١) .

فمن خلال هذا النقد اللاذع ، يبين رأيه في اللفظ والمعنى من جميع الوجوه التي سبق الحديث عنها . وكأنه يلخصها ويجملها ، من مساواة اللفظ الخفيف ، السهل ، غير المعقد ولا المتكلف ولا الغريب ، للمعنى للقريب الظاهر ، الحي ، غير المستور أو الغامض ، إضافة إلى جودة البلاغة وسعة المعرفة . ثم يعلّق قائلاً : " فإذا كان الكلام على هذه الصفة ، وألف على هذه الشريطة ، لم يكن اللفظ أسرع إلى السمع من المعنى إلى القلب ، وصار السامع كالقائل ، والمتعلّم كالمعلّم ، وخفت الموهنة ، واستغني عن الفكرة ، وماتت الشبهة وظهرت الحجة ، واستبدلوا بالخلاف وفاقا ، وبالمجانبة موارعة ، وتهنئوا بالعلم ، وتقنعوا ببرر اليقين ، واطمأنوا بثلج الصدور وبان المنصف من المعاند ، وتميّز الناقص من الوافر ، وذلّ الخطل وهزّ المحصل ، وبدت عورة البطل ، وظهرت براءة المحق " (٢) ، فيبين هنا ، الأثر البالغ للفظ الذي تتوفر فيه الشروط المذكورة ، في النفوس والعقول ، من تأليف القلوب ، وظهور الحجة ، وبرر العلم واليقين . . . فهو وإن يشير إلى أثر فن القول في الناس ونفوذ وأهميته أدبيا وفكريا

(١) رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٦٣ .

(٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ٦٤ .

ويرى أن أسوأ الكلام ، ما بدا على غير حقيقته وخالف ظاهره باطنه ، وشر منه ذلك اللفظ الذي يتهياً معه للسامع ، أنه خفي المعنى ، بعيد التأويل ، إلا أنه في حقيقة الأمر ، ظاهر المعنى قريبه (١) . وهذا الكلام الذي يترعرع في أحضان النفاق ، لا بد من أن ينكشف أمره ، ويفتضح سرّه يقول : " . . . أو ليس هو أظهر الجهل والغباء وانتحل الغفلة والحماقة ، ثم احتجّ لذلك بالمعاني الشداد والألفاظ الحسان وجودة الاختصار ومتقريب المعنى وسهولة المخرج وإصابة الموضوع ، فكان ما ظهر من معانيه وبيانه مكذباً لما ظهر من جهله ونقصانسه . . . " (٢) .

وبذلك ، فلا يزال الجاحظ ، يؤكد العلاقة بين الأخلاق والأدب ، فالإبانة الحقّة لا يقوى عليها سوى الأدب الموهوب ذي البيان ، حيث تفوق موهبته علمه ، لأن الموهبة أساس الإبداع أصلاً ، والعلم يشذبها ويصقلها . وأن يفوق علمه في المنطق علمه فسي الكلام ، حتى يكون لفظه كريماً حرّاً ، شريفاً نبيلاً فخماً ومعناه على المستوى ذاته من الشرف والنبالة . . . عندئذ يكون لفظه مبيناً صائباً ، معرباً عن معناه ، ومفصلاً عنه ، ومعنى كلامه في مقامه الذي جعل له (٣) . والعبرة في الكيف لا في الكم ، فالقليل السدي يبدعه أدب موهوب عميق المعاني ، ويقيم الوزن إذا كان شاعراً " والذي تجود به الطبيعة وتعطيه النفس سهوا رهوا " أقرب إلى القلوب ، ونفوس المستمعين ، من الكثير المتكسّف الذي لا يتأتى إلا بعد طول كد ومعالجة ، لأن " جمع النفس له ، وحصر الفكر عيسه " ، لا يقدم عليه سوى المتكبر المحبّ للظهور بين الناس ، ويلهث وراء الشهرة . هذا وأصحاب الموهبة الحقيقية ، يتنافسون فيما بينهم ، أما أصحاب التكلف فيتحاسدون . ولا يفصل بين التنافس والتحاسد ، سوى خيط رقيق رفيع (٤) . ويدلّل الجاحظ على صحة ما يذهب إليه ، مستدلاً بالآيات الكريمة والأحاديث فيقول : " والدليل الواضح ، والشاهد القاطع ، قول النبي صلى الله عليه وسلّم : " نصرت بالصبا ، وأعطيت جوامع الكلم " وهو

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٩٣ .

(٢) الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر ، المخلّاء ، تحقيق طه الحاجري ، القاهرة ١٩٧١ / ص ٢ .

(٣) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ .

(٤) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

القليل الجامع للكثير . وقال الله تعالى وقوله الحق : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ) (١) ، ثم قال : (وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) (٢) ثم قال : (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) (٣) فعم ولم يخس ، وأطلق ولم يقيد . فمن الخصال التي ندمهم بها تكلف الصنعة ، والخروج إلى المباهاة والتشاكل عن كثير من الطاعة ، ومناسبة أصحاب التشديق . ومتى كان كذلك كان أشد افتقارا إلى السامع من السامع إليه ، لشففه أن يذكر في البلغاء ، وصوابته بالحق بالشعراء . ومن كان كذلك غلبت عليه المنافسة والمغالبة ، وولد ذلك في قلبه شدة الحمية ، وحب المجازبة * (٤) .

ولا يزال الجاحظ هنا ، يصر على أهمية التحلي بالأخلاق العالية الحميدة ، بالإضافة إلى إجادة الأدوات الفنية التي تقتضيها الصناعة الأدبية ، والتي تساعد على شـذب الموهبة وصلها . فلقد ذم الله تعالى في قرآنه الشعراء الذين (يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) والذين (فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ) ، والسبب في ذلك خروجهم عن الهدى السامي من الفن الرفيع ، وهو إغناء الفكر واللغة والحضارة وخدمة المصلحة العامة ، وتوظيف هذا الفن الضروري من أجل خدمة الحضارة الإسلامية ، والمصلحة العامة للمسلمين ، والدفاع عن الإسلام ، والرد على المشركين . وهنا يظهر الجانب الآخر من المعركة ، حين يتحول فن القول إلى سلاح حاد نقاذ لحماية الفكر والحضارة . أي حين يكون الأدب ملتزما بالفكر والأخلاق يصبح في مواجهة التحديات " أنفذ من السنان ، وأقطع من السيف اليمان " (٥) لكن ، حين خرج عامة الشعراء عن هذا الهدى ، وتشاغلو بالتكلف والتصنع ، والمباهاة والتشديق ، وغسوا أنفسهم فيما من شأنه أن يبعدهم عن طاعة الله ، وتسخفوا بالمنافسات والمنازعات ، ليتحاسدوا ويتجادلوا ، فذمهم الله في قرآنه ، ونزه نبيه عن قول الشعراء . لأن أفعالهم تنافي أقوالهم ، وهذا هو النفاق الذي يسيء إلى الأديب وأدبه ، " وَمَنْ سَخَفَ هَذَا السُّخْفُ ، وغلب الشيطان عليه هذه الغلبة ، كانت حاله داعية إلى قسول

- (١) يس ، ٦٩ .
- (٢) يس ، ٦٩ .
- (٣) الشعراء ، ٢٢٥ - ٢٢٦ .
- (٤) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٢٩ - ٣٠ .
- (٥) رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣٠٨ ، وانظر البحث ص ٣ .

الزور ، والفخر بالكذب ، وصرف الرغبة إلى الناس ، والإفراط في مديح من أعطاه ، وذم من منعه " (١) . أي يصيح من أنصار من يعتقد بأن الفاية تبرر الوسيلة ، فمن أجل الظهور وتلقي المديح والمال ، يقول زورا ويفخر كذبا ويمدح من يهب المال ، ويذم من يمنعه . . . وأمثال مدعي الأرب هذا ، مصيره للسقوط أدبيا وأخلاقيا وفكريا . ولذلك جعل الله رسوله أميا ونزّهه عن طلب المعلوم والآداب المختلفة ، لكيلا يفدو عبدا لها ، همّسه رصف الألفاظ ، وابتداع المعاني (٢) " فجمع له باله كفه في الدعاء إلى الله ، والصبر عليه ، والمجاهدة فيه ، والانبثاق إليه والاعمال إلى كل ما قرب منه ، فأعطاه الإخلاص الذي لا يشوبه رياء ، واليقين الذي لا يطرره شك ، والمزمزم ، المتمكن ، والقوة ، الفاضلة " (٣) ، وهنا نبه المديح : فجميع الشعراء والخطباء ، وكل من تغنّ في استخراج المعاني منها بلفوا من المهارة والتفنّن ، وبذلوا من الجهد ، وسهما أوتوا من الموهبة والقدرة لا يصلون إلى ما وصل إليه النبي صلّى الله عليه وسلّم ، من الفصاحة والبلاغة ، من غير تكلف تعلمها (٤) . هذا مع العلم ، أن هؤلاء الأدباء ، على ما يبذلون من كبير جهد ، وكثير عنا ، في سبيل امتلاك زمام الفصاحة والبلاغة ، ومع طول الدرس والرياضة ، فإن أمرهم لا يخلو من الوقوع فيما هو مذموم لدى الكتاب ، كاستكراه الألفاظ ، وتعقيد ها ، وكثرة القول والاضطراب والتشادق . . . والرسول الكريم معصوم عن الوقوع في ذلك كفه ، بهسبل إنّه يحذّر من مذام الكتابة هذه ، ويبيّن عيوبها ويدعو إلى تجنبها (٥) .

لعل فنّ الشعر ، من أبرز الفنون الأدبية عند العرب وأهمها ، وهو المادة التي تدخل في شتى ميادين الأرب ، وإن ينهل منه علماء الأرب واللغة ، كل على حسب موضوعه الذي هو بصدده . فالنحويون مثلا غايتهم " كل شعر فيه إعراب " . وأما غاية رواة الشعر " كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج " ، ورواة الأخبار يبحثون عن " كل شعر فيه الشاهد والمثل " . وهكذا . . . ومعظمهم ينتقون من الشعر ما يجود ويتميّز

(١) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٣٠ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٠ .

(٣) نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٠ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٠ .

(٥) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٠ - ٣١ .

والجاحظ ، وإن كان يدعو ، إلى اللفظ الكريم المتخير ، والمعنى الشريف المنتقى فإنه لا يفض الطرف عن المواضع التي قد يحتاج فيها إلى السخيف من المعنى واللفظ .
كـبعض النوار مثلاً (٣) ، حيث اللفظ الوضع والمعنى السطحي يناسبان ذلك المقام الذي يهدف إلى الاحتمال والترفيه ، حتى ولو كانت هذه النادرة تتضمن نقداً جاداً . فإني الاحتمال هو جوهر النادرة ، وبالتالي فإنها تحتاج إلى الألفاظ السخيفة . فينبغي على الكاتب وإن أن يكون سلساً في تعامله مع الموضوع الذي هو بصدده ، وليدع الألفاظ تسيّر على سجيّتها في تعبيرها عن المعاني ، دون تكلف أو تزمت ، ولكل موضوع ألفاظه التي تناسبه فهناك موضوعات ، يتطلب فيها استعمال الألفاظ المنطقية ، وأخرى تستدعي الألفاظ الفخمة الجزلة وهكذا . . . فإن الموضوعات الترفيحية ، تتطلب استعمال الألفاظ والمعاني السخيفة ، فلا حرج من استخدامها إن لزم الأمر ، ولكل مقام مقال . وبهذا الصدد يقول : " وأرى أن ألفظ بالآفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً في صناعة الكلام مع خواص أهمل الكلام ، فإن ذلك أفهم لهم عني . وأخف لمؤنتهم عليّ " (٤) فلعلّ صناعة إن ، ولكل

- (١) انظر، البيان والتبيين، ج ٤، ص ٢٤.
- (٢) البخلاء، ص ٢١٠.
- (٣) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٤٥.
- (٤) الحيوان، ج ٣، ص ٣٦٨. وانظر، داود سلوم، النقد المنهجي عند الجاحظ، بغداد ١٤٦٦هـ - ١٩٨٦م.
- ص ٩٦

فن من الفنون ألفاظه وتعبيراته ، التي لزمته بعد التجربة والخبرة . فكان هذا التجاذب الطبيعي بينهما نتيجة لما حصل بينهما من التشابه والتشاكل (١) . وهكذا تنتمي الألفاظ المعينة إلى الصناعات المناسبة لها ، كما سبق الحديث عن انتفاء الألفاظ المعينة كذلك إلى بعض الملل والنحل ، فصارت وكأنها ملك لها (٢) .

[والجاحظ ، عالم من علماء المعتزلة ، ومن المنافحين عن هذا الفكر ولذلك فهو حين يحتاج إلى ضرب المثل بفن من الفنون ، يتبادر إلى ذهنه فوراً فن علم الكلام وصناعة الكلام ، مثل باقي الصناعات الأخرى ، علق بها ألفاظها التي تشابهها وتخصها ، وعلى من يريد أن يخوض في هذا العلم ، أن يكون عالماً بألفاظه . يقول : " وقبيح بالمتكلم أن يفتر ، إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة ، أو رسالة . . . وكذلك (فإنه) من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب ، وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل . ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل " (٣) .

(ولا يقف الأمر عند حد اتصال هذه الألفاظ ، بالصناعات المناسبة والمشاكل لها ، وإنما يتعدى ذلك ، إلى تأثير ألفاظ الصناعات المختلفة ، بعضها ببعض ، حين تكون الألفاظ قليلة العدد ، بالنسبة للمعاني التي يحتاجها أصحاب ذلك الفن أو تلك الصناعة ، وتصبح غير قادرة على استيعابها جميعاً . فيستعير المتغن ألفاظ فن آخر ليستكمل بها معانيه ، فلا ضرر من استعارة ألفاظ فن من الفنون ، في سبيل خدمة فن آخر ، وكما استعان المتكلمون بألفاظ خارجة عن علم الكلام دخلت ألفاظ المتكلمين في ميدان الشعر ، على سبيل الظرف كما فعل أبو نواس مثلاً في قوله :-

يا عاقد القلب منّي هلاً تذكّرت حملاً
تركت منّي قليلاً من القليل أقلاً
يكاد لا يتجسّراً أقلّ في اللفظ من لا (٤)

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٣) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٤) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤١ . وانظر ، نزار الدين ، السحاح ، في الأدب النبوي : الرؤية والفن ، بيروت

بل " قد يتعلّق الأعرابي بأن يُدْخِل في شعره شيئاً من كلام الفارسيّة "، والجاحظ في ذلك كله يستشهد بالأشعار المختلفة (١) مشيراً بذلك إلى تأثر اللغات بعضها ببعض . ومن ذلك مثلاً يقول : " كقول العُمانيّ للرّشيد ، في قصيدته التي مدحه فيها :-

مَنْ يَلْقَهُ مِنْ بَطِيلٍ مُسْرِنَسِدٍ (٢) . فِي زَعْفَةٍ (٣) مُحْكَمَةٍ بِالسَّرْدِ (٤)
* تَجُولُ بَيْنَ رَأْسِهِ وَ" الْكَرْدِ " (٥) * (٦) .

من ناحية أخرى ، يتطرق إلى الألفاظ ، التي قد يتحرّج من ذكرها الكتاب (٧) فيرى أن لا ضرورة تدعو إلى مثل هذا الحرج ، لأنها مستعملة في اللغة ، يقول : " . . . ومعهد فلم يكن لهذه الألفاظ مواضع استعمالها أهل هذه اللغة وكان الرأي ألاّ يلفظ بها ، لم تكن لأوّل كونها معنى ، إلاّ على وجه الخطأ ، ولكان في الحزم والقون لهذه اللغة أن ترفع هذه الأسماء منها . وقد أصاب كلّ الصواب الذي قال : " لكل مقام مقال " . (٨) .

ولكنّي يدللّ الجاحظ ، على صحّة ما يذهب إليه ، يستشهد بأقوال لأعلام معروفة استعملوا هذه الألفاظ في بعض أقوالهم ، منهم عليّ بن أبي طالب الذي عليه " يعمل فسي تنزيه اللفظ وتشريف المعاني " ولأبي بكر وغيرهما (٩) . فمن يبالي في اظهار التحسّج

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤١ - ١٤٤ .

(٢) " والمسرندي : الذي يفلبك ويعلوك " لسان العرب (سرندي) و (سرندي) .

(٣) " وزعفه يزعه زعفاً وأزعفه : رماه أو صرّبه فأتى مكانه سريعاً . . . وزعفه يزعه زعفاً : أجهز عليه " لسان العرب (زعف) .

(٤) " والسرد : اسم جامع للذروع وسائر الحلق وما أشبهها من عمل الحلق " لسان العرب (سرد) .

(٥) يقول الجاحظ في تفسير كلمة " الكرْد " : " يعني العنق " ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، ويقول ابن منظور في تفسير هذه الكلمة " والكرْد : العنق ، وقيل : الكرْد لفظة في القرْد وهو مجتم الرأس على العنق ، فارسيّ معرب . . . والحقيقة في الكرْد ، أنّه أصل العنق " لسان العرب (كسرد) .

(٦) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٧) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٤٠ - ٤٣ .

(٨) نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٣ ، وانظر رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(٩) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٤١ - ٤٣ ، وانظر رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٣ .

والتورّع عن استعمال مثل هذه الألفاظ ، فإنما ذلك يكون على سبيل التصنّع والتظاهر والنفاق لا غير . (١)

وفي معرض هذا الحديث عن استعمالات الألفاظ المختلفة ، يشير إلى أن هنالك ألفاظا ، لها ما يقابلها من الألفاظ ، إما خيرا وإما شرا " كالحب والبغض " ، والفضب والرضا ، والعزم والإرادة ، والإقبال والإدبار ، والجّد والفتور . لأن هذا الباب الأخير يكون في الخير والشر ، ويكون محمودا ويكون مذموما . (٢)

فالخير والشر ضدّان ، وعليه تتقابل ألفاظهما بالضرورة ، فالألفاظ وجدت أصلا وطوّرت ، من أجل خدمة التفكير الإنساني ، وحاجات الإنسان في التعبير عن هذين النقيضين الموجودين أصلا في نفسه .

وكما أن هنالك ألفاظا تتناقض وتتقابل ، فإن هنالك ألفاظا تتلازم مع بعضها بعضا ، ودليله على ذلك ألفاظ القرآن الكريم ، يقول : " وفي القرآن معان لا تكاد تفترق ، مثل الصلاة والزكاة ، والجوع والخوف ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والانصار ، والجن والإنس . " (٣) فيترك الجاحظ هذه الملاحظة دونما تفسير أو تعليل .

ومن الملاحظ ، في هذا النص ، أنه لم يقل " وفي القرآن ألفاظ " وإنما استعمل كلمة " معاني " ، لأن اللفظ يتلازم مع معناه الذي جعل له وصارحقه ، وإنما خصّ القول بالمعنى وحده ، مع العلم أنه لا يوجد بديل للفظ الذي يعبر عن معنى " الصلاة " مثلا سوى هذه اللفظة بعينها وهي " الصلاة " ، فإذا قيل " التعبد " على سبيل المثال ، فإن هذا اللفظ لا يعني " الصلاة " في معناها الدقيق المعروف في القرآن الكريم . وهكذا الأمر في سائر المعاني التي يذكرها . ولعلّه يقصد بالمعنى ، أي المعنى ولفظه ، وحين يقول " اللفظ " ، فإنه يقصد به ، اللفظ ومعناه ، في تأكيد منه أن اللفظ لا يفترق عن معناه .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٤٠ .

(٢) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢١ .

ويرى الجاحظ، أن هناك ألفاظاً، تدل جميعها على ذات الشيء، ولو اختلفت في شكل رسمها، وتهجئتها، ويضرب على ذلك مثلاً، وهي " الشاكرية " التي تعني " الجند " . فعلى الرغم من اختلاف شكليهما، إلا أن معناهما واحد وهو " طاعة الخلفاء " وتأيد السلطان . " (١) ، غير أن ذلك لا يعني أنه يقول بالألفاظ المترادفة، لأنه لا يريد أن لفظ " الشاكرية " يطابق لفظ " الجند " ، بل إنه يقول : " فإن المعنى فيهما ليس بعميد " ، وهو في إشارته هذه يقرباً أن هناك اختلافاً، ولو كان بسيطاً، إلا أن جوهر المعنى بشكل عام يبقى واحداً .

وزيادة في الإيضاح يأتي بأمثلة، على الألفاظ المتقاربة المعنى، غير المترادفة ولا المتطابقة، يقول : " ويقال : فلان أحق ، فإذا قالوا مائق ، فليس يريدون ذلك المعنى بعينه، وكذلك إذا قالوا أنوك ، وكذلك إذا قالوا رقيع . ويقولون : فلان سليم الصدر ثم يقولون عبي ، ثم يقولون أبله . وكذلك إذا قالوا معتوه ومسلس وأشباه ذلك .

قال أبو عبيدة : يقال للفراس شجاع، فإذا تقدم : في ذلك قيل بطل ، فإذا تقدم شيئاً قيل بهمة ، فإذا صار إلى الفاية قيل أليس . وقال المجاج :
الْيَسُّ عَنْ حَوَائِثِهِ سَخِيٌّ . " (٢)

فمن خلال هذه الأمثلة، يبين الجاحظ المقصود بتقارب الألفاظ في المعنى، ونفي صفة الترادف عنها، حيث إن الاختلاف يكون في المرحلة التي يصل إليها المعنى، من حيث الشدة أو التراخي . فالشجاعة مثلاً تعبر عن مرحلة معينة يصل إليها الإنسان، أما " البطولة " فهي مرحلة فوق مرحلة الشجاعة . . . وهكذا، أي أن هنالك طبقات للألفاظ ومعانيها . وهذه الطبقات التي تصنف الألفاظ من حيث زيادة المعنى أو نقصانه، هي التي تضع الفرق بين هذه الألفاظ المتقاربة . ولذلك يقول : " وهذا المأخذ يجري في الطبقات كلها : من جود وسخ، وصلاح وفساد، ونقصان ورجحان . . . " (٣)

(١) انظر، رسائل الجاحظ، ج ١، ص ٣٠ .

(٢) البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٥٠ .

(٣) نفسه، ج ١، ص ٢٥٠ .

وفي مقابل ذلك ، يــــرى أن اللفظ الواحد ، قد يختلف معناه ودلالته بحسب مقامه من الكلام وموضعه ، إلا أنه لا يمثل على ذلك بلفظ يعبر عن معان مختلفة إذا اختلف المقام الذي يقال فيه . فمن أراد أن يفهم القرآن الكريم والسنة النبوية حق الفهم ، فعليه أن يعي هذا الاختلاف في المعنى للفظ الواحد ، كما ينبغي أن يفهم أمثال العرب ، واشتقاقاتها وأبنياتها . وإلا وقع في اللبس ، وينقل هذا الالتباس إلى غيره ، فيكون بذلك قد " هلك وأهلك " . (١) وهذا يدل على أن الاحساس باللفظة وروحها ، ومعرفة مجازاتها وكيفية البناء اللفوي فيها ، وطبيعته . . . من أهم الأمور التي تساعد على إتقان اللغة ، وهذا يفسر ، أن ابن اللغة يظل دائما متفوقا على الساذي يتعلمها إلى جانب لفته الأم ، وذلك لأنه يكتسب روحها ، ويتشربها منذ نعومة أظفاره ، وبها يحيا حياته اليومية . فهي تعيش معه ، في ذاكرته وفي داخله ، ولذلك ، فهما بلغ المتعلم من المهارة والبراعة والإتقان للغة ، فإنه لا يصل إلى ما وصل إليه ابن اللغة من الفهم الحقيقي والدقيق لها . ولهذا ينبغي أن يكون معلمو القرآن الكريم والسنة النبوية من أبناء اللسان العربي .

فمن يبتغي فهم " تأويل الكتاب والسنة ، والشاهد والمثل " (٢) حق الفهم ، عليه بدراسة موسعة للغة العربية ، بدلالاتها المختلفة ، وخاصة لمن يطمح أن يفدو عالمها متكلم ، يقول الجاحظ :-

" فإذا نظرت في الكلام وفي ضروب من العلم ، وليس هو من أهل هذا الشأن ، هلك وأهلك " . (٣) وهذا التركيز على أهمية حذق اللغة العربية ، إنما هو من تأثير الاعتزال ، لأن من شروط هذه الفرقة ، التوسع في شتى ضروب المعرفة لا سيما علوم العربية والدين الإسلامي . فمن الخطأ الفادح أن يخوض المرء في ميادين من العلوم لا يفقهها فيهلك ويهلك .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٤ .

من كل ما سبق ، نرى الجاحظ ، ينادي بالمساواة بين اللفظ والمعنى ، واليهـد عن التكلف والاستكراه ، فيلخص ذلك كله ، بقوله : " ثم خذه بتعريف حجج الكتاب وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الفاضل . وأذقه حلاوة الاختصار ، وراحة الكفاية ، وحذره التكلف واستكراه العبارة ، فإن أكرم ذلك كله ما كان إلهاماً للسامع ، ولا يحوج إلى التأويل ، والتعقّب ، ويكون مقصوداً على معناه لا مقصراً عنه ، ولا فاضلاً عليه " . (١)

وفي معرض وصفه لبلاغة ثامه بن أشرس يقول : " . . . وما علمت أنه كان فـي زمانه قروي ولا بلدي ، كان بلغ من حسن الإلهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ، ما كان يلفه . وكان لفظه في وزن إشارته ، ومعناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه ، إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك " . (٢)

وأخيراً يستشهد بقول يستحسنه ، بل يعتبره من أحسن الأمثلة التي جاء بها في كتبه - على حدّ قوله - وهو : " لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك " . (٣)

ونستطيع أن نستدل من هذا كله على مدى حرص الجاحظ ، على أن يوثق نظريته حول العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وهي أن يكون اللفظ مساوياً لمعناه ، مطابقاً لـه ، لا فضول فيه ولا نقصان .

(١) رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٣٩ .

(٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١١١ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ١١٥ .

وبعد هذا العرض، لموقف الجاحظ، الواضح، الدقيق، لقضية العلاقة بين اللفظ والمعنى، نجد بعض النقاد المحدثين، يقررون بأن الجاحظ ينتصر للفظ على المعنى^(١).

(١) انظر: (١) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشعر من القسرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، عمان - الأردن ١٩٨٦م / ص ٩٨ - ٩٩. من ذلك يقول: "... وهذا التحيز للشكل قلل الجاحظ من قيمة المحتوى وقال قولته التي طال تردادها: " والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها المعجمي والعربي البدوي والقروي ". لماذا اتجه الجاحظ هذا الاتجاه مع أنه لم يكن من الشكليات في التطبيق؟ ... ومنها أن عصر الجاحظ كان يشهد بوادر حملة عنيفة يقوم بها النقاد لتبيان السرقة في المعاني بين الشعراء، لا يستبعد أن يكون الجاحظ قد حاول الرد على هذا التيار مرتين ... مرة بأن يقرر أن الأفضلية للشكل لأن المعاني قدر مشترك بين الناس جميعا. وسبب ثالث قائم في طبيعة الجاحظ نفسه، فقد كان رجلا خصب القريحة لا يمييه الموضوع ولا يشغل عليه المحتوى أيا كان لونه، ولذا فإنه كان يحس أن المعنى موجود في كل مكان، وما على الأديب، إلا أن يتناول ويصوغه صياغة منفردة. ولم يكن الجاحظ يتصور أن نظريته التي لم تكن تمثل خطرا عليه ستصبح في أيدي رجال البيان خطرا على المقاييس البلاغية والنقدية لأنها ستجعل العناية بالشكل شغلهم الشاغل، وحسبنا أن نقرأ العسكري الذي ورث هذه النظرية الجاحظية ... ") .

٢. وانظر: محمد طاهر درويش، النقد الأدبي عند العرب، إلى نهاية القرن الثالث الهجري، القاهرة ١٩٧٩م / ص ١٥٦ - ١٥٨. (حيث يقول: (...) وبعد الوقوف على ما كتبه (يعني الجاحظ) من الآراء النقدية يمكن القول بأنه يميل إلى الصنعة أو الصورة أو الشكل أو الفن في مصطلحنا الحديث، وسبب هذا عمله واشتغاله بالكتابة، والكتاب تخبئهم الصورة وتستهيهم الصنعة ...)، إنه يقصد الصنعة التي تشمل الألفاظ مركبة مؤلفة متناسبة. هذه هي الصنعة المقصودة عند الجاحظ .

٣. وانظر: شوقي ضيف، النقد، مصر ١٩٦٤م / ص ٨٣. (ومن ذلك يقول: " اتجه العرب في نقدهم منذ أوائل العصر العباسي إلى العناية بفصاحة الألفاظ وبلاغة التراكيب، وخاصة البيئة الكلامية، إذ كان مدار الكلام عندها، كما يمثلها الجاحظ في كتاباته، على البراعة في القول ... فالوعاء الخارجي هو كل شئ في الأدب، ويغلو الجاحظ في هذا الاتجاه حتى لغاه يسقط المعاني جملة، يقول: " المعاني مطروحة في الطريق ... " .

٤ . وانظر: بدوى طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، القاهرة ١٩٦٥ / ص ١٦٧ - ١٦٩، ١٧٧ - ١٨٠، ٢٠٨ . ومن ذلك يقول: " من أوليات المسائل التي أثارها الجاحظ ذلك البحث الغريب الذي عالج به مشكلة اللفظ والمعنى، وقد أثاره للمرة الأولى في حياة التفكير الأدبي عند العرب . . . ولا تزال تلك المشكلة تشغل بال المعاصرين ممن نقاد الغرب، مع أن نقاد الأدب العربي قتلوها بحثاً في تلك العصور البعيدة بعد أن فطن الجاحظ للفكرة وأخذها عنه المتكلمون في أركان الأدب على اختلافاتهم في المنهج، وفي أسلوب النظر إلى الأدب، والاتجاه به اتجاه فنياً أو اتجاه عقلياً، فكانوا بين مؤيد للجاحظ في نظريته التي تقوم على أن اللفظ والإبداع في الصياغة الشأن الأول في تقدير القيمة الفنية للعمل الأدبي، ومعارض يذهب إلى عكس ما ذهب إليه الجاحظ، فيجعل المعنى كل شيء، ويحط من شأن الأسلوب . . . وذا هب مذهباً وسطاً يرى أن المعاني والألفاظ تتوأمان لا انفصال لأحدهما عن الآخر . . . فقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان أن أبا عمرو الشيباني كان يستحسن قول الشاعر . . . أما الجاحظ فإنه يرفضهما . . . لأن " المعاني مطروحة في الطريق . . . وهذا الرأي يدل على مذهب من المذاهب كان الجاحظ أول من نادى به في نقد الأدب العربي، ذلك هو مذهب الصناعة، والافتتان في الصياغة، وأن النظرة إلى الأدب ينبغي أن تكون إلى مقدار ما حوى من آثار الصناعة . . . ويقول: في ص ١٧٧ " هـ - إن مذهب الصناعة الذي اعتنقه الجاحظ ودعا إليه، وكان تشيعه للفظ مظهرها من أهم مظاهره، هو في حقيقته بحث في الوسائل التي يتفاضل بها الأدباء . . . ويقول فسي ص ١٧٨ " . . . وإذا كنا نوافق الجاحظ ومن لفائفه من النقاد على تقدير الأسلوب وأنه ميدان التفاوت، والسبب الذي تبني عليه المفاضلة بين الأدباء فإنه لا يسعنا إلا التنكر لزعمه أن " المعاني مطروحة في الطريق . . . فإن هذا من الشطط الذي لم يقده إليه إلا تعلقه بمذهب الصناعة هذا التعلق الذي أعماه عن تقدير المعنى . . . ويقول ص ٢٠٨ " . . . حقاً إن الجاحظ فتح باب القول في الألفاظ والمعاني، وتشجيع اللفظ، وآثره بوجوب العناية، وسين أن التفاضل بين الأدباء ميدان الصناعة . . . ولقد كان كلام الجاحظ في هذا، ودعوته إلى اللفظ، أو إلى البيان دعوة إلى مذهب جديد في تأليف الأدب وفسي نقده . ذلك هو (المذهب البياني) الذي يهدف إلى التأنيق في رسم الصورة الأدبية . . .)

٥ . وانظر: جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، بيروت - لبنان ٢٩٨٣م / ص ٢٥٥ (حيث يقول: " التصوير والتقديم الحسني:

- ١- طرح الجاحظ للفكرة : عندما قال الجاحظ: " المعاني مطروحة في الطريق ... " فقد كان يطرح - ربما لأول مرة في تاريخ النقد العربي - بعض الأفكار الهامة التي سيطرت على أجيال طويلة من البلاغيين والنقاد من بعده . "
٦. وانظر: محمد مصطفى هدار، مشكلة السرقات في النقد العربي، دراسة تحليلية مقارنة، بيروت، دمشق، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م / ص ٢٢٢ - ٢٢٣ (يقول: " ... وقد بدأ الجاحظ أول كلام في هذه القضية فأثر جانب اللفظ وذلك حين قرر أن " المعاني مطروحة في الطريق ... " وهكذا أسقط الجاحظ أمر المعاني، وأبى أن يجعل لها في الشعر مكاناً أو فضلاً ... أما الألفاظ فهي معروفة محصورة، ولذا أوجب الفضل لمن كان بارعاً في المحصور الضيق من الألفاظ لا في المبسوط الممتد من المعاني " ويظهر أن المؤلف يتناقض مع نفسه حيث يواصل الحديث: " وقد أساء بعض القدماء والمحدثين فهم ما ذهب إليه الجاحظ وظنوا أنه يفصل بين اللفظ والمعنى وأنه ينتصر لللفظ، والحقيقة أن الجاحظ - كما فهمه عبدالقادر بحق - ينتصر لفكرة النظم التي لا تفصل بين اللفظ والمعنى والتي تجعل الصياغة محك براعة الشاعر وعبقريته بغض النظر عن قدم المعنى وتردده من عصر لعصر. ")
٧. وانظر: داود سلوم، النقد العربي القديم بين الاستقرار والتأليف، بغداد ١٩٧٠م / ص ٢١٩، (من ذلك يقول: " ب- المعنى وعلاقته باللفظ: الجاحظ من المؤمنين بقيمة اللفظ وأهميته عند المفاضلة بين النصوص، لأن المعاني تقع في نفس كل إنسان ولكنهم يتفاضلون ويتفاوتون عند التعبير عنها قال: " المعاني مطروحة في الطريق ... " ومن أسباب سيله لتفضيل اللفظ على المعنى أن اللفظ يحفظ لصاحبه، وأن المعنى يمكن أن تتداوله الألسن وتتعاوده الأقلام دون المقدرة على مراقبته والحفاظ عليه أو تحديده سرقة بسهولة ... " .

متعلّكين بالتحليلات، والتفسيرات المختلفة، معتمدين على نصوص مبتسرة أوردت فيسي الحيوان والبيان والتبيين، توحى في ظاهرها بذلك، ضاربين صفحا عن كل ما سبق عرضه من النصوص التي تثبت أن الجاحظ، يرى أن اللفظ والمعنى يتساويان في الأهمية ويفترقان في الدور الذي يؤديه كل منهما، فإذا كان الفهم والإفهام، أو المعنى هو الغاية، فإن اللفظ هو الوسيلة التي تؤدي إلى هذه الغاية، فهما يوثران بعضهما في بعض ويكمل أحدهما الآخر، ولكن لا يعملوا أحدهما على الآخر.

وقد فات هؤلاء النقاد المحدثين، أن الجاحظ، شيخ مدرسة في الاعتزال، وأن المعتزلة، هم أصحاب المقولة "العقل قبل النقل". وأن القول بإهمال المعنى، ليتناقض مع خصائص هذا الفكر.

ولعلّ أبرز النصوص، التي يعتمد عليها هؤلاء المحدثون، قولهم: "... والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، والمدني وإنما الشأن في إقامته الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة الصخر، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، وإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير" (١).

لقد سبق، أن بين الجاحظ، الأهمية العظيمة للفظ، في نقل المعاني المؤثرة إلى نفوس الناس، فكون المعنى هو الغاية المؤثرة، لا يفض من قيمة اللفظ الذي بواسطته ينفذ المعنى إلى القلوب. فحين يركز الجاحظ تركيزا كبيرا على أهمية المعنى، وأن القضية الأولى التي من أجلها يوظف اللفظ، هي الفهم والإفهام، والتأثير في الناس فهو يركز في مقابل ذلك على أهمية اللفظ، وأثره في عملية التأثير هذه، ليبقى على ذلك التوازن بين اللفظ والمعنى. ومن ذلك مثلا قوله: "... لأن مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهم. وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد" (٢).

(١) الحيوان، ج ٣، ص ١٣١ - ١٣٢.

(٢) البيان والتبيين، ج ١، ص ١١.

وقوله : " . . . وان كان اللسان لا يبلغ من القلوب حيث يريد ، إلا بالبلاغة . " (١)

وإذا كان الجاحظ يصل من تأكيد أهمية المعنى والفهم إلى درجة القول : " . . . لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجرى القائل والسماع ، إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع " (٢) .

[والقول : " وبأي شيء تفاهم الناس فهو بيان ، إلا أن بعضه أحسن من بعض " (٣) وفي قوله : " إلا أن بعضه أحسن من بعض " ، دليل على أنه يرى اللفظ والمعنى لحمة واحدة ، لا فرق بينهما ، كما يتبين ذلك في مواطن عديدة سبق العرض لها . منها قوله : " وربت كلمة لا توضع إلا على معناها الذي جعلت حفظه ، وصارث هي حقّه والدالة عليه دون غيره . . . " (٤) ، وهو يعبر عن رأيه في معرض تفسيره لحديث العتّابي (٥) . من ذلك قوله : " وإنما عنى العتّابي افهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء " (٦) كما ينبري للدفاع عن البيان . . . ، فهذا هو الأسلوب الذي يتبعه الجاحظ ، وإن ينتصر للفظ تارة ، وللمعنى تارة أخرى ، فإذا جمعت النصوص بعضها إلى بعض ، نسراه يساوي فيما بينهما . ولعلّنا حين وجد نفسه ، قد أكثر من التركيز ، على قضية الفهم والإفهام ، وأنها الغاية الأولى من البيان - حيث أن لها ارتباطاً وثيقاً بالفكر المعتزلي ، وبالظروف التي دعت المعتزلة بشكل عام إلى تركيز اهتمامهم على المعنى ، لنشر آرائهم بين عامة الناس ، وخاصة أنفسه - يشير إلى هذه القضية ، وقد سبق العرض لها (٧) ، فقد خرج بهذه الفكرة ، التي تحافظ على ذلك التوازن بين اللفظ والمعنى .

- | | |
|-----|--|
| (١) | البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٤٠٨ |
| (٢) | نفسه ، ج ١ ، ص ٧٦ |
| (٣) | الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ |
| (٤) | رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٤٣ |
| (٥) | انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٦٢ - ١٦٣ |
| (٦) | البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٦٢ |
| (٧) | انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٩٠ وانظر البحث ص ٣٢ |

وقبل الولوج ، ففي هذه القضية ، لا بدّ من مراعاة أمرين :-

الأول : أن هذه الفكرة ، جاءت في معرض خبر الجاحظ مع أبي عمرو الشيباني . فقد ساء الجاحظ أن يستجيد أبو عمرو بيتين من الشعر ، لأنّه استحسن المعنى فيهما وحسب (١) . فيعلق قائلا : " وأنا أزعّم أنّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا . ولولا أن أدخل في الحكم بعض الفتك لزعمت أنّ ابنه لا يقول شعرا أبدا ، وهمّوا قوله :-

لَا تَحْسِبَنَّ الْمَوْتَ مَوْتَ الْبَلَسِ
فَإِنَّمَا الْمَوْتُ سُوءُ الْتَرْجَمِ
كِلَاهُمَا مَوْتُ وَلَكِنَّ ذَا

أَفْطَحُ مِنْ ذَاكَ لِسُوءِ السُّؤَالِ

وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى ، والمعاني مطروحة في الطريق (٢) .

وإذا كان الجاحظ ، يؤكّد غير مرّة ، أنّ مدار الأمر على الفهم والإفهام وأن الغاية التي إليها يجرى هي التأثير في النفوس ، فهو يؤكّد غير مرّة كذلك ، أن الوسيلة هي اللفظ ، مبيّنا أثره وخطره . فلا يجوز أن تكون الغلبة للمعنى دون اللفظ ، كما حصل مع الشيخ أبي عمرو الشيباني حين استحسن البيتين المذكورين ، لما يحملان من معننى ، مستهينا بالشكل أو اللفظ .

والأمر الثاني : أن الجاحظ ، في هذا الموضع ، يتحدث عن الشعر ، حيث يقول :
" . . . فَإِنَّمَا الشَّعْرُ صَنَاعَةٌ ، وَضَرْبٌ مِنَ النَّسْجِ ، وَجَنَسٌ مِنَ التَّصْوِيمِ . "

وقد قيل للخليل بن أحمد : ما لك لا تقول الشعر ؟ قال : " الذي يجيئني لا أَرْضَاهُ ، والذي أَرْضَاهُ لا يجيئني " .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

(٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

فأنا أستحسن هذا الكلام ، كما أستحسن جواب الأعرابي حين قيل له : كيف تجدك؟ قال : (أجدني) أجد ما لا أشتهي ، وأشتهي ما لا أجد . (١) .

فالشعر صناعة ، أو فن ، يرتقي فيه الشاعر بلفظه ومعناه . ويعنى بالشكل عنايته بالضمون ، فإذا كان اللفظ الكريم ، والبيان الحسن ، من شروط الصناعة الأدبية النثرية ، بجميع دروسها ، كالخطب ، والرسائل ، والتأليف المختلفة . . . فما بالناس بالشعر ، الساذج يلعب فيه اللفظ ، دوراً كبيراً في رقي القصيدة أو انحطاطها . والدليل على أن الجاحظ يقصد الشعر ، قوله : " وإنما الشأن في إقامة الوزن " (٢) ، وإقامة الوزن خاص بالشعر .

والشاعر ، يتفنن في الصناعة الشعرية ، فينصب جهده على " إقامة الوزن ، وتخيير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء " وعلى " صحة الطبع وجودة السبك " . بالإضافة إلى اهتمامه بالمعنى ، وقول الجاحظ : " وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى ، لا يعني أن المعنى لا قيمة له ، بل على العكس من ذلك ، فهو يرى أنه ينبغي على الأديب بخاصة ، والفنان بعامة ، أن يهتم بالمحورين معاً : المحور المعنوي ، والمحور اللفظي ، لكي يتوازن العملية الفنية وبالذات الصناعة الشعرية .

لذلك ، فمن الطبيعي ، أن يركّز ، في هذا الموضع ، على الناحية الشكلية التي تشمل اللفظ ، والوزن ، والمخرج السهل ، والموهبة ، والسبك الجيد . . . وإلا انتفتت عن الشعر ، صفته الفنية ، واختلّ الميزان الشعري ، فتنحصر القصيدة ، إلى محاولة شعرية هزيلة ! .

ومن هنا ، يذهب إلى أن : " المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي ، والعربي ، والبدوي والقروي ، والمدني " ، فالناس جميعاً ، على اختلاف أجناسهم

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٣٢ .

(٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

ومستوياتهم الاجتماعية ، والفكرية ، يمتلكون بشتى الأفكار ، والمشاعر والمعاني ولكن التعبير الفني عن هذه الفكر والمشاعر والمعاني ، لا يتأتى ، إلا لمن يمتلك الموهبة ، ذلك الفنان الحاذق ، الذي يعرف كيفية استخدام أدواته الفنية ، وتسخير معرفته ، وإلا لأصبح الناس جميعهم ، في شتى البلدان ، فنانيين وشعراء . هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى ، وإذا كان اللفظ ، هو الوسيلة المعبرة عن المعنى ، فحين يدعو الجاحظ إلى الاهتمام باللفظ ، وتخييره ، واللفظ مسخر لخدمة المعنى ، فكأنه يدعو إلى الاهتمام بالمعنى وتخييره ، بالضرورة . لأن الظاهر يكمل الباطن .

ولعلنا ، يذهب إلى تحليل مقولته : . . . والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والمريي والبدوي والقروي ، والمدني . . . بقوله في موضع آخر : " ثم اعلم - حفظك الله - أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة : (١)

(فالنفس ، تعتمر بالمعاني ، التي لا نهاية لها ولا حد ، أما الألفاظ ، فمعدودة محدودة ، ومن هنا اكتسبت أهميتها ، لأنه لا فائدة للمعنى إذا بقي في النفس ، بعيدا غامضا ، دون لفظ دقيق ، يخرج به إلى الوجود ، ويجليه للأسماع ، ويمنحه الحياة .

ومجمل القول في هذه القضية ، إن الجاحظ ، لم يزل في انسجام منطقي ، حين انطلق لسانه بالمقولة المشهورة : . . . والمعاني مطروحة في الطريق . . . فلم يناقض نفسه ، ولم يتخل عن فكرة ضرورة المساواة بين اللفظ والمعنى . بل يرى أن اللفظ متصل بالمعنى ومتزج به ، كاتصال المادة بالشكل . فلا يمكن أن يفصل الشكل عن المادة ، أو المادة عن الشكل .

٣: لكل مقام مقال :-

وينتقل الجاحظ، إلى الحديث عن قضية مهمة، في النقد الأدبي، ليرد على
الأسماع، المقولة المشهورة " لكل مقام مقال " فيسمعُ صدى تردادها على كل لسان، وحتى
وقتنا الحاضر .

ولقد سبقت الإشارة إلى هذه المقولة، غير مرة، في قضية اللفظ والمعنى (١). ويستمر
الجاحظ في تأكيد هذه النظرية، التي تتحكم بالفهم والإفهام، وتحكم اللفظ والمعنى،
لأن اللفظ إذا جاء في غير محله، ينقلب عن مقصده، ويستحيل سخيفاً أو مضحكاً أو بطلاً
معنى ولذلك يقول: "... إن لكل نوع من العلم أهلاً يقصده ويؤثرونه، وأصناف العلم
لا تحصى، منها الجزل ومنها السخيف. وإذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومطسه،
وداخل في باب حدّ المزح، فأبدلت السخافة بالجزالة انقلب عن جهته، وصار الحديث
الذي وضع على أن يسر النفوس يكرها ويفهمها " (٢).

ولذلك اتصال وثيق، بقوله إن اللفظ مهما سخف فإنه يجد المقام الذي يؤتاه
ويناسبه، إذ لا يوجد في الأرض لفظ، إلا وله معنى، ولا يوجد معنى، إلا وله مقامه المناسب
له (٣). ولذلك لا ينبغي أن تستخدم الألفاظ الجادة الجزلة في مواضع الهزل والفكاهة
والتندر، ولا يجوز أن تستخدم الألفاظ المبتذلة والمعاني السخيفة في مواضع الجد حيث
مراعاة المتلقي، من مراعاة المقام، وبالتالي تتم عملية الفهم والإفهام بكل قوتها ويعطى
اللفظ دوره في هذه العملية، ويتم التأثير بالشكل المطلوب، حيث يكون " الإفصاح فسيحي
موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال " (٤).

ومناسبة المقام هذا، لا يقف عند حدود فن القول، وإنما يتعداه إلى الانفعالات
المختلفة، والتصرفات المتباينة كالضحك والبكاء، وكالعفو والعقاب

- (١) انظر، الحيوان، ج ٣، ص ٤٣، وانظر، رسائل الجاحظ، ج ٢، ص ٩٣ .
وانظر، الحيوان، ج ٢، ص ٣٦٩ .
- (٢) رسائل الجاحظ، ج ٢، ص ٩١، ص ١١٩ .
- (٣) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٤٥ .
- (٤) الحيوان، ج ٣، ص ٣٩ .

ومقامات الناس تختلف ، باختلاف أوضاعهم وأحوالهم في جميع مناحي الحياة ، ولذلك تختلف مقامات فن القول ، بحسب تقلب الناس وأمزجتهم ، حيث من المحال أن يكونوا دمثين دائماً ، جادّين أبداً . . . ومن هنا ولدت هذه النظرية الأدبية المهمة التي تدعو إلى مناسبة الأقوال للأحوال . يقول الجاحظ في معرض تهكمه من أحمد بن عبد الوهاب ، في رسالته " الترييح والتدوير " : " وأما ذكرى القَدِّ والخَرَطِ والطُّولِ والعَرَضِ ، وما بيننا وبينك في ذلك من التنازع والتشاجر والتناكر ، فإنَّ الكلام قد يكون في لفظ الجسد وهو مسزاج .

ولو استعمل الناس الدِّمَاءَ في كل حال ، والجَدَّ في كل مقال وتركوا التَّسْمِيحَ والتَّسْهِيلَ وعَقَدُوا في كل دقيق وجليل ، لكان الشرّ صراحاً خيراً لهم ، والباطل محضاً أرَدَ عليهم . ولكن لكل شيء قدر ، ولكلِّ حال شكل ، فالضحك في موضعه كالبكاء فـي موضعه ، والتبسُّم في موضعه كالقطوب في موضعه ، وكذلك المنع والبذل ، والعقاب والعفو ، وجميع القبض والبسط " (١) .

وفي هذا النص ، يـشـير إلى تلوّن الكلام ، إذ قد تكون ألفاظه جـادّة ، ويقصد بها ، في الحقيقة المزاح ، مثلما يستمدّ النقد الجاد ، من ألفاظ النوادر الهزلية . ولا يجد الجاحظ حاجة إلى تفسير هذا الأسلوب ، حيث إن رسالته هذه كلها ، تسير على هذه السبيل ، من النادرة المختبئة في إزار الجد . ومن خلال هذا الأسلوب يبرز براعته وقدرته في هذا المضمـار .

فالتفسير إذن ، ضرورة ملحة من ضرورات الحياة ، إذا لا يبقى الإنسان على حال . فكما تتقلب به الأيام ، تتقلب أحواله وتختلف مقاماته ، وبالتالي تكون ردّة فعله . فإن كسان سعيدا ضحك ، وإن كان حزينا بكى . . . فإذا ضحك في غير موضع الضحك ، أو بكى في غير مقام البكاء اختل الميزان . . . وكذلك الأمر بالنسبة للأسلوب الأدبي ، حيث لا بد

(١) رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٧٩ - ٨٠ .

من التنزيح ، ليتنقل الكاتب ما بين الأسلوب الجاد ، والهزلي . . . ولكلِّ مقداره وحالسه وموضعه ، دون أن تختلط هذه الأساليب ، فيأخذ الهزل موضع الجد ، أو يحل الجسد محل الهزل

ولعلَّ هذا ، هو الأسلوب الذي يراه الجاحظ مناسباً ، فيتبعه في كافة مؤلفاته .
ولذلك ، يذكر أن محمد بن عباد بن كاسب ، أنشد " بيتاً له في صفة خطباء ايسار :-

يَرْمُونَ بِالْخُطْبِ الطَّوَالِ وَتَمَارَةً
وَحَسْبِ الْمَلَا حِظِّ خَيْفَةِ الرَّقَبَاءِ " (١)

ويعلق قائلا : " فذكر المبسوط في موضعه ، والمحدوث في موضعه ، والموجز والكناية والوحي باللحظ ودلالة الإشارة " (٢) وكلَّ شيء في موضعه محمود ، وفي غير موضعه مذموم . ومقولة " لكل مقام مقال " إنما هي دلالة على شدة محاسبة المرء لنفسه ، وحرصه على دينه ، وشغفته على أدبه وفنه من التسخف ، إذا وضعت ألفاظه ومعانيه في غير محلها ، وموقعها (٣) .

وكانه يطلب من الدارس ، للأدب والتاريخ . . . أن يراعي ظروف العصر الذي يلج فيه ، دونما أي اقحام خارجي . فلكل " مقام مقال ولكل زمان رجال " (٤) . كما يشير إلى أن لكل علم رواده وعلماءه ، فلا يجوز للمرء أن يخوض فيما لا يعرف . ويلاحظ في هذا المقام نظرة الجاحظ الاجتماعية العميقة ، في إدراكه التوافق بين أنواع المعارف ، وأنواع المهن ، والقائمين بها . فلكل مهنة معلمها ، ولكل معرفة عالمها " ولكل ساقطة لاقطة ، ولكسل طعام أكله " (٥) .

-
- (١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٤٤ .
 - (٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٤٤ .
 - (٣) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٠١ .
 - (٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠١ .
 - (٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

] وبعد ، فأننا نرى الجاحظ ، لا يزال في انسجام مع نفسه ، فإذا كان ينادي بمساواة اللفظ لمعناه ، وإعطاء كل منهما حقه ، ومضروبة الوصول إلى الغاية الأولى من البيان ، وهي الفهم والإفهام ، ويكون ذلك باختيار اللفظ الدقيق ، والمعنى الواضح الصريح ، والبعد عن التكلف والصنع ، والمحوشي من الكلام ، والسوقي منه فإنه يستكمل نظريته النقدية في مقولته المشهورة : " لكل مقام مقال " وذلك حتى يستقيم الكلام ، ويستمر رونقه الفني ، وتألقه الأدبي ، من وضعه في المكان والزمان المناسبين .

٢ . أساليب التعبير ووسائل البيان عند الجاحظ

أ - الإيجاز :-

من المعروف ، أن الإيجاز ، إحدى وسائل التعبير البلاغي والبياني عند العرب ، ولقد أثرته الشعوب على اختلاف لغاتها وألسنتها ، فأجمعت على " حمد الاختصار ، وذم الإكثار والتطويل والتكرار ، وكل ما نُضِلَّ عن المقدار " ولذلك كان الإيجاز صفة بارزة ، من صفات بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ " لا فضل ولا تقصير " (١) . فالإيجاز ، يتشمل في مطابقة اللفظ لمعناه ، دونما فضول أو نقصان .

وعن إيجازه صلى الله عليه وسلم ، يقول الجاحظ : " وأنا ذاكر بعد هذا فنا من كلامه صلى الله عليه وسلم ، وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه . . . وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام ، وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . . . بل يبدؤ الخُطْبَ الطَّوَال بِالْكَلِمِ الْقَصَار . . . ولا يُسْتَهَب ولا يُحْصَر . . . " (٢) .

ولذلك ينبغي أن يحتذي الأرباب والكتاب ، حذو الرسول صلى الله عليه وسلم في قلة الألفاظ من حيث العدد ، مع كثرة معانيها ، والابتعاد عما من شأنه ، أن يضطر الكاتب إلى الإعادة والتكرار ، مثل الغموض والتعقُّر في اللفظ ، هذا مع الحرص على عدم الإسهاب . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَأُعْطِيتُ جَوَامِيعَ الْكَلِمِ " (٣) .

ولكي يدلل الجاحظ على بلاغة الرسول ، التي تتميز بالإيجاز يقول : " وقال صلى الله عليه وسلم : " المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسمن بذمتهم أدناهم ، ويرت عليهم أقصاهم ، وهم يدُّ على من سواهم " .

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٥١ .

(٢) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ١٦ - ١٧ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

ومن أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، في هذا المجال ، ينتقل إلى عرض المجموعة من الأقوال التي تتميز بالقول الموجز ، والشامل في الوقت نفسه (٢) . ومن ذلك يقول : " وقال عليّ رحمه الله : " قيمة كل امرئ ما يحسن " ، فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية ، ومجزئة مفنية ، بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية ، وغير مقصرة عن الفاية . وأحسن الكلام ما كان قليلا يفنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه " (٣) .

وهنا، يشير إلى أن الأصل المعنوي للألفاظ، هو الأصل المادي، أو أن أصل مجاز الكلام، هو الأصل الحقيقي. ويبين كيفية انتقال اللفظ، من الحقيقة إلى المجاز.

يذكر الجاحظ ، في رسالته ، الموسومة " بالبلاغة والإيجاز " التي أشبث عبد السلام هارون ، فصلا من صدرها (٥) . أن العرب والعجم قد آثروا الإيجاز والاختصار ، دون التكرار والتطويل (٦) . . . وفي ذلك يقول في موضع آخر : " ومما مدحوا به الإيجاز والكلام الذي هو كالوحي والاشارة ، قول أبي ذؤان بن حريز الأيادي : -

(۶) انظر، نفسہ { ج، ص ۱۵۱ .

يُرْمُونُ بِالْخُطْبِ الطَّوَالِ وَتَمَارَةٍ
وَحَيِّ الْمَلَا حِظْ خَيْفَةَ الرِّقْبَاءِ

فمدح كما ترى الإطالة في موضعها ، والحذف في موضعه * (١) .

ومن الملاحظ ، في هذا النص ، أن أفكار الجاحظ تتسلسل متتابعة ، فهو حين يأتي بيت الشعر المذكور "يرمون بالخطب الطوال . . ." إنما يأتي به ، ليكون دليلاً على إثارة العرب للإيجاز ، ثم حين استشهد به ، وجد أنه يدل كذلك على أن الإطالة محمودة كذلك ، ليستنتج . أن كلا من الإيجاز ، والإطناب محمود ، حين يكون كل منهما في مقامه ومكانه المناسبين ، أيؤكد بالتالي الفكرة ، التي انطلق لسانه بترديدها ، وهي " لكل مقام مقال " .

ومن ذلك يقول : " وما يدل على شغفهم وكلفهم ، وشدة حبهم للفهم والإفهام ، قول الأسدي (٢) صفة كلام رجل نعت له موضعاً من تلك السباسب التي لا أمانة فيها ، بأقل اللفظ وأوجزه ، فوصف إيجاز الناعت ، وسرعة فهم المنعوت له فقال :-

بِضَرْبَةٍ نَعْتٍ لَمْ تُعَدَّ غَيْرَ أَتْنَسِي
عَقُولُ لَأَوْصَاتِ الرِّجَالِ ذَكَوْرُهُمَا

وهذا كقولهم لابن عباس : أتى لك هذا العلم ؟ قال : " قلب عَقُول " ، وليس من سوء قول

وهنا ، يعود الجاحظ مرة أخرى ، لتأكيد أهمية قضية الفهم والإفهام ، باعتبارهما المحور الأساسي ، الذي يدور حوله البيان ، إذ أن هذا الإيجاز الذي يقصده " ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز ، وكذلك الإطالة ، وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سبباً

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

لإغلاقه ولا يردّ وهو يكتفي في الإفهام بشطره فما فضل عن المقسّدار فهو الخطل * (١) .

فليس مدار الأمر إن ، على عدد الألفاظ ، وإنما أن يؤدى المعنى ، و إنما زيادة أو نقصان ، كي لا يستفلق الفهم على المتلقي . إذ قد يملأ الكاتب صحيفة بأكملها ، ويعتبر موجزا . فالأصل إن ، هو أداء المعنى ، والإفهام باللفظ الدقيق المعبر عن معناه .

ففي خبر معاوية بن أبي سفيان ، حين سأل صحارا العبدى عن الإيجاز فأجاب صحار: " أن تجيب فلا تبطي " ، وتقول فلا تخطي " . فسأله معاوية : " أو كذلك تقول ؟ " وأجاب صحار: " أ قلني يا أمير المؤمنين إلا تخطي ولا تبطي " * (٢) .

فحين يطرق قول صحار " لا تخطي ولا تبطي " سمع المتلقي ، لا يعرف للوهلة الأولى أن " لا تخطي " إنما تعني لا تخطي في القول ، وأن " لا تبطي " أى : لا تبطي في الإجابة * (٣) .

ولعلّ هذا من الإيجاز ، الذي قد يخفى فهمه على السامع . ولهذا يضع الجاحظ القاريء بعين الاعتبار ، حين يؤثر الإيجاز ، وذلك لأن الأساس في البيان هو التأشير في الناس ، عن طريق إفهامهم . ولذا لا ينبغي أن يطيل القائل ، في كلامه ، حتى ولو حسن كله ، لأنّ للسامع قدرة معينة ، للاحتمال فإذا جازها المتكلم ، داخل المستمع السام والمكلم ، وذهبت الغاية من كلامه وهي " انتفاع المستمع " * (٤) .

بل إن إيشيساره ، للإيجاز ، ويفضله للإسهاب ، يبلغ به حدّا أنه يقول : " ولأن ينقص الكتاب عن مقدار الحاجة أحبّ إليّ من أن يفضل عن مقدار القوة ، لأنّ الملالة تبتّض (في) الجميع ، وترهّد في الكل " * (٥) .

- (١) الحيوان ، ج ١ ، ص ٩١ ، وانظر ، د . يوسف حسين بكار ، بناء القصيدة في النقد العربي القديم ، (في ضوء النقد الحديث) ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م / ص ٢٤٠ .
- (٢) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٩٠ - ٩١ .
- (٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٩١ .
- (٤) رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .
- (٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

كل ذلك ، لأنه ينطلق من إيمانه الراسخ ، بأن وظيفة الكاتب هي إفهام القساري ومنفعته ، لذا ينبغي أن لا يفضل الكلام عن مقدار قُدرة السامع كي لا تسرع السأمة والعلل إليه ، فيعرض عن قراءة الكتاب كله .

وليس الأمر كذلك ، حين تستدعي الحاجة إطناباً ، فعندئذ تكون الإطالة زيادة في الإفهام والشرح والإفادة . هذا والكتابة ، صناعة مرنة ، حيث " أن المطول يُقصر ، والمختصر يُختصر ، والمطوي ينشر ، والأصول تتفرع . . . " . والمقام في ذلك كله ، هو سيّد الموقف ، وهو الذي يحدّد الإطناب أو الإيجاز في الكلام . فأما الإطناب " فللشرح والإفهام " وأما الإيجاز " فليختصر حمله " (١) .

غير أنه يفضل الإيجاز ، بشكل عام ، لكونه أسهل ، ولأن القادر على " الكثير " ، فهو لا شك ، قادر أيضاً على " القليل " . وهذا هو الاتجاه العام في هذه القضية ، ولو أن هنالك مواقف تتطلب الإيجاز تارة أو الإطناب . وتحديد هذا الأمر يرجع إلى المفتن نفسه ، وتقديره للموقف " ولكل مذهب وجهه عند العاقل . ولكل مكان مقال ، ولكل كلام جواب " (٢) . فيعود هنا ، لتأكيد فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، أو " لكل مقام مقال " ، باعتبارها قضية مهمة ، في عملية الفهم والإفهام . لأن الكاتب بذلك ، يتحرى الدقة في كلامه ، مراعيًا المقام الذي يتحدث فيه ، ليضع اللفظ بحيث يناسب معناه ، وبالتالي مقامه ومكانه المناسبين ، ليحقق هذه الغاية من الفهم والإفهام .

ولعل السليقة اللغوية ، والأسلوب السهل الطبيعي ، الخالي من التكلّات ، يحول دون الإطناب في غير محله ، وذلك لأن الكلام المفهوم المؤدي للمعنى بدقّة ، لا يحتاج إلى طويل شرح ، في محاولة للإفهام ، تدعو إلى الملاحة ، ولا طائلة منها ، لأنها تدفع القاري إلى الزهد في الكتاب كله ، كما سبق وأشير (٣) . ولذلك " ليس ينبغي للعاقل

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

(٣) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

أن يَسُومَ اللُّغَاتِ ما ليس في طاقتها ، ويسوم النفوس ما ليس في جِبِلَّتِها * ، فكتاب المنطق مثلا ، يحتاج إلى تفسير وشرح ، يدعوان إلى الإطالة . وما أن طبيعة النفوس ، تميل إلى السَّما قَصْرُ وأوجز ، فانها تستثقل ما طال وكثر من الكلام ، حتى ولو كان غاية في الإفادة ، ومدة عالة إلى الانتفاع (١) .

وفي معرض تعقيب الجاحظ ، على قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " إنا معشر الأنبياء بكاء " (٢) ، وقول البعض " البك : القلة " . وأصل ذلك من اللبَن (٣) . فقد جعل صفة الأنبياء قلة الكلام ، ولم يجعله من إيثارة الصمت ومن التحصيل وقلة الفضول * (٤) .

يعقب قائلا : " قلنا " : ليس في ظاهر هذا الكلام دليل على أن القلة من عجز في الخلقة ، وقد يحتمل ظاهر الكلام الوجهين جميعا ، وقد يكون القليل من اللفظ يأتي على الكثير من المعاني * (٥) .

ويرى أن القلة المقصودة ، تحتل أمرين :-

الأول : الإيجاز ، الذي يدل على سعة المعرفة ، وسلامة في الأسلوب بعيدا عن التكلف والتصنع ، وترويض العقل والقلم حتى يصبح الإيجاز عادة من عادات الأديب ، وسمة من سمات أسلوبه .

والثاني : فإنه يدل على " العجز ونقصان الآلة ، وقلة الخواطر ، وسوء الاهتداء " إلى جياذ المعاني ، والجهل بمحاسن الألفاظ * (٦) .

- (١) انظر الحيوان ، ج ٦ ، ص ٨ - ٩ .
- (٢) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٢٧ .
- (٣) وفي الحديث : إنا معشر النبا بكاء . وفي رواية : نحن معشر الأنبياء فينا بكاء وبكاء . أي قلة كلام إلا فيما نحتاج إليه . بكوات الناقة : إذا قل لبئها لسان العرب (بكاء) .
- (٤) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٢٧ .
- (٥) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٧ .
- (٦) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

وهذا "البُكَّةُ" المقصود في الحديث المذكور ، هو ذاك الذي ينبيء عن العلم والمعرفة ، وعمق التفكير ، لا عن العجز . والدليل على ذلك أن الله قد فكَّ العقدة من لسان موسى عليه السلام ، ولو كانت هذه العقدة قد أصابت النبي صلى الله عليه وسلم ، استنادا إلى التفسير الثاني لكلمة "بكاء" في الحديث الذي يقصد به العجز - "فلما كانت تلك القلة من عجز ، كان النبي صلى الله عليه وسلم ، أحق بسألة أطمئنان تلك العقدة من موسى ، لأن العرب أشد فخرا ببيانها ، وطول أسئلتها ، وتصريحها كلامها ، وشدة اقتدارها . وعلى حسب ذلك كانت زرايتها على كل من قصر عن ذلك التمام ، ونقص من ذلك "الكمال" .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أطال في بعض خطبه ، فإن ذلك لم يكن لرغبة في الإطالة ، وإنما لأن كثرة المعاني ، ووجوه الكلام ، استدعت الإكثار من عدد الألفاظ ، دون أن يكون فيها زيادة على المعنى (١) . وهذا في حقيقته إيجاز ، حيث اللفظ يناسب مدناه ، ونما زيادة فتصبح "خطلا ثم ودونا نقصان فيستفلق على السامع . وليس مدار الأمر على قلة عدد الألفاظ أو كثرتها كما سبق تبيان ذلك (٢) .

ويستدرك الجاحظ ، فيقول: إنه لا مكان لمثل هذه المناقشة أصلا ، لأنه صلى الله عليه وسلم ، لا يقف في موقف من يحتاج إلى الدفاع عنه ، فلا مجال لأن يجد أعداءه "طرفا" من عجز عنده ، وإلا لكانوا أشهروا ذلك العجز على الملأ ، ولتناقلوه في خطبهم وأشعارهم . ويعمل سببا انغماسه في لجة هذا الدفاع ، وهذه المغالطة التي تهدف إلى النيل من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول : "وإنما قلنا هذا لنحسم جميع وجوه الشغب" (٣) . هذا في حالة كون الحديث "إنما معشر الأنبياء بكاء" صحيحا ، لأنه يشكك في صحته حيث يقول : "هذا على أننا لا ندري أقال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لم يقله ، لأن مثل هذه الأخبار يحتاج فيها إلى الخبر المكشوف ، والحديث المعروف ، ولكننا بفضل الثقة ، وظهور الحجة ، نجيب بمثل هذا وشبهه" (٤) .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٢) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٩١ .

(٣) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٢٨ .

(٤) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٨ .

وهذا يدل على أن الجاحظ، يستند إلى القرآن الكريم، حيث يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية، وإلى ما ثبت وصح من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، بعد التثبت من صحتها والتأكد من روايتها. وذلك نتيجة للفكر المعتزلي الذي يقدر العقل حق قدره، ويدعو إلى البحث عن الحقيقة، والابتعاد عن تصديق كل ما يقال وخاصة، ما يوضع من الأحاديث على لسانه صلى الله عليه وسلم لأن في ذلك خطرا عظيما وجهلا كبيرا .

وفي ختام الحديث عن الإيجاز، يقول الجاحظ :

" ورب قليل يفني عن الكثير ، كما أن رب كثير لا يتعلق به صاحب القليل . بل رب كلمة تنوب عن خطبة ، وتنوب عن رسالة ، بل رب كناية تربي على افصاح ، ولحظ يدل على ضمير وإن كان ذلك الضمير بعيد الفاية ، قائما على النهاية " (١) .

(١) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٧ .

ب - الإطناب :-

﴿ وإذا كان الجاحظ ، يعرض للإيجاز ، ويتحدث عن أهميته ، ويحبذ ، فإنه يعرج للحديث عن الإطناب ، وفي مقابل ذلك ، ربما لأنه يرى كذلك أن " العرب تتوسع في كلامها . " (١) وأن هنالك مواضع تحتاج إلى الإسهاب والتطويل ، كالصلح بين العشائر ، وبيع الملوك " والإطالة موضع وليس ذلك بخطئ ، ولإقلال موضع وليس ذلك من عجز . " (٢)

فإنه لا يعني بالضرورة ، أنه يرفض الإطالة ، ويخسها حقها ، لأن الموقف هو الذي يحدّد أسلوب الكلام ، فأما إطالة ، وأما إيجاز . وكل شيء في موضعه محبذ وفي غير موضعه مرفوض . وذلك في تأكيد المقولة البلاغية " لكل مقام مقال " .

﴿ ولعلّه من خلال حديثه عن الإيجاز وماهيته ، يوضح ماهية الإطناب ، بطريق غير مباشر . فإذا كان الإيجاز هو ذاك الذي لا يؤدي إلى غموض ولا يستفلق على السامع ، فإن الإطناب ، هو ذاك الذي لا فضول فيه بحيث يدعو إلى الملالة ، التي تعرقل عملية الفهم والإفهام . ولذلك ، فهو يحدّر من الإطالة التي تتسم بفضول الكلام وزيادة عدد الألفاظ على معانيها ، فيقول : " وأما المذموم من المقال ، فما دعا إلى الملالة ، وجاوز المقدار ، واشتمل على الإكثار ، وخرج من مجرى العادة . " (٣)

ولكي لا يبتعد القارئ عن الكتاب بأكمله ، والموضوع بمجمله ، ينبغي للأديب أن يسلك به الأسلوب الشائق الموجز ، لا المطول الممل ، كي تتم بنجاح ، الفاية الأساسية من البيان والبلاغة ، وهي الفهم والإفهام .

-
- (١) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٨٢ .
 - (٢) أنظر نفسه ، ج ١ ، ص ٩٢ - ٩٣ .
 - (٣) رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

ولا يزال الجاحظ، يجد الحاجة إلى توضيح أكثر، للإطالة المحمودة، التي يسيء بعض الكتاب والخطباء فهمها، فيلجأون إلى التطويل والإكثار، فيحدّدها بقوله: " وقد بقيت - أبقاك الله تعالى - أبواب توجب الإطالة، وتحوج إلى الإطناب. وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة، ووقف عند منتهى البقية ". (١)

وهنا يعود ثانية إلى تأكيد أهمية العلامة بين اللفظ ومعناه بطريق غير مباشر، وبضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ولعله في هذه الجملة الأخيرة التي يدعوا فيها الأديب إلى أن يحدّد هدفه فيما يكتب، وأن تكون ألفاظه ومعانيه مناسبة لهذا الهدف، وتلك " البقية "، فلا يتجاوزها لمجرد الإطالة، وزخرفة الالفاظ. بل يقف عند انتهائه من التعبير عما يصبو إليه .

وفي معرض الخبر، الذي يذكره أبو الحسن، عن إياس حين عيب بكثرة الكلام، وأجاب بقوله: "إن الزيادة من الخير خير" (٢) يملق الجاحظ قائلاً: " وليس كما قال، للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال واللال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء تعيينه ". (٣)

ولأن الغاية، هي الفهم والإفهام، نسأله أن يدعوا الأديب إلى مراعاة نشاط السامع وميوله، فيتجنب التطويل غير اللازم، حتى لا ييفت الملل والتثاقل في نفس مستمعه أو قارئه... ما دامت عملية الفهم والإفهام لا تحدث من جانب واحد، وإنما تكون نتيجة تفاعل الجانبين معاً: المتفهم والمتلقي .

والإطناب قضية مرنة لا يمكن تحديدها نظرياً، فهي أمر نسبي يعود تحديده إلى السامع الذي يقال فيه الكلام، وإلى المتلقي، وكذلك الأمر بالنسبة " للترداد "، وهو

(١) الحيوان، ج ٦، ص ٧ .

(٢) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ٩٩ .

(٣) نفسه، ج ١، ص ٩٩ .

أحدى وسائل الإطناب ، وقد جاء استعمالها في القرآن الكريم ، في مواضع كثيرة ، وذلك " لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم ، وأكثرهم غبي غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب . " (١)

فالآيات القرآنية تختلف ما بين الإيجاز والإطناب والترداد . . . بحسب المخاطب والمقام الذي نزلت من أجله الآية ، وكأن الجاحظ هنا ، يدعو الناس إلى أخذ العبرة ، والدرس ، من الأسلوب القرآني الرفيع ، الذي يتسم بالتنوع ، بحسب المكان والزمان ، والمخاطب ، لا سيما أن القرآن الكريم ، كتاب سماوي أنزل لإفهام الناس وإقناعهم من أجل هدايتهم . فكان الترداد أحد هذه الأساليب المتنوعة التي امتاز بها للتأثير في نفوس البشر . (٢)

ولعل الجاحظ ، استقى فكرته البيانية والبلاغية العامة ، من القرآن وأساليبه ، خاصة أنه كان في مرحلة محاولة التأثير في الناس ، لنشر الفكر المعتزلي . فكانت غايته الإفهام ، ومراعاة المقام وأحوال المستمعين . فلكل وسيلة من وسائل التعبير ، مجالها حيث :
" التقليل للتخفيف ، والتطويل للتعريف ، والتكرار للتوكيد ، والاكتثار للتشديد . " (٣)

(والترداد وسيلة من وسائل التشويق وال جذب ، ولذلك يستعان به في " أحاديث القصص والرقعة " (٤) وهو وسيلة من وسائل الإصلاح في الخطب الاجتماعية ، كما أنه وسيلة للترهيب والتخويف والمبالغة في ذلك . (٥) ولذلك يستعمل هذا الأسلوب فسي الخطب المختلفة ، بل يذهب الجاحظ إلى أفراد ، بابا خاصا في " ذكر ناس من البلفاء والخطباء والأهملين والفقهاء والأمراء من كان لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل . " (٦)

وخلاصة القول ، إن الإيجاز أبين في أساليب التعبير ، من الإطناب ، غير أن هنالك بعض المقامات والأحوال ، التي تتطلب إطنابا وتردادا في الكلام ، شريطة أن

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(٢) رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

(٣) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(٥) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٩٨ وما بعدها .

لا يزيد الكلام عن معانيه وحدود احتمال المستمعين ، كي لا يداخلهم السأم والملل ، فيتحول الكلام عن مقصده ، ويصير الى ضده . وهذا المبدأ لا يسري على فن القول وحسب بل على جميع مناحي الحياة . يقول : " وكل شيء أفرط في طبعه ، وتجاوز مقدار وسمه ، عاد إلى ضد طبعه ، فتحول البارد حاراً ، ويصير النافع ضاراً ، كالصندل البارد إن أفرط في حقه عاد حاراً مؤذياً ، (و) كالثلج يطفى ، قليله الحرارة وكثيره يحركها . وكذلك القرد لما فرط قبحه ، وتناهت سماجته استلج واستظرف .

والى هذا ذهب من عد الإكثار عيياً ، والإيجاز بلاغة . (١)

ولعل الجاحظ ، في هذا النص الشامل - على إيجازه - يضع نظرية عامة ، ليس في الأدب وحسب بل في الحياة والفكر والعلم كذلك . حيث الزائد يساوي الناقص . ويمكن الاستظراف في البشاعة والقبح . ومن الظاهر أنه اعتمد على التجربة والمعانيضة الشخصية ، في إطلاق هذه النظرية . حيث يذكر الأمثلة التي يراها المرء في حياته اليومية في ذلك العصر ، مثل حك الصندل البارد ، والثلج الذي يطفى الحرارة قليلاً ، ويزيد ها كثيره ، واستظراف الناس للقرد على بشاعته .

جـ - المجاز :-

يعتمد الجاحظ في حديثه عن المجاز اعتماداً كبيراً على الأمثلة المتنوعة ، لشرحه وتعريفه . لأن الأمثلة في بعض الأحيان تغني عن الشرح والتفصيل .

والمجاز في رأيه : * قد يكون إخلاص ظاهر لفظه على شيء ومعناه غيره . فلا يكون ذلك كذباً لمعرفة القائل بفهم المستمع عنه ، وهذا باب كثير ما يستعمله العرب .

يقول الرجل لامرأته : ألفت حبك على غاريك ، وهو يعني طلاقهم وليس هناك خيل ألقى على غارب .

ويقول : مالي في هذا الأمر ناقة ولا جمل : وليس ذلك يريد . و : لست منها فسي غير ولا نغير : وليس ذلك يريد . * (١)

(فالعجاز إذن وإن كان ظاهر لفظه على غير المقصد ، إلا أنه لا يعتبر كذباً ، لوجود القرينة التي يفهم السامع من خلالها المقصود الحقيقي . ولذلك اشتهر العرب بـمن القول (٢) ، حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد استخدم مجاز الكلام . في أحاديثه . من ذلك قوله : * نِعِمَّتِ الْعَمَّةُ لَكُمْ النُّخْلَةُ (خُلِقَتْ مِنْ فَضْلَةِ طِينَةِ آدَمَ) (٣) . فيعلق الجاحظ قائلاً : * وهذا الكلام صحيح المعنى ، لا يصيبه إلا من لا يعرف مجاز الكلام . * (٤)

ويختص الجاحظ ، الحديث عما يسمى بـ * مجاز الأكل * ، حيث ورد هذا النوع من المجاز في القرآن الكريم . فيضع عنوانين لهذا المجاز (٥) ، مستشهداً فيهما بما ينتقيه من الآيات القرآنية . من ذلك يقول : * فإن قلتم : فقد قال الله عز وجل في الكتاب : (الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتيانا بقُرْبان تأكله النار) (٦)

(١) - الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، العشانية ، تحقيق عبد السلام هارون ، مصر ، ١٣٧٤ هـ

(٢) - انظر ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣٢ .

(٣) - نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٢ .

(٤) - نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٢ .

(٥) - انظر ، نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٣ ، ٢٥٠ .

(٦) - آل عمران ، ١٨٣ .

علمنا أن الله عز وجل ، إنما كلمهم بلغتهم * (١) أي اللغة العربية ، والبيان العربي ما دامت الغاية الأولى والأخيرة ، هي الفهم والإفهام ، والبيان هو الوسيلة التي تؤدي إلى هذه الغاية على أحسن وجه ، والله تعالى ، حينما خاطب العرب إنما خاطبهم ببيانهم وطرائقهم في التعبير ، لإقناعهم والتأثير فيهم .

ويتابع استشهاداً بالآيات القرآنية ، فيقول : * وهو قول الله عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا) (٢) ، وقوله تعالى ، عز اسمه : (أَكَلُوا لَسُحْتٍ) (٣) ، وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنثى ، ولبسوا الحلل ، وركبوا الدواب ، ولم ينفقوا منها درهما واحداً في سبيل الأكل .

وقد قال الله عز وجل : (إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا) (٤) ، هذا مجاز آخر . * (٥)

وفي مجال مجاز أكل لحوم الناس ، يستشهد الجاحظ بالآية القرآنية : * (أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا) . (٦) * (٧)

فهذه الأمثلة القرآنية ، خير تفسير للمجاز ، وتوضيح لماهيته ، والعرب تفهم هذا المجاز ، وتعرف المقصود به ، ولذلك نزل القرآن بلغتهم وبيانهم .

ومن القرآن ، يعرج الجاحظ على الأشعار ، في معرض حديثه عن مجاز الأكل ، مبيناً مواضع المجاز في بعضها ، فمن ذلك مثلاً يعلق على قول أوس بن حجر : * وَقَدْ أَكَلْتُ أَظْفَارَهُ الصَّخْرُ ... * (٨) فيقول : * فجعل المنحت ، والتنقص أكلاً . * (٩)

(١) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٣ .

(٢) النساء ، ١٠٠ .

(٣) المائدة ، ٤٢ .

(٤) النساء ، ١٠٠ .

(٥) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٥ .

(٦) الحجرات ، ١٢ .

(٧) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٧ .

(٨) نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٤ ، وانظر ديوان أوس بن حجر ، تحقيق وشرح د . محمد يوسف

نجم ، بيروت ١٩٦٠ / ص ٨٧ .

(٩) نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٤ .

كما يعلق على قول خفاف بن ندبة: "فَإِنْ قَوْمِي لَمْ تَأْكُلْهُمْ الضُّبُعُ" (١) فيقول:
"والضُّبُعُ: السُّنَّةُ. فجعل تنقص الجذب، والأزمة، أكلا. (٢)

ويعلق على قول مرداس بن أدبينة: "وَأَدَّتِ الْأَرْضُ مِنِّي مِثْلَ مَا أَكَلْتُ" (٣) قائلا:
"وَأَكَلُ الْأَرْضِ لَمَّا صَارَ فِي بَطْنِهَا. إِحَالَتُهَا لَهُ إِلَى جَوْهَرِهَا. (٤) كما يستشهد
بغير هذه الأشعار، وتبيان المجاز فيها. (٥)

وفي معرض ذلك، يبين المقصود بالأكل من خلال الأوجه المتعددة. فعلى
سبيل المثال لا الحصر، يقول الجاحظ: "ويقولون في باب آخر: فلان يأكل الناس. وإن
لم يأكل من طعامهم شيئا. (٦)

وفي ختام استشهاده بالأشعار والأقوال المتنوعة هذه، يعلق قائلا: "فهذا
كله مختلف، وهو كله مجاز. (٧)

ثم ننتقل، من مجاز الأكل، إلى مجاز شبيه به، وهو "مجاز الذوق" كما يسميه،
وفيه يسير سيرته ذاتها التي سلكها في "مجاز الأكل" إذ يشرحه ويبيّنه
من خلال الأمثلة المتنوعة مع إيراد التعليقات الموجزة، هنا، وهناك. (٨)

فيبتدئ أمثله، بتعريف مجاز الذوق فيقول: "وهو قول الرجل إذا بالغ في
عقوبة عبده: ذق؛ وكيف ذقته؟ و: كيف وجدت طعمه؟ (٩)

-
- (١) الحيوان، ج ٥، ص ٢٤.
 - (٢) نفسه، ج ٥، ص ٢٤.
 - (٣) نفسه، ج ٥، ص ٢٥.
 - (٤) نفسه، ج ٥، ص ٢٥.
 - (٥) نفسه، ج ٥، ص ٢٥ - ٢٨.
 - (٦) نفسه، ج ٥، ص ٢٧.
 - (٧) نفسه، ج ٥، ص ٢٨.
 - (٨) نفسه، ج ٥، ص ٢٨.
 - (٩) نفسه، ج ٥، ص ٢٨ - ٣٤.
 - (١٠) نفسه، ج ٥، ص ٢٨.

ويعمد ذلك ، نرى الجاحظ ينتقل إلى التمثيل من القرآن الكريم فيورد قوله عز وجل :
 (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) (١) * (٢) وفق منهجه الذي يقوم على تقديم الأدلة
 والبراهين ، لتدعيم آرائه النقدية ، وبالتالي فإن هذه الأمثلة ، بمثابة الأساس ، الذي
 يستند إليه ، في نظرياته النقدية التي تقوم على النصوص المنتزعة من مختلف البيئات والعصور ،
 ولهذا فهو يعمد إلى انتقائها ، من القرآن والسنة ، والشعر والخطب ، والرسائل والأقوال
 . . . بل إنه قد يستعين بها لشرح وتفسير ما قد تعجز النظريات المجردة عن نقله ،
 في أوضح صورة إلى أذهان الناس ، وأليخرج هذه النظريات من حيز الجمود ، وإلى
 الحركة والمرونة التي تحبب الناس ، وتقربهم من البحث العلمي ، ليكون مفيداً مجدياً ،
 ولا قبح بين دفتي الكتاب دوننا فائدة . وقد تابع في ذلك منهجه في بحث " المجاز " .
 حيث يستشهد بالآيات القرآنية ، والأشعار والأقوال ، تشرحه وتبينه في أحسن صورة .
 فمن تعليقاته وشروحه ، كذلك ، يقول : * وأما قولهم : ما ذقت اليوم ذواقاً . فإنه
 يعني : ما أكلت اليوم طعاماً ، ولا شربت شراباً ، وإنما أراد القليل والكثير ، وأنه لم يذقه ،
 فضلاً عن غير ذلك .

وقال بعض طبقات الفقهاء ، ممن يشتهي أن يكون عند الناس متكلاً : ما ذقمت
 اليوم ذواقاً على وجه من الوجوه ، ولا على معنى من المعاني ، ولا على سبب من الأسباب
 ولا على جهة من الجهات ، ولا على لون من الألوان . وهذا من عجيب الكلام ! * (٣) .

ومن المجاز كذلك ، تعليقه ، على قول يزيد بن الصمق :

* وَإِنَّ اللَّهَ ذَاقَ حُلُومَ قَيْسٍ

فَلَمَّا ذَاقَ خَفَّتْهَا قَلَاهَا * (٤)

حيث يعلق قائلاً * فزعم أن الله ، عز وجل ، يـذوق * (٥) .

- (١) الدخان ، ٤٩ .
- (٢) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٨ .
- (٣) نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٩ .
- (٤) نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٠ .
- (٥) نفسه ، ج ٥ ، ص ٣١ .

وبذكر — أمثلة متعددة في هذا المجال (١) فمن ذلك تفسيره للكلمة "يطعمه" في قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي) (٢) فيقول : "يريد : لم يذق طعمه" (٣) فهو لا يطيل في شرحه ، وإنما يكتفي بتعليقات ، صغيرة ، وذلك لأن الأمثلة تفني عن الشرح ، ولأن الجاحظ ، يتوجه إلى عامة المثقفين ، فإنه لا يحتاج إلى شرح يكون أقرب إلى التعليم منه إلى التبیین . فمثلا في تفسيره لكلمة "يطعمه" في هذه الآية ، نجده يكتفي بهذا التعليق الصغير ، دون الحاجة إلى بيان السبب ، مثل قوله : وذلك لأن الماء يشرب ولا يطعم . ولهذا فإن هناك كلمة محذوفة وهي كلمة "لم يذق" أو مثل هذه التعليقات التي لا مبرر لها والتي تعتبر استهتارا بذكاء القاري .

كما أن هناك أنواعا من المجاز ، تساوي ما بين القلة والعدم ، فالمرأة قليلة الولد تشبه بالمعاقرة ، في قول عباس الرعللي :

"وَأُمُّكُمْ تُزْجِي التُّوَامَ لِبُعْلِهَا

وَأُمُّ أَخِيكُمْ كَرَّةُ الرَّحِمِ عَاقِرٌ" (٤)

حيث يعلق الجاحظ : "وزعم يونس أن أسلم بن زرقعة لما أنشد هذا البيت اغرورقت عيناه . وجعل عباس أمه عاقرا إذ كانت نزورا" (٥)

ومن الملاحظ أن — لا يؤكد الشيء إذا لم يثبت من صحته بأية وسيلة ، كالمعاينة الشخصية مثلا ، ولذلك يستعمل كلمة "زعم" .

ويوضح هذا النوع من المجاز ، في تعليقه على قول الغنوي مشبها هذه المرأة قليلة الإنجاب ، بالعدراء في قوله :

(١) انظر ، الحيوان ج ٥ ، ص ٣٢ .

(٢) البقرة ، ٢٤٩ .

(٣) الحيوان ج ٥ ، ص ٣٢ .

(٤) نفسه ج ٥ ، ص ٣١ .

(٥) نفسه ج ٥ ، ص ٣١ .

”وتحدّثوا ملائكتنا“

عذراء لا كهيل ولا مولى (١)

فيقول : ”جعلها إن قلّ ولدها كالعذراء التي لم تلد قط . فلما كانت كالعذراء جعلها عذراء .“ (٢)

كما يعرض الجاحظ ، للأسئلة التي تستعمل فيها ”النار“ على سبيل المجاز ، (٣) ويصدّرها بقوله : ”ويذكرون نارا أخرى ، وهي على طريق المثل لا على طريق الحقيقة ،“ (٤)

فمن الواضح أن كلمة ”المثل“ في هذا الموضع ، تعني ”المجاز“ ، حيث قابلها بكلمة ”الحقيقة“ التي هي عكس المجاز ، أو بمعنى آخر الأصل الذي تحوّل عنه المعنى إلى المجاز .

ولا يكتفي بالتعليلات الأدبية والمنطقية والفكرية ، وإنما يدخل التحليل العلمي ، في التحليل اللغوي ، حيث العلوم المختلفة تؤثر في بعضها بعضا ، وتتداخل فيما بينها ، لذا لا يجوز الفصل بين صنوف المعرفة المختلفة ، مما يبين نظرتة العامة الفكرية ، وهي الربط التام بين كل العناصر المختلفة ، في هذا الكون . حيث تشكل جميعها ، على اختلاف وظائفها وحدة واحدة . من ذلك يقول : في معرض حديثه عن ”الهوائي والمائي والأرضي“ (٥) حيث يعلق : وقولهم : الطائر هوائي ، والسماك مائي ، مجاز كلام . (٦)

وأما تحليله ، لهذه النظرية الفريية ، فينطلق من التحليل العلمي الذي رضي به عقله ومنطقه ، فيقول : ” وكل حيوان في الأرض فهو أرضي قبل أن يكون مائيا أو هوائيا ،

-
- (١) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣١ .
 - (٢) نفسه ، ج ٥ ، ص ٣١ .
 - (٣) نفسه ، ج ٥ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .
 - (٤) نفسه ، ج ٥ ، ص ١٣٣ .
 - (٥) نفسه ، ج ٦ ، ص ٤٠٥ .
 - (٦) نفسه ، ج ٦ ، ص ٤٠٥ .

لأن الطائر وإن طار في الهواء فإن طيرانه فيه كمباحة الإنسان في الماء ، وإنما ذلك على التكلف والحيلة . ومتى صار في الأرض ودلّ نفسه لم يجد بداً من الأرض (١) مشيراً بذلك إلى قانون الجاذبية الأرضية .

وحيث إن العلوم ، تكون في مجملها وعلى اختلافها وحدة واحدة لا تتجزأ ، كما سبق فإن طرائق التعبير اللغوي ، عند الأمم والشعوب ، يضبطها العامل الفكري . فمنها ما هو مقبول ، ومنها ما هو مرفوض . وفي لغة العرب ، فإن العقيدة الإسلامية ، هي الضابط لطرائقهم اللغوية في التعبير . فيتطرق الجاحظ إلى التعبيرات المكروهة وغير المستساغة عندهم : (٢) ويذكر من بعضها التعبيرات المجازية . (٣) مثل " طَلَعَ سُهَيْلٌ وَرَدَّ اللَّيْلُ " لأن " سهيلاً لم يأت بحر ولا يبرد قط " على رأي الحسن (الحسن البصري) فيخرجه الجاحظ ، على سبيل المجاز حيث يقول : " ولهذا الكلام مجاز ومذهب " ومن ذلك ، نسبة الخلق للسحابة ، لأنها تأتي بالمطر ، فكره ابن أنس هذا المذهب فيعلق الجاحظ : " وهذا كلام مجاز قائم " . ومن ذلك كراهة ابن عمر لمن يقول : " أسلمت في كذا وكذا " ، وذلك لأن الإسلام لا يجوز إلا لله وحده ، فيقول الجاحظ : " وهذا الكلام مجاز عند الناس سهل " . (٤)

وأما تعليقه لكراهة مثل هذه التعبيرات ، إنما يعود إلى قرب العصور الإسلامية الأولى ، من الجاهلية . " كأنهم من خوفهم عليهم العود في شيء من أمر الجاهلية ، احتاطوا من أمورهم ، فمنعواهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق " (٥) مما يدل على أن التعبيرات اللغوية والأدبية ، قابلة للتغير من حيث القبول والرفض ، وذلك بحسب الزمان والمكان . فإذا كانت التعبيرات المذكورة آنفاً ، مرفوضة في زمن الحسن ، وابن أنس ، وابن عمر فذلك لاقترب زمانهم من عصر الجاهلية وتعبيراته . فلما بعد بهم عصرهم

- (١) الحيوان ، ج ٦ ، ص ٤٠٥ .
- (٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٧ - ٣٤٣ .
- (٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٠ - ٣٤٣ .
- (٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤١ .
- (٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤١ .

عن الجاهلية ، لم يعد هناك داع لرفض مثل هذه التعبيرات . ولعل هذه المسألة لا تزال مطروحة إلى وقتنا هذا ، حيث تستعمل كلمة " الخلق " للدلالة على " الإبداع " ، فيرفضها البعض ، غير أنه لم يعد هناك منبر لمثل هذا الرفض ، لأن مجاز الكلمة فسي زماننا مفهوم ، ومعروف لدى الجميع . فمن المحال أن يخلط أحدهنا ، بين مفهوم " الخلق " بالمعنى الاصطلاحي ، أي خلق الله للإنسان ، وبين الخلق بالمعنى اللغوي ، والأدبي ، أي الإبداع الإنساني في شتى العلوم والمعارف . (١)

إن مفهوم الكلمة يتطور مع مرور العصور والعهود . فكلمة " الخلق " كانت فسي السابق ، تستعمل للسحابة المليئة بالمطر . ثم تغير مفهومها . في وقتنا الحالي ، للدلالة على الإبداع الإنساني . ولكن الرابطة بينهما تظل واحدة وهي العطاء والإفادة .

ويذكر الجاحظ تعبيرات أخرى مكروهة ، مثل " قول القائل : كنت في جنازة " فكره ذلك أبو العالية " وقال : قل تبعث جنازة " فيعلق الجاحظ : " كأنه ذهب إلى أنه عني أنه كان في جوفها ، وقال : قل تبعث جنازة . والناس لا يريدون هذا ، ومجاز هذا الكلام قائم . . . " (٢) فهذا التعبير ، سائد بين الناس ، ومجازه مفهوم لديهم وله مذهب عند هم .

غير أنه يأخذ على هذه الأمثلة ، في معظمها ، بعدم وجود تعليقات منطقية مقنعة ، تدعو إلى نبذها . حيث لا وجه لها سوى الكراهة وحسب . فيقول : " وقد كرهوا أشياء

(١) وللخلق معان متعددة ، يذكرها ابن منظور (- ٧١١ هـ) ، حيث يبدأ بالمعنى الاصطلاحي وهو " الله تعالى وتقدس الخالق والخالق . . . الأزهرى : ومن صفات الله تعالى الخالق والخالق ، ولا تجوز هذه الصفة بالآل واللام لغير الله عز وجل ، وهو الذي أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة . . . لينتقل إلى المعنى اللغوي فيتابع " والخلق في كلام العرب : ابتداء الشيء على مثال لم يسبق يرأيه . . . " لسان العرب (خلق) . وإن يمكن نسبة " الخلق " للإنسان بمعنى " الإبداع " ، لكن لا تجوز نسبة الصفة إليه مثل " الخالق " أو " الخلاق " تحريزا من تشبه الإنسان بالله تعالى .

(٢) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .

ما جاءت في الروايات لا تُعرف وجوهاها، فرأي أصحابنا : لا يكرهونها . ولا نستطيع الرد عليهم ، ولم نسمع لهم في ذلك أكثر من الكراهة . ولو كانوا يروون الأمور مع عللها وبرهاناتها خفت المؤنة ، ولكن أكثر الروايات مجردة ، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ، ودون الإخبار عن البرهان . وإن كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدة واحدة " (١) .

(١) فكراهة مثل هذه التعبيرات ليست مطلقة ، وإنما هي نسبية إما أن يأخذ بها المرء بعد اقتناعه أو لا يأخذ بها . وأما المعتزلة ، فلا يصدر عن حكمهم بكراهتها ، لعدم وجود الأدلة المقنعة . مثل كراهة ابن عباس لاستخدام الناس كلمة " الانصراف " للصلاة ، أي الفراغ منها ، وتحبيذه كلمتي " قضى " أو " فرغ " محتجاً بظلال المعاني الستة تفيدها كلمة " انصرف " في الآية الكريمة : (ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ) (٢) . فيعلق الجاحظ بأن هذه الكلمة ، قد درجت على ألسنة الناس ، وفي جميع المقامات ، ومختلف الأحوال كالانصراف من السوق مثلاً ، ويقال " انصرف الخليفة " ويقال " كنت في أول المنصرفين " . . . فهي ليست منبوذة بين الناس ، بل إنها مقبولة جداً ، ومستعملة كثيراً بينهم ، ولا يوجد تعليل مقنع لعدم استعمالها " ولو أخبرونا بعلة انتفعا بذلك " (٤) اللهم سوى ورود هذه الكلمة ، في الآية القرآنية المذكورة ، وفي موضع الذم . وهذا ليس سبباً كافياً لعدم استعمال هذه الكلمة . فإن هنالك ألفاظاً تحتل الوجهين جميعاً ، أي تقال على سبيل المدح تارة ، وعلى سبيل الذم تارة أخرى ، بحسب السياق والمقام . (

وبعد ، فإن الجاحظ ، يعتمد في هذا البحث على الأمثلة القرآنية والشعرية والأخبار . . . اعتماداً يكاد يكون كلياً ، في تفسيره للمجاز ، معلاً ذلك بطبيعة تعابير العرب ولغتهم ، فالسامع يفهم ضمناً ما يريد القائل ، عند استعماله للتعبير المجازي ، كما سبق وأشير . (٥) فلا حاجة لطول الشرح والتفسير ، مادامت الأمثلة قائمة ومفهومة . وفي ذلك خير شرح لهذا البحث ، وأحسن تفسير لأوجهه المختلفة .

(١) الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٣٩ .

(٢) انظر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤٢ .

(٣) التوبة ، ١٢٢ .

(٤) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٤٢ . (٥) انظر ، العثمانية ، ص ٢٣٠ .

والاستعارة، طريقة من طرائف العرب التعبيرية المجازية ، يسير فيها الجاحظ، سيرته في المجاز ، من حيث اعتماده على الأمثلة المختلفة المتنوعة لشرحها وتبيانها .

فالاستعارة ، حسب تعريفه هي " تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه " (١) ، وهذا التعريف ، على إيجازه ، وافٍ ، مبين للمعنى ، ودوناً لبس أو إشكال . حيث لا تقتصر الاستعارة على نقل التسمية من شيء إلى آخر جزافاً ، وإنما لا بد من وجود القرينة ، وهي أن يقوم المسمى مقام المسمى به ، أي إذا كان بينهما سبب ، أجاز استعارة اللفظ ، ونقل المعنى من طور الحقيقة إلى طور المجاز .

وزيادة في التوضيح ، ينتقي كعادته ، من الكنز التراثي ، ما يفيد ، في مجال الموضوع الذي هو بصدده ، من ذلك يقول معلقاً على قول الشاعر :-

يا دارُ قد غيَّرها بِلَاهِهَا
كَأَنَّمَا بَقَلَسِمَ مَحَاهَا
أَخْرَبَهَا عُمُرَانُ مَنْ بَنَاهَا
وَكُرُّ مَسَاهَا عَلَى مَفْنَاهَا (٢)
وَطَفِقَتْ (٣) سَحَابَةٌ تَفْشَاهَا
تَبْكِي عَلَى عِرَاضِهَا عَيْنَاهَا (٤)

- (١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٥٣ .
(٢) يقول الجاحظ مفسراً : " قوله : مساهها ، يعني مساءها . ومفناها : موضعها الذي أقيم فيه . والمفاني : المنازل التي كان بها أهلوها " . البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٥٣ .
(٣) يقول الجاحظ مفسراً : " وطفقت ، يعني ظلت " ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٣ .
(٤) نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

يقول : " قوله : أخبرها عمران من بناها ، يقول عمرها بالخراب . وأصل العمران مأخوذ من العمر ، وهو البقاء ، فإذا بقي الرجل في داره فقد عمرها . فيقول : إن مسدة بقاءه فيها أبليت منها ، لأن الأيام مؤثرة في الأشياء بالنقص والبلل ، فلما بقي الخراب فيها وقام مقام العمران في غيرها ، سمي بالعمران . وقال الشاعر :-

يَا عَجَلَ الرَّحْمَنُ بِالْعَذَابِ

لعامرات البيت بالخراب

يعني الفار ، يقول : هذا عمرانها ، كما يقول الرجل : " ما نرى من خيرك ورفدك ، إلا ما يبلغنا من خطبك علينا ، وفك في أعذارنا " (١) . وهنا يتطرق إلى الكلمة التي تفيد المعنى وضده ، سيراً على نظريته في أن الأشياء تنقلب إلى أضدادها إذا أفرطت في مقدارها (٢) . و " العمران " يفيد إشباع معنى البقاء إشباعاً تاماً . فتعاقب الأيام ، على المرء في هذه الدار ، أثرت عليها وأدت إلى خرابها . وهكذا انتقل المعنى من البقاء إلى الخراب ، أي إلى ضده .

وعلى قول الشاعر " تبكي على عراصها عيناها " يقول : " عيناها ها هنا للسحاب . وجعل المطربكاً من السحاب على طريق الاستعارة ، وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه . ويقال لكل جوة منفتحة ليس فيها بناء عرصة " (٣) .

وعلى قول النعمان بن توب - والظاهر أن الجاحظ يحيد شعر هذا الشاعر ، إذ يذكره غير مرة (٤) - يعلق على قوله : " أعانل إن يضح صدأي بقفرة " (٥) فيقول : " الصدى ها هنا ؛ طائر يخرج من هامة الميت إذا بلي ، فينعى إليه ضعف وليه وعجزه عن طلب طائلته ، وهذا كانت تقوله الجاهلية ، وهو هنا استعسار . أي إن أصبحت أنا " (٦) .

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) انظر رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٥٣ .

(٤) انظر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٤ ، ونفسه ، ج ١ ، ص ٣ .

(٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

(٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

فلا شك أن هذه الأمثلة ، مع تبيان الجاحظ لمواضع الاستعارة فيها ، تنفي بالفرض المطلوب ، وتبين المقصود بها ، ومفهومها عنه ، حيث أنه يستعمل لهذا الضرب من المجاز ، لفظاً آخر ، وهو " المثل " دون أن يذكر السبب الذي يدعوه ، إلى هذا الاختلاف في التسمية ، مع أنه تعرف عنه الدقة المتناهية ، في اختيار اللفظ ، وحرصه على أن يكون لفظه في مكانه ، معبراً عن معناه ، دونما زيادة أو نقصان . كما يعبر عن حرصه هذا فسي مبحث اللفظ والمعنى .

ومن الملاحظ ، أن لفظ " المثل " يستعمله أيضاً ، للمجاز بشكل عام (١) .

ولتوضيح قصده بالمثل ، يستعين بالأمثلة ، جرياً على عادته ، فيقول معلقاً على قول الأشهب بن رُميلة :-

" هم ساعدُ الدهر الذي يُتَّقَى به " (٢) .

يقول : " قوله : " هم ساعد الدهر " ، إنما هو مثل ، وهذا الذي تسميه الرواة البديع ، وقد قال الراعي :-

هَمْ كَاهِلُ الدَّهْرِ الَّذِي يُتَّقَى بِهِ

وَمِنْكَبُهُ إِنْ كَانَ لِلدَّهْرِ مِنْكَسِبُ (٣)

وقد جاء في الحديث : " موسى الله أحد ، وساعد الله أشد " (٤) .

ففي هذا النص ، يعتبر الجاحظ الاستعارة (المثل) فناً من فنون علم البديع حيث ينتقل بعد ذكر هذه الشواهد ، إلى الحديث عن البديع (٥) .

فإذا كانت الاستعارة في رأي الجاحظ تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه (٦) فقد استعار الأشهب بن رُميلة ، الساعد للدهر ، واستعار الراعي الكاهل والمنكب للدهر

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ١٣٣

(٢) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

(٣) وفي ديوان الراعي النعمري ، تحقيق رابنهرت فايفرت ، بيروت ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م / ص ١٤ ، ورد قوله :-

وَمِنْكَبُهُ الْمَرْجُو أَكْرَمُ مِنْكَسِبُ .

(٤) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

(٥) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٥٥ ، وما بعد هذا .

(٦) نفسه ، ج ١ ، ص ١٥٣ .

كذلك ، واستعار الرسول صلى الله عليه وسلم ، الموسى والساعد ، للدلالة على عقاب الله

غير أنه من الملاحظ عند النظر في الأمثلة جميعها ، سواء أكانت تلك التي يدلّل الجاحظ عليها بالاستعارة ، أو تلك التي يدلّل عليها بالمثل ، أنها تفتقر في أمر واحد ، وهو أن الأمثلة الأولى " الاستعارة " تتسم بالطابع الحسي ، فالعُمران والخراب ، والمطر والسحاب ، والبكاء كلها أمور مادية حسية .

أما الأمثلة الثانية " المثل " فإن المستعار فيها قد يتسم بالطابع الحسي كالساعد ، والكاهل ، والمنكب ، والموسى غير أن المستعار له يتسم بالطابع المعنوي ، كالدهر ، والله وطنين الذباب في " قول ابن ميادة :

ألا لا بُالي أن تُخْدِفَ خِدْفُ
ولسنا بُالي أن يطنَ ذُبَابُهَا " (١)

ويعلق قائلا : " فإنما جعل الذباب ها هنا مثلا ، وقد وضعه في (غير) موضع تحقير (له) و (موضع تصغير " (٢) .

فابن ميادة ، يريد إبراز شجاعته وصحبه ، فلا يبالون بقبيلة خندف وهزلتها ، كما يبالون برجالها ومحاربيها ، لأن : شأنهم عند الشاعر ، هيّن كهوان " طنين الذباب " . وهذه الصورة من الهوفا ، مجردة وغير محسوسة .

كما يعتبر الجاحظ شعر النابغة في الحية (٣) ، " مثلا " حيث يقول : " وقد يستقيم أن يكون شعر النابغة في الحية ، وفي القنيل صاحب القبر ، وفي أخيه المصالح للحية أن يكون إنما جعل ذلك مثلا فأما جميع ما ذكرناه عنهم فإنما يخبرون عنه من جهة المعاينة والتحقيق ، وإنما المثل في هذا مثل قولنـه :-

(١) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٨٤ .

(٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٨٤ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

قد كان شيطانك من خطابها
 وكان شيطاني من خطابها
 * حيناً فلما اعتزكا ألوى بها * (١)

فكلمة الشيطان ، تستعمل على سبيل " المثل " ، ولذلك يردّ على من يزعم أن " النبيّ صلي الله عليه وسلّم نظر إلى رجل يتبع حماماً طياراً فقال : " شيطان يتبع شيطانا " (٢) ، ولرّدّه هذا وجهان :-

الأول : يقوم على أساس مشكوك فيه ، يتعلق بمدى صحة هذا الحديث ، ويدل على ذلك قوله " فإن زعمتم " . فالجاحظ - وإن يشكك في أن الرسول صلي الله عليه وسلّم قد قال هذا الكلام . ولا يملك له حظه سوى الدليل المنطقي ، فيقول : " فخبّرونا عمّن يتخذ الحمام من بين جميع سكان الافاق ونازلة البلدان ، من الحرّيين والبصريين ومن بني هاشم إلى من دونهم ، أتزعمون أنهم شياطين على الحقيقة ، وأنهم من نجل الشياطين ، أو تزعمون أنهم كانوا انسا ففسخوا بعد جئا " (٣) ، فهو يسخر من هذا الزعم ، الساذج يسقه العقل ، ويبتعد به عن المنطق والواقع ، في قوله " أتزعمون أنهم شياطين على الحقيقة "

والثاني : يقوم على فرض أن هذا الخبر صحيح ، ففي رأيه وإن ، أن له مخرجاً آخر ، وهو المجاز ، على مثل قوله (شياطين الانس والجن) (٤) ، وعلى قول عمر : لأزعن شيطانه من نخريه (٥) ثم يتابع بإيراد الشواهد الشعرية المختلفة التي وردت فيها كلمة " شيطان " والاستعمالات المتعددة لهذه الكلمة ، ثم يعلّق في ختامها قائلاً : " وهذا كلّ منهم ، على وجه المثل ، وعلى قول منظورين رواحسة :-

-
- (١) الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .
 - (٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .
 - (٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .
 - (٤) الأنعام ١١٣ .
 - (٥) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٩٩ .

أَتَانِي وَأَهْلِي بِالذَّخَاخِ فَفَمَّكَرَةٍ
 مَسَّبُ عُوَيْفٍ فِي اللُّؤْمِ حَيَّ بَنِي بَكْدَرٍ
 فَلَمَّا أَتَانِي مَا يَقُولُ تَرَقُّصًا

شياطينُ رأسي وانتشينُ من الخُميرِ" (١)

والأمثلة هذه كلها ، التي يوردها الجاحظ ، حول كلمة " شيطان " التي جاءت
 في الحديث النبوي المذكور ، إنما يطلق على استعمال الشيطان فيها لفظ " المشعل "
 لا " الاستعارة " ، والشيطان كذلك ، من المفهيات ، وليس بمحسوس .

هـ : الكناية :-

لم يُعر الجاحظ ، الكناية كبير اهتمام ، حيث يكتفي بتفصيلها على " الإفصاح والشرح " لأنها " أبلغ في التعظيم ، وأدعى إلى التقديم " (١) ، ولذلك يستحسن قول عمر بن الخطاب في الترك : " هذا عدو شديد كلبه ، قليل سلبه . . . " (٢) ويمثل قائلاً : " فنهى كما ترى عن التعرض لهم ، بأحسن كناية " (٣) .

فهو يسير في الكناية سيرته في المجاز والاستعارة ، حيث يبينها ، ويوضحها من خلال الأمثلة المتنوعة . ومن ذلك يقول : " والعرب إذا ضربت المثل في العداوة الشديدة قالوا : ما هم إلا الترك والدليم . قال غمّل بن عقيل بن علفقة :-
تبدلت منه بعدما شاب مفرقي

عداوة تركي وفض أبي حسيل
وأبو حسيل هو الضب . والعرب تقول : " هو أعف من ضب " ، لأنه يأكل أولاده " (٤) .

كما أن الكناية ، هي الوسيلة التي تقي الأديب من الوقوع في فاحش الكلم ، ويبتعد الجاحظ الأمثلة التي تستعمل فيها العرب الكناية ، تجنباً للإفصاح عنها لكيلا تخدش السمع (٥) .

ومجمل الأمر ، أن الكناية عنده ، هي الوسيلة التي يعبر بها الأديب ، عما فسي نفسه ، بعيداً عن المباشرة ، التي تقصيه عن المنزلة الفنية الرفيعة ، وتقتل الخيال الأدبي ، والإبداع الفني ، حيث تقترب بالأدب من الكلام المباشر العادي .

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣٠٧ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٦ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٦ .

(٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٦ .

(٥) انظر ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٩٥ .

فالكناية ، إذن أسلوب من أساليب التعبير الفني عند العرب ،
وهي مستعملة كثيراً في أحاديثهم ، وأقوالهم وأشعارهم .

١ - التورية والاشتقاق :-

وفي التورية ، يكتفي الجاحظ ، بإشارات بسيطة إليها ، من خلال تعريفه لكلمة " المنافق " ، وهي كلمة استحدثها الإسلام واشتقها من أحد جحور اليربوع المسمى " بالنافق " (١) .

ويعود **هنا** ، لتبيان ، كيفية انتقال الكلمة من الأصل العادي الحسي إلى الأصل المجازي ، الذي يشيع ويدرج على الألسنة ، حتى ينسب الأصل ، ويبقى المحادث . فحين تطرق كلمة " منافق " سمع الإنسان ، يتبادر إلى ذهنه فيرا ، ذلك الإنسان السذي يظهر غير ما يخفي ، ويظهر على غير حقيقة نفسه . ولا يخطر على بال أحد منا ، ذلك الحيوان الذي يختبئ في جحره المسمى " بالنافق " .

وأما عن سبب اشتقاق لفظ " المنافق " من نافق اليربوع ، فيبينه الجاحظ **هنا** خلال حديثه عن " احتيال اليربوع " فيقول : " وفي احتيال اليرابيع بالنافق ، والقاصع ، والدأما ، والراخط ، وفي جمعها التراب على نفس باب الجحر ، وفي تقدمها بالحيلة والحراسة ، وفي تغليطها لمن أرادها والتورية بشيء عن شيء ، وفي معرفتها بباب الخديعة ، وكيف توهم عدوها خلاف ما هي عليه ، ثم في وطئها على زمعاتها ، في السهولة وفسي الأرض اللينة ، كي لا يعرف أثرها الذي يقتصه ، وفي استعمالها واستعمال بعض ما يقاربها في الحيلة التوبير - والتوبير : الوطء على ما خير أكفها - العجب العجيب " (٢) .

فيلجأ ، إلى التحليل العلمي ، للتعليل الأدبي ، حيث المنافق يحتال ويخدع كما اليربوع في نافقائه .

وهناك ألفاظ أخرى عديدة ، استحدثها الإسلام واشتقها " من أسماء متقدمة على التشبيه ، مثل قولهم لمن أدرك الجاهلية والإسلام مخضرم " (٣) . غير أنه لا يبين

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ ، ونفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

(٢) نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٠ .

الأصل الذي اشتقت منه كلمة "مخضرم" كما هو الأمر من كلمة "منافق"، وإنما يظن أن هذه الكلمة مستحدثة بعد الإسلام حيث يقول :- "ويدل على أن هذا الاسم أحدث في الإسلام، أنهم في الجاهلية لم يكونوا يعلمون أن ناسا مسلمين وقد أدركوا الجاهلية، ولا كانوا يعلمون أن الإسلام يكون" (١).

وهذا التعليل، منطقي جدا، غير أن الجاحظ لا يملك الدليل الذي يمثل الأصل لهذه الكلمة المستحدثة. ولا يفوته أن يذكر أسماء بعض الأعلام الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، فكانوا من المخضرمين (٢).

فالأصل إذن في الاشتقاق، هو المشابهة ما بين اللفظتين، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم "نعمت العمة لكم النخلة" (٣) ولا يبين الجاحظ أوجه الشبه ما بين النخلة والناس، خوفا من التكرار، فهو يذكر أنه عرض لهذه الوجوه في كتابه الموسوم بـ "الزعر والنخل" (٤). كما يذكر أشعارا وأقوالا، تنسج بالاشتقاق (٥)، ثم يعلق في معرض ذلك قائلا: "فهذا مما يدل على توسعهم في الكلام، وحمل بعضه على بعض، واشتقاق بعضه من بعض" (٦).

فالاشتقاق، إذن يساعد اللغة على الاستمرار، ومواكبة التطور البشري وإيجاد المصطلحات المناسبة، من ألفاظ قديمة، على أن يكون الشبه بينهما حاصلا، أما فسي طبيعة عملها، كما في حالة "المنافق" أو طول الارتباط بين اللفظين كما في حالة التيمم يقول: "... ومثل التيمم قال الله تعالى: (فَتَتِمُّوا صَعِيداً طَيِّباً) (٧) أي تحسروا

(١) الحيوان، ج ١، ص ٣٣١.

(٢) انظر، نفسه، ج ١، ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٣) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٣٠.

(٤) انظر، نفسه، ج ١، ص ٢٣٠.

(٥) انظر، نفسه، ج ١، ص ٢٣٠.

(٦) نفسه، ج ١، ص ٢٣٠.

(٧) النساء، ٤٣.

ذلك وتوَّخوه ، وقال : (فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ مِنْهُ) (١) فَكثُرَ هذا الكلام حتى صار التيمُّ هو المسح نفسه . وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيء إذا طالت صحبتهم ولا يستهم إليه " (٢) .

أو قد يكون هذا الشبه من قبيل اسم المكان مثل كلمة " النائط " ، فهي مأخوذة من " الفيطان " (٣) ومثل " العذرة " (٤) فلكثر ما رموا من " النجو والزبل في أفئيتهم سميت تلك الأشياء التي رموا بها ، باسم المكان الذي رميت به " (٥) .

ويسوق الجاحظ الأمثلة المتعددة في هذا المجال ، مبينا الأصول المشتقة منها الأسماء المحدث (٦) . مطلقا على بعضها لفظ " الكناية " (٧) مبينا أنهم إنما كنوا بتلك الألفاظ ، تفاديا للوقوع في فاحش الكلام .

وأخيرا يعلّق على كلمة " المستعجل " التي وردت في قول الشاعر :

" قد يُدرك المتأني بعض حاجتيه

وقد يكون مع المستعجل الزلل " (٨)

فيقول : " ولولا أنه اشتقّ المستعجل من العجلة لما قرنه بالتأني " (٩) .

(١) النساء ، ٤٣ .

(٢) الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

(٣) " البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة للستر " . انظر ،

الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

(٤) " وإنما العذرة الفناء ، والأفنية هي العذرات " الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

(٥) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

(٦) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

(٧) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

(٨) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٩) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

ز : التشبيه :-

لعل الأمثلة الغزيرة ، التي تحفل بها كتب الجاحظ ، غنية بالتشابه المختلفة ، إلا أن الأمثلة التي يسوقها في التشبيه ، من حيث كونه فناً من فنون علم البيان ، نـسـزرة قليلة ، بل إن حديثه عن هذا الفن يكاد يكون معدوماً . فعلى سبيل المثال ، يقـسـمـان بين تشبيه الرسول الناس بأسنان المشط في تساويهم ، في حديثه المشهور " الناس كـلـهم سواء كـأسـنـان المـشـط " (١) ، مانحاً كل إنسان على ظهر البسيطة ، قيمته الإنسانية ، ووضعاً هذه القاعدة التي تمنع الاستبعاد حين يساوي الفقير بالفني ، والأسود أو الأصفر بالأبيض . . . فيقارن بين هذا الحديث السامي في قيمته ، وبين بيتين من الشعر ، يشبه فيهما الشاعران الناس بأسنان الحمار : على سبيل الذم . ووجه المقارنة هو التشبيه بالأسنان ، فيقول ذاكرة البيتيين :-

" وقال الشاعر :

سواء كـأسـنـان الحمار فلا تـرى
لذي شـيـبـة منهم على ناشيء فضلاً

وقال آخر :-

شبابهم وشيبهم سواء
فهم في اللوم أسنان الحمار

وإذا حصلت تشبيه الشاعر وحقيقته ، وتشبيه النبي صلى الله عليه وسلم وحقيقته ، عرفت فضل ما بين الكلامين " (٢) .

فالتشبيهان كلاهما واضح ، ولذلك يترك الجاحظ للقارىء أمر تحصيلهما ، فالرسول صلى الله عليه وسلم ، يترفع عن الأذية ، والهجاء المقذع اللاذع .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٢) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

وقد ترد كلمة "التشبيه" ، دون تفسير أو توضيح . كما في قول الشاعر الذي وصف الطير بالعقل (١) ، فيعلّق "ولنما قال ذلك على التشبيه ، فليس للشاعر إطلاق هذا الكلام لها ، وليس لك أن تمنعها ذلك من كل جهة وفي كل حال . فافهم فهمك الله ، فإن الله قد أمرك بالتفكر والاعتبار ، وبالتعرّف والاتّعاظ" (٢) .

فالجاحظ ، يحترم ذكاء القاري ، لذلك لا يرى ضرورة ، للشرح والتفسير ، ويفتنم كل مناسبة ، وكل فرصة ، ليدعوه إلى التأمل والتفكير وتحريك العقل والفكر ، حيث استعمال العقل ، سمة تميّز علماء المعتزلة عن غيرهم ، فلا يقبلون بالنظريات ، دون الاقتناع بهما ، واثباتها بالفكر والمنطق .

وقد يكتفي بإيراد أبيات شعرية ، ذاكراً أنها على سبيل "التشبيه" والاشتقاق (٣) .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٧ ، ص ٥٨ .

(٢) نفسه ، ج ٧ ، ص ٥٨ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

ح : السجع :-

يفرد الجاحظ ، في الجزء الأول ، من كتابه " البيان والتبيين " ، بابين للسجع (١) ، فيثريهما بعيون الأشعار والأحاديث والأقوال . . . التي تتوالى بغزارة ، ويسابق بعضها بعضا ، فتوحي بأنها حاضرة في ذهنه . . . ولعل العلم الغزير ، والمعرفة الواسعة ، والفكر التي تتقد في ذهنه ، كل ذلك كان له تأثيره الواضح على منهجه الذي يتسم بالإكثار من الاستشهادات والأمثلة ، واعتبارها أساسا يعتمد عليه ، في كل فكرة يبدعها ، وكل كلمة ينطقها ، مما أضفى على كتبه قيمة جديدة ، ربما لم يقصدها لذاتها ، وهي أن كتبه أضحت مرجعا أدبيا يحوي مجموعة مهمة ، من التراث الشعري والخطب والأحاديث والأخبار . . . وربما تتميز عن غيرها ، بعدم تمييز مؤلفها ما بين الشاعر المجهول ، والمعروف ما دام الشعر نفسه حسن السبك ، جيد المضمون .

وإذا كانت هذه الأمثلة ، تنطق عن نفسها ، تغير عن السجع أحسن التغيير ، فإنه يقتصد في حديثه عن هذا المبحث . غير أنه لا يفوته ، أن يعرض لقضية مهمة ، لها تأثيرها على استمرارية السجع ، كونه علما من علوم البلاغة والبيان ، وهي أن بعض النقاد قد زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم ، حرم السجع ، لقوله : " أسجع كسجع الجاهلية " (٢) . فالجاحظ ، يعرض لأقوال تنقض هذا الزعم :-

فعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي ، يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الموضع يرد على الأعرابي " الذي أراد إبطال حق فتشادق في الكلام " . ولو أنه أراد إقامة الوزن وحسب " لما كان عليه بأس " ، ويرى غيره أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد استحسّن القصيد والرجز ، وأمر الشعراء بهما " فالسجع والمزودون القصيد والرجز ، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل " .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٨٤ وما بعدها ، ونفسه ، ج ١ ، ص ٢٩٧ ، وما بعدها .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٧ .

ويرى آخر ، أن القول إذا كان موجزا ، وقوافيه بعيدة عن التكلف ، وكان " كقول الأعرابي لعامل الماء : " حَلَّيْتُ رَكَابِي ، وَخَرَّقْتُ ثِيَابِي ، وَضُرَيْتُ صَحَابِي " فقليل له " أو سجع أيضا ؟ " فأجاب الأعرابي متسائلا " فكيف أقول ؟ " (١) .

ويعلق الجاحظ ، مفسرا بأن هذه الألفاظ التي جاء بها الأعرابي ، لا يجسوز استبدالها بألفاظ أخرى " وَإِنَّمَا حَلَّيْتُ رَكَابِي فَكَيْفَ يَدْعُ الرِّكَّابُ إِلَى غَيْرِ الرِّكَّابِ " فكلمة الرِّكَّاب (٢) مثلا ، إذا استبدلت بكلمة أخرى ، يخل المعنى المقصود وهكذا (٣) ويعمل ذلك بقوله : " لأن الكلام إذا قلَّ وقع وقوعا لا يجوز تغييره وإذا طال الكلام وجسدت في القوافي ما يكون مجتلبا ، ومطلوبا مستكرها " (٤) . ففي هذا النص يشير إلى الخصوصية التي يتميز بها ، القول الموجز ، وهي ضرورة دقة اللفظ ، بحيث لا يستطيع تغييره أو تبديله ، كما في المثال المذكور . ولعل هذه الخصوصية المميزة للإيجاز ، هي التي تدعو إلى تفضيله على الإطناب لأنه في الإيجاز ، تتحقق الدقة في اللفظ ، التي تؤدي إلى صحة التعبير عن المعنى ، وبالتالي الوضوح في الإفهام ، هذه الغاية التي يدعو إليها مـراراً وتكراراً .

ويعود هنا كذلك ، لتأكيد قضية عدم وجود ما يسمى بالترادف بين الألفاظ على الرغم من وجود التقارب في المعنى .

ويضيف الجاحظ ، في معرض رده على من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كره السجع ضاماً صوته إلى صوت عبد الصمد والآخرين . فيرى بدوره أن السجع لم يكن له لذاته ، وإنما لقرب عهد الناس ، في صدر الإسلام من الجاهلية ، حيث كان كهان العرب يسجعون ، ويدعون " أن من كل واحد منهم رئيساً من الجن " ، ولقد كان لهؤلاء الكهننة

- (١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .
- (٢) الركاب : الإبل التي يسار عليها ، وأحدتها راحلة ، ولا واحد لها من لفظها ، وجمعها ركب ، بضم الكاف ، مثل كتب . . . لسان العرب (ركـب) .
- (٣) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٨٨ .
- (٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٨ .

سلطة على الناس "يتكهنون ويحكمون بالأسجاع" لما لها من تأثير على الأسجاع . فخوفنا من رجوع الناس إلى شيء من تلك الاعتقادات الباطلة ، كره السجع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، لا سيما أن الناس كانوا لا يزالون متأثرين بالقيم الجاهلية التي كان يعبر عنها الكهان بالأسجاع . ولكن حين بعد الزمن بالمسلمين عن العصر الجاهلي ، وذهب بأسجاع الكهنة وقيم الجاهلية ، وتمكنت قيم الإسلام من قلوب الناس ، أو بمعنى آخر ، حين ذهبت العلة التي من أجلها كره النبي صلى الله عليه وسلم السجع ، فزالت العلة ، أو هذا التحريم يبطل مع بطلان العلة . وهذا تفسير قوله " فلما زالت العلة زال النهي " (١) . ولعل هذا الحكم الذي ينتهي إليه الجاحظ ، يبرز المنهج العقلي في التفكير الاعتزالي ، حيث يرضخ كل شيء عند المعتزلة للفحص والتمحيص العقلي ، ويكون الرأي الأول والأخير لما يحكم به العقل ، وهنا تبرز قيمة هذا المنهج ، في المحافظة على مرونة الفكر الإسلامي وتطوره ، بحسب الزمان والمكان .

فالأحكام لا تكون مطلقة أبداً ، وإنما تجوز في حالة وجود ظروف تحاكي وتشابه الظروف التي من أجلها صدرت هذه الأحكام ، أما في حالة انتهاء الظروف ، أو عدم تكرره يبطل الحكم . كما هو الأمر مع السجع ، فحين انتهى العصر الجاهلي - عصر الكهان - زالت قيمه من صدور المسلمين ، ذهب معه تحريم السجع ، ولا يجوز أن يظل التحريم قائماً ، مع زوال العلة .

والدليل على ذلك أن الخطباء كانوا يسجعون ، في حضرة الخلفاء الراشدين ، فلا ينهاهم أحد منهم ، كما يذكر الجاحظ أسماء الأعلام الذين كانوا يستعملون السجع فسي كلامهم من الخطباء والقصاص (٢) .

ولم يكن النهي عن مراثية أمية بن أبي الصلت ، لقتلى أهل بدر لما فيها من السجع وإنما لأنها قيلت في رثاء المشركين الذين حاربوا النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر (٣) .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ص ٢٨٩ - ٢٩١ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

ط : الهدى :-

لم يول الجاحظ، علم الهدى، اهتماما كبيرا، كما هو الأمر مع علم البيان، ولم يسل مرجع ذلك، إلى تأثير الاعتزال. فلقد كان المعتزلة في ذلك الوقت في أوج ازدهارهم، ونشاطهم الفكري، وعطائهم الحضاري، وكانوا يصبون إلى نشر فكرهم بين عامة الناس، فكان لا بد من الأسلوب الواضح والمؤثر في الوقت نفسه. وعلم البيان بفرعه، هو الوسيلة التي تؤدي إلى الفاية المرجوة.

فالجاحظ ليس مغفرا وحسب، بل هو أديب أيضا. ولذلك نجده يهتم بالأسلوب، كما يهتم بالفكر، ويتضح ذلك في أسلوبه المتميز بالتألف والتناغم، بين اللفظ والمعنى. ولطالما ذم التكلف، وحذر من عاقبة الإفراط في الاهتمام بالشكل، ودعا إلى تخير اللفظ الكريم المعبر عن المعنى الشريف، من غير تكلف تنميق وتزويق. لأن ذلك قد يؤدي إلى زيادة في المعنى، أو نقصان فيه، من أجل تحقيق غايات تهتم بالشكل، أكثر من اهتمامها بالمضمون.

والهدى، فن بلاغي، يتفنن فيه الأديب، في صياغة الألفاظ، وتنسيقها، والتلاعب بها. فهو فن يهتم بالجمال اللفظي، ولا شك، في أن له أهميته في البناء الأدبي، وفي الجمال الفني. ولكي يؤدي وظيفته على أحسن وجه ينبغي أن يكون وسيلة لا غاية، وإلا كانت القطعة الأدبية، مجرد ألفاظ منمقة ومرصوفة بعضها إلى جانب بعضها الآخر. فإذا دخل الهدى في القطعة الأدبية، ودون تكلف، ودون أن يطفئ اللفظ على معناه، ودون إساقام، برزت عندئذ الموهبة الحقيقية للكاتب، وكان أدبه على درجة رفيعة من الإبداع. ولذلك نرى الجاحظ يقول: "والهدى مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لفتهم كسبل لغة، وأربت على كل لسان" (١).

(١) البيان والتبيين، ج ٤، ٥٥٠ - ٥٦.

فهو في جلّ آرائه النقدية ، يعتمد على الأدلة التاريخية والتراثية ، ولا يصدر حكماً إلاّ ويؤيده بدليل ، أو بالأحرى ، بأدلة متعدّدة .

ومن البدهي ، أنه في أحكامه هذه يستقي معلوماته العامة ، من مصادر مختلفة ، قد تحدّث في هذه الموضوعات ، ومن المرجّح أن تكون باللغة العربية ، إذ نعلم أنسبه كان قليل الاطلاع على اللغات الأجنبية ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، فقد يأخذ الباحث بعض أحكامه كقوله : شائع في جميع اللغات ، بأنه أسلوب ، من أساليب العربية ، يفيد التكثير ، وربما من الحيف أن نفهم قول الجاحظ من خلال الحكم الحرفي ، أي من حيث هو استقراء لجميع اللغات . وربما أن هذا الوضع ، يفسّر لنا ، خروجـه عن منهجه العلمي ، الذي يتّصف بالدقّة والتحليل والتعليل ، في ذكر الأسباب والنتائج ، وتأييد أقواله بالأدلة المختلفة ، كما نرى ذلك في أحكامه العامة الشاملة عن اللغة العربية ، وخصائصها بين اللغات .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان ينافح عن العربية ، وينحاز إلى العرب أمام تيار الشعوبية ، التي كانت على أشدها في النّيل من فضائل العرب ولغتهم وتراثهم لا سيّما أن العربية كانت آنذاك ، لغة العلم والفكر والسياسة .

ومع أنه لا يعرض لغروع هذا الفن ، من جناس أو طباق . . . عرضاً مباشراً ، إلاّ أنه يعتبر " المثل " أي الاستعارة ، من فنون البديع كما سبق (١) .

كما يثبت شعراً ، تدخل فيه المحسنات البديعية ، تحت عنوان " قطع من البديع " (٢) يتخلّله إشارات عابرة ، أقرب ما تكون بالتعليقات الانطباعية الخاصة ، مثل قوله : " وقال

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

(٢) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٥٧ - ٥٩ .

الراجز في البديع المحمود (١) ، وقوله : " ومن هذا البديع المستحسن " (٢) .

ويذكر أسماء الأعلام ، الذين اشتهروا ، بهذا الفن مبدياً رأيه فيهم فيقول :
 " ومن الخطباء الشعراء ، ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع
 البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتّابي ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحسنه
 ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلم مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمرى ،
 ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههم .

وكان العتّابي يحتذي حذو بشار في البديع . ولم يكن في المولدين أصـوب
 بديعاً من بشار ، وابن هرمه " (٣) .

فكلمة " يتكلم " في هذا النص ، تدل على أن الجاحظ يعتبر البديع ، فناً متكلفاً
 لأن الفنان يشحن عقله وفكره ، ليخرج بالألفاظ البديعية المنمقة .

وعلى الرغم من أنه يقرب براعة بشار وابن هرمه ، في هذا الفن ، إلا أنه يحصـر
 براعتهم داخل دائرة المولدين من الشعراء . حيث يبرز رأيه في أشعارهم فيقول : " والراعي
 كثير البديع في شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتّابي يذهب في شعره في البديع
 مذهب بشار " (٤) .

وإذا تابعنا ، بعض الباحثين المحدثين ، الذين يعتبرون المبالغة ، فناً من
 فنون " البديع المعنوي " (٥) ، فإننا نرى الجاحظ يشير إشارة عابرة إلى المبالغة ،

-
- (١) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٥٨ .
 (٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٨ .
 (٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٥١ .
 (٤) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٥٦ .
 (٥) انظر ، بدوي طبانة ، معجم البلاغة العربية ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٨٩ .

- ١٣٧ -

فيقول : " والشاعر يمدح الشيء ، فيشدّد أمره ، ويُقوّي شأنه ، وربما زاد فيه " (١) .

فالمبالغة إذن ، هي البلوغ باللفظ ، إلى أقصى غاياته ، وطبقاته ، من أجل تشديد الأمر الذي يريد ، الشاعر أو القائل ، وتوكيده وتقوية شأنه ، بالزيادة المعنوية أو اللفظية .

غير أن هذه الزيادة ، ينبغي أن لا تخرج ، إلى الإسراف أو الإفراط ، إذ قد يحتلط عند الباحث مفهومهما عند الجاحظ ، بمفهوم المبالغة .

ولعلّ الإسراف ، يعتبر زيادة في المبالغة ، تخرج بالقاري . والنص الفني من حدود الخيال الفني ، المتلائم مع الواقع الإنساني ، إلى الخيال الذي يقارب الأسطورة أو الخرافة ، وهذا ما يرفضه الجاحظ ، فيقول : " ولقد أسرف المتلّس حيث يقول :-

أحارثُ إنا لو تساط دماؤنا
تزايدن حتى لا يمس دم دما

وأهدب سرفاً منه قول أبي بكر الشيباني ، قال : كنت أسيرا مع بني عمّ لي من بني شيبان ، وفهنا من موالي جماعة في أيدي التغالبة ، فضربوا أعناق بني عمّي وأعناق الموالي على وهدّة من الأرض ، فكنت والذي لا إله إلاّ هو ، أرى دم العربيّ ينساز من دم العولى ، حتى أرى بياض الأرض بينهما ، فإذا كان هجيناً قام فوقه ، ولم يعتزل عنه " (٢) .

ومثل الإسراف ، الإفراط ، حيث يصل بالقائل من الإفراط في المبالغة ، في رسم الصورة الفنية ، حدّ التعرّض للتكذيب ، وخاصّة في أغراض كالمدح مثلاً ، لأن المادح يوهّم بأنّه يقول الحقيقة في مدحِهِ (٣) . ويستشهد ، كعادته ، بالأشعار المختلفة ، لتوضيح الإفراط (٤) .

(١) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

(٢) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٦٠ - ٦١ .

(٣) انظر ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٢٠ .

(٤) انظر ، البخلاء ، ص ٢٣٣ .

ومعد ، فإن الجاحظ يرسم صورة الإفراط ، تختلف في ظلالها وإيحاءاتها عن صورة المبالغة ، حيث إن المبالغة فن من الفنون البديعية ، وأسلوب من الأساليب البلاغية ، في حين يتجه الإفراط ، إلى الاستكثار غير المستحب في المعنى .

مثل قوله : " ومن ذلك قول عدي بن زيد :-

يا لبيئي أوقدي النارا

إِنَّ مَنْ تَهْوِيَنَّ قَدْ حَارَا

رَبِّ نَارِ بَسْتُ أَرْقُبُهُمَا

تَقْصِمُ الْهِنْدِيَّ وَالْفَارَا" (١)

وفي ختام الحديث عن أساليب التعبير ، التي تشكّل في مجملها الوسيلة الأولى من وسائل البيان ، وهو " بيان اللفظ " ، يلخص الجاحظ ما سبق من فنون البيان من حيث كونها وسيلة للفهم والإفهام ، والتأثير في النفوس ، والسبيل للارتقاء بالألفاظ ومعانيها ، وتحقيق درجة عالية من البيان ، فمذكر صفات بيان النبي صلى الله عليه وسلم ، وبلاغته التي تتميز بالإيجاز مع وفرة المعاني ووضوح العبارة والابتعاد عن الصنعة والتكلف ، وما يتبع ذلك من " التشديق " و " التققيب " . فكان كلامه مطابقا لمقتضى الحال ، ولفظه مفهوما مبتعدا عن " الغريب الوحشي " ومجانبا لـ " الهجين والسوقي " ، سهل المخارج ، فصيح المعنى ، حسن الإفهام دونما حاجة إلى التكرار والمعاودة . هذا بالإضافة إلى الموهبة الخاصة ، وما وهبه الله له من العصمة والنبوة ، والأخلاق الحميدة (٢) .

(١) البخلاء ، ص ٢٣٣ .

(٢) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ١٦ - ١٨ .

وأخيرا ، يوجه الجاحظ المتأرب ، ويبيّن له السبيل ، السبيل الذي
يرفع من قيمة أدبه لغوياً وفكرياً فيقول : " وأنسا أقول : إنّه ليس غيبي
الأرض كلام هو أمتنع ولا آتق ، ولا ألتذ في الأسماع ، ولا أشد اتّصّالا
بالمعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع
حديث الأعراب العقلاء الفصحاء ، والعلماء البلغاء " (١) .

(١) البيان والبيان ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

٥ : وسائل البيان :-

يذكر الجاحظ ، أن وسائل البيان تقع في أربعة ، أو خمسة سبل ، وهي :
اللفظ ، والاشارة ، والعقد ، والخط ، مضافاً إليها " الحال " أو " النصبه " (١) .

١- الإشارة :-

وينتهي الجاحظ من حديثه عن بيان اللفظ " قد قلنا في الدلالة باللفظ " (٢) ،
لينتقل إلى الحديث عن الإشارة ، وهي تكون " باليد ، وبالرأس ، وبالعين والحاجب
والمنكب ، وإذا تباعد الشخصان ، والثوب بالسيف . وقد يتهدد رافع السيف والسوط ،
فيكون ذلك زاجراً ، ومانعاً رادعاً ، ويكون وعيداً وتحذيراً " (٣) .

فما دام مدار الأمر ، على الفهم والإفهام ، فإن الإشارة ، في موضعها ، قد تفني
عن اللفظ ، وتؤدي الغاية من البيان .

والإشارة ، خير معين للفظ ، إذ تشاركه البيان في بعض المواضع ، حيث يستعين
القاتل بها ، في محاولة منه لمزيد من الإفهام والبيان (٤) .

بل إنها قد تفني عن اللفظ ، في بعض المواضع التي يحتاج فيها إلى تفاهم
أشخاص يريدون ستر واخفاء الأمر عن أشخاص آخرين حاضرين (٥) ، " ولولا الإشارة
لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص ، ولجهلوا هذا الباب البتة . ولولا أن تفسر
هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم . . . هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ
الصوت . فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت " (٦) .

- (١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٦ ، والحيوان ، ج ١ ، ص ٣٣ - ٣٥ ، ٤٥ - ٤٦ ،
- (٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٧ .
- (٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٧ .
- (٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٨ ، ٧٩ ، وانظر ، ادريس بلمليح ، الرؤية البيانية عند الجاحظ ،
الدار البيضاء ، المشرق ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .
- (٥) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٨ .
- (٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

فبالإشارة ، إننا ، يتفاهم الناس سرّاً وجهاراً ، وهي على طبقات ودلالات مختلفة ومتنوعة ، حتى الأمور الخاصة جداً . ولعل هذا ما يقصده بـ " خاص الخاص " حيث أنها دلالة فلسفية كلامية وليس هنا موضع تفسيرها ، كما يقول كي لا تختلط الأمور فيتحوّل الكلام عن الإشارة ، إلى علم الكلام .

غير أنه يعتمد إلى تفسيرها في موضع آخر ، حيث يرى أن الكلام في طبقات من حيث العموم والخصوص ، يتدرّج ما بين " عام العام " ، و " أخص الخاص " الذي " قد يدخل في باب العام " ، إلا أنه أدنى طبقاته . وهذا الكلام ما بين هذين الطرفين ، يكتفي باللفظ المجرد ، أما " خاص الخاص " فليس يكتفي باللفظ ، بل يحتاج فيه إلى الاستعانة بالإشارة كذلك (١) .

ويذكر أشعاراً في هذا المجال ، كمادته ، للدلالة على مدى أهمية الإشارة (٢) ، كما يذكر خبر أبي شعير الذي كان لا يحرك ساكناً إذا تكلم ، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة " ، وكان ينتقد أولئك الذين يستعينون بالإشارة أبان كلامهم ، رامياً أيّاهم بالعجز عن نقل ما يريدون وإلى الآخرين بالألفاظ المجردة . حتى ما كان من أموره ، حين اضطره إبراهيم بن سيار النظام إلى الحركة " حتى حرك يديه وحلّ حبوته ، وجأ إليه حتى أخذ بيديه " ، إن دفعه إبراهيم إلى ذلك أمام أيوب بن جعفر " بالحجة ، والزيادة في المسألة " (٣) .

وأما سبب هذا الامتناع عن الحركة ، فيفسره الجاحظ ، بطول اعتياده قبول أصحابه لكلامه دونما مجادلة أو نقاش ، من شدة توقيرهم له إن كان " شيخاً وقوراً ، وزميتاً ركيناً ، وكان ذا تصرف في العلم ، ومذكوراً بالفهم والحلم " (٤) .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٥٠ .

(٢) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٩١ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٩١ - ٩٢ .

وأخيرا ، يرى أنه لا غناء للبلاغيين عن الاستعانة بالإشارة ، إذ لا يستقيم بيمانهم إلاّ بها . فيقول : " ولو جهد جميع أهل البلاغة أن يخبروا جميع من دونهم عن هذه المعاني ، بكلام وجيز يفني عن التفسير باللسان والإشارة باليد والرأس - لما قدروا عليه " (١) .

(١) الحيوان ، ج ٦ ، ص ٨ .

ينهي الجاحظ ، حديثه عن الإشارة " قد قلنا في الدلالة بالإشارة " (١) . لبيدأ حديثه عن الوسيلة الثالثة وهي " الخط " ، باعتبار أن الوسيلة الأولى هي اللفظ ، والثانية هي الإشارة .

ولقد جاء ذكره في القرآن الكريم : (يَا قُرْآنُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) (٢) ، بل إن الله تعالى ، أقسم بالقلم (نَ . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) (٣) مما يدل على مدى أهمية هذه الوسيلة ، التي تخلد الكلام حيث " يُقْرَأُ بِكُلِّ مَكَانٍ ، وَيُدرَسُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَاللِّسَانُ لَا يَعْدُ وَسَامِعَهُ ، وَلَا يَتَجَاوَزُهُ إِلَّا غَيْرُهُ " (٤) .

ويستشهد بالأقوال المختلفة للدلالة على أهمية هذه الوسيلة (٥) ، فَالْخَطُّ فَضِيلَةٌ تعلو على فضائل وسائل البيان الأخرى ، ولذلك جاء ذكرها في القرآن الكريم ، حيث أن للخط فضيلة أخلاقية تتمثل في حفظ العقود والعهود والصكوك . . . كما أن له فضيلة اجتماعية ، تتجسد في إنصاف المظلوم من الظالم ، إن أراد الأخير خلفان العهد ، في قوله " وكسـل أمان وكلّ عهد وعقد ، وكل جوار وحلف . ولتعظيم ذلك والثقة به والاستناد إليه كانسوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة . . . " بالإضافة إلى الضمان السياسي بين الدول المختلفة ، الذي تضمنه هذه الصكوك والشروط والعهود ويستشهد الجاحظ شواهد في ذلك كله من التاريخ والشعر (٦) .

فالخط ، من حيث هو وسيلة من وسائل البيان ، يقصد به كل رقم وخط ورسم وكل علاقة أو دلالة يخطها القلم ، ما دامت تؤدي الغاية الأولى من البيان وهي الفهم

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٩ .

(٢) العلق ، ٣ - ٥ .

(٣) القلم ، ١ .

(٤) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٥) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٩ - ٨٠ .

(٦) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٦٩ - ٧٠ .

والإفهام ، حيث يكون فعل القلم " في المداد والليقة والهواء والقرطاس " كفعل اللسان " في جوة الفمسم وهوائه الذي في جوف الفم وفي خارجه وفي لهاته ، وباطنسي أسنانه " فمعرف الناس هذه الدلالات المخطوطة ، لما طال تكرارها على أبصارهم . شأنهم في ذلك ، شأن استدلالهم على السرور بالضحك ، وعلى الألم بالبكاء ، وهكذا عرفوا معاني الأصوات المختلفة والإشارات والهيئات . واستدل غير العاقل بالصور والإشارات والأصوات ، المقصود بها ، فاستجاب لها .

ولكل نوع من هذه الخطوط ، من رقم ووسم ونقش وعلامة . . . مجالها الذي لا غنى عنها فيه ، والآل لملك التحار ، وأصحاب الحرث ، ولدخل الضيم على الناس في أموالهمم وخزائنهم ، ولعمّ الخلل والضـرر (١) .

ولذلك ، كان الخط دليلا على قوة الأمة وعظمتها ، ورقبها وتحضرها ، فيقول : " وليس في الأرض أمة بها طرق أولها مسكة ، ولا جيل لهم قبض وسط ، إلاّ ولهم خط . فأما أصحاب الملك والمملكة ، والسلطان والجباية ، والديانة والعبادة ، فهناك الكتاب المتقن ، والحساب المحكم . ولا يخرج الخط من الجزم والمسنند والمنعم والسمنون كيف كان ، قال ذلك الهيثم بن عدي ، وابن الكلبي " (٢) .

وهذا الاهتمام البالغ بالخط ، أمر طبيعي من كاتب ، وهب نفسه وحياته وطموحه للكتابة والانكباب على التأليف . فكان الخط وسيلته الأولى لتحقيق ذاته وإشباع فهمه فسي الكتابة ، والتعبير عن حقيقة ما يجول في خاطره ، وعقله من فكر وأدب وعلم

(١) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٧١ .

٣- العتد :-

هو الوسيلة الرابعة، من وسائل البيان ، حسب رأي الجاحظ ، " وهو الحساب دون اللفظ والخط " (١) . أي حساب الأصابع .

ولكي يدل على أهمية الحساب ، وعظيم نفعه ، يصدّر قوله في فضيلة العتد والحساب بشكل عام ، بالآيات القرآنية ، التي جاء فيها ذكر كلمة " الحساب " (٢) .

وللحساب منافع عديدة إذ " بحسبان منازل القمر ، عرفنا حالات المدّ والجـمـزر ، وكيف تكون الزيادة في الأهلة وأنصاف الشهور ، وكيف يكون النقصان في خلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار " ، ولذلك اقترن بالبيان في الآية القرآنية (الشمس والقمر) بحسبان (٣) ، فكان العتد وسيلة من وسائله (٤) .

ولعل أهمية الحساب الجلية وفهمها تكمن في أنها تؤدي وظيفة دينية ، حيث لولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا من الله عز وجل معـسـنى الحساب في الآخرة (٥) .

وهنا الربط ، ما بين المعنى الحقيقي للفظ ، والمعنى الاصطلاحي الذي تنتقل إليه حسب سياق الحديث . فإذا كان الحديث يدور حول علم الحساب ، كان المعـسـنى الحقيقي هو المقصود ، وإذا دار الحديث حول حساب الناس في الآخرة ، كان المعـسـنى الاصطلاحي هو المقصود . ولولا فهم المعنى الأول ، لما صحّ فهم المعنى الثاني الذي انتقلت إليه اللفظة بنزول القرآن الكريم .

- (١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨٠ .
- (٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٨٠ ، وانظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٦ - ٤٧ .
- (٣) الرحمن ، ٥ ، وانظر ، الآيات ١ - ٤ ، من السورة نفسها .
- (٤) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٦ - ٤٧ .
- (٥) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨٠ .

والجاحظ ، هذا العالم الذي يقدّر لكل أمة ولكل شعب من شعوب العالم ، هباته الحضارية ، للبشرية جمعاء ، وفنراه ينهل من فلسفة أرسطو اليوناني وعلمه ، ومن شعراء العجم والعرب على السواء ، شرط أن يكون الشعر جيداً ، ومن أقوال الهند والفرس واليونان في البلاغة . . . فإنه لا ينكر على أهل الهند ، فضل خطوطهم في حفظ الحساب من الضياع ، وبالتالي حفظ الحضارة الإنسانية . وإن أن الحساب من المعارف الأساسية التي تبنى عليها الحضارة ، فإذا ضاع " لصاروا في حال معجزة وحسرة ، وإلى حال مضيعة وكلال حسد " (١) .

وينتهي حديثه عن العقد ، بتلخيص أهميته ، بالإضافة إلى أهمية وسيلتي البيان : اللفظ والخط ، فيقول : " وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد فسادٌ جُلُّ التّعَمُّ ، وفقدانُ جمهور المنافع ، واختلالُ كلِّ ما جعله الله عزّ وجلّ لنا قواماً ، ومصلحةً ونظاماً " (٢) .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨٠ .

٤- التَّصْبِيَة :-

٦) وهي الوسيلة الخامسة والأخيرة ، التي يضيفها الجاحظ ، إلى الوسائل الأربع الأولى . ولعل هذه الإضافة ، جاءت من تأثير الاعتزال ، الذي يدعو إلى تحكيم العقل ، ومراقبة ظواهر الخلق والتفكر فيها .

٧) ولقد سبق العرض لمحاولات الجاحظ ، في تعريف هذه الوسيلة (١) ، حيث فاز مصطلح " النصبة " من بين هذه التسميات ، وذلك في محاولته الأخيرة لتعريفها وتوضيحها . حيث يقول : " وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ ، والمشييرة بغير البعد ، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض ، وفي كل صامت وناطق ، وجامد وتسام ، ومقيم وظاعن ، وزائد وناقص . فالدلالة التي في الموات الجامدة ، كالدلالة التي في الحيوان الناطق . فالصامت ناطق من جهة الدلالة ، والعجماء معربة من جهة البرهان (٢) ما دام ذلك الصامت دليلا ، وتلك العجماء برهانا على ابداع الله وخلق ووجوده .

ولإسناد قوله ، يلجأ إلى الاستشهاد بالأقوال المختلفة ، في أهمية التَّصْبِيَة باعتبارها وسيلة من وسائل البيان (٣) .

٨) ومفهوم النصبة متعارف عليه في جميع اللغات ، حيث " متى دلّ الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتا ، وأشار إليه وإن كان ساكتا . وهذا القول شائع في جميع اللغات ، ويتفق عليه مع افراط الاختلافات " (٤) . وليس معنى ذلك أن الجاحظ ، مطلع على اللغات جميعها ، وإنما يعني أنه قد اطلع على هذا القول ، من مصادر متعددة ، ويدل على وجود هذه الفكرة في اللغات المختلفة ، إما عن طريق الترجمة أو ما شابهه .

وأخيرا ، يعتبر الميرالم بأكمله حكمة ، تدل على وجود الخالق ، وهذه

الحكمة ، على نوعين :-

- (١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧٦ ، وانظر الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٣ - ٣٥ ، ٤٥ - ٤٦ .
- (٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨١ . وانظر ادريس بلطيج ، الرواية البانية عند الجاحظ ، الدار البيضاء ، المغرب ، ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ٨٢٠ .
- (٣) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨١ - ٨٢ .
- (٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٨١ - ٨٢ .

الأول : هو الدليل الذي لا يستدل ، أي غير العاقل وهو " النصبية " .

والثاني : هو الدليل المُستدل : أي العاقل الذي هو في حد ذاته دليل ، وفيه في الوقت نفسه يستدل على وجود الله من خلال الأدلة التي أمامه ، ليستنتج أن " كـل مستدل دليل وليس كل دليل مستدل " ، فشارك كل حيوان سوى الإنسان جميع الجمادات في الدلالة وفي عدم الاستدلال ، واجتمع للإنسان أن كان دليلاً مُستدلاً (١) .

أما عن علاقة هذا الكلام الفلسفي الفكري ، بالأدب واللغة ، فيتابع الجاحظ ، موضحاً نفسه ، ومنتهياً إلى النتيجة التي يصبو إليها فيقول : " ثم جعل للمستدل سبب يدل به على وجوده استدلاله ، ووجوده ما نتج له الاستدلال ، وسموا ذلك بياناً " . مبيناً بذلك كيفية نشوء البيان ، وتلك العلاقة بين الحاجة الانسانية الفكرية ، وبين البيان والتعبير

الأدبي ٢٠

الفصل الثاني

النقد التطبيقي عند الجاحظ :-

١ . نقد اللغة وعلم اللسانيات

٢ . نقد الشعر وفنونه

٣ . نقد النثر

١. نقد اللغة وعلم اللسانيات

أ - اللغة :-

لقد سبقَت الإشارة ، إلى نظرية الأصل في اللغة عند الجاحظ (١) ، كما سبقَت الإشارة إلى ما يسمى بعلم اللغة العام ، في معرض حديثه عن النصبية ، حيث يرى أن مفهوم هذه الوسيلة يكمن في أن كل ما في الكون يبين عن نفسه ويشكل دليلاً على قدرة الخالق وإبداعه سواء أكان دليلاً يستدلّ أو لا يستدلّ ، ويخبر من المعنى الذي تدل عليه عليه هيئته . وهذا المفهوم موجود في كل اللغات وعند كل الأمم (٢) . مما يدل على أن هناك أموراً ، تدخل في الفكر اللغوي العام ، ولا تختص بلغة دون أخرى .

ولعلّه في حديثه عن العلوم البلاغية المختلفة ، واللسانيات ، إنما يحدّد مسالسم فكرته اللغوية العامة ، لا سيّما عند حديثه عن البيان ، من مثل مطابقة اللفظ لمعناه ، ومناسبة المقال لمقتضى الحال . بل يذهب إلى الحديث عن منطق الطير ، والحروف التي ينطقها الحيوان ، . . . وربما يكون هذا سبباً من الأسباب التي دعت إلى الاهتمام بعلم البيان بشكل خاص ، فيرقى باللغة ، من حيث كونها لغة ، وبما أنه يتحدّث من موقع كونه عربي اللسان ، فهو بالضرورة ، يهتم باللغة العربية ، أولاً وأخيراً . وهو حين يرى أن قضية مطابقة اللفظ للمعنى مثلاً ، قضية تهمل اللغات جميعها ، فينبغي إذن أن يراعي كل أدب علمي سطح البسيطة ، هذه القضية ، لكي يكون أدبه مفهوماً . وكذلك الحال بالنسبة لمطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ولإيجاز . . . من ذلك مثلاً حين يرى أن جميع الأمم اعتُمدت على تفضيل الإيجاز في صدر رسالته " البلاغة والإيجاز " (٣) .

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٦٢

(٢) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨١ - ٨٢ ، وانظر ، محمد الصغير بناني ، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين ، الجزائر ١٩٨٣ ، ص ١٠٩ - ١٣٦ .

(٣) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٥١

والدليل على ذلك ، أن القارئ حين يقلّب صفحات كتبه ، يجد لا يأخذ بأقوال المعجم كما يأخذ بأقوال العرب ، ولعلّ خير مثال على ذلك ، في معرض حديثه عن البلاغة إن يعرض لما قيل في تعريفها وتحديد ها ، عند الشعوب المختلفة ، فيعرض قول الفارسي واليوناني والرومي والهندي (١) .

بل ، إنه يتأثر في بعض هذه التعريفات ، حين يرى أن البلاغة هي " إصابة المعنى ، والقصد إلى الحجة مع الإيجاز ، ومعرفة الفصل من الوصل " (٢) .

فقوله : " معرفة الفصل من الوصل " مثلاً ، مأخوذ من تعريف الفارسي للبلاغة . . (٣) فهو إذن ينهل من التراث الإنساني ، ولا يحصر نفسه بالتراث العربي وحسب ، لأنه يعرف حق المعرفة ، أن هذا التراث العربي ، هو جزء من التراث الإنساني العام يؤثر أحدهما في الآخر ويتأثر به

ولعلّ تكوينه الثقافي الواسع هذا ، جاء من تأثير الاعتزال ، الذي لا يضع للمعرفة حدوداً ، ولا يقيد العالم ، بعلم معين دون غيره ، فكانت ثقافة الجاحظ موسوعية . وكذلك هي الحال في استشهاد المتكّرر ، بأقوال من كتب أرسطو ، أو " صاحب المنطق " كما يحلوه أن ينعت ، وأقوال ذوي التجارب والخبرة و " جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني " . . .

ولا تزال ، في جعبته ، آراء عميقة ، في هذا العلم ، علم اللغة ، حيث لاحظ ، أن هناك لغات ، تصعب على المتعلّم ، أكثر من غيرها من اللغات ، فيرى أن السبب في ذلك ، إنما يعود إلى ثلاثة أمور :-

الأول : يعتمد على مدى جهل المتعلّم بتلك اللغة و " بأمكانها التي وضعت فيها " .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨٨ ، وما بعده .

(٢) رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٥١ .

(٣) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٨٨ .

والثاني: يعتمد على اللغة نفسها من حيث "كثرة العدد وقلته، وعلى قدر مخرجها، وخفتها وسلاستها، وثقلها وتعقد ها في نفسها". ويضرب على ذلك مثالا، في الفرق ما بين سهولة لغة الزنج، وصعوبة لغة الخوز.

والثالث: يعتمد على مدى الحاجة إلى تعلم تلك اللغة، لأنها تشكل الدافعية الرئيسي، للجدية في تعلم اللغة، وبالتالي إتقانها (١). وهذا والجاحظ رَأَمَ الربط بين حاجة الإنسان وواقعه، وبين البلوغ في العلوم والآداب المختلفة. فإذا دعت الحاجة إلى الممارسة المتواصلة للغة، فإن المتعلم يبلغ منها مبلغا حسنا، وإذا اقتضته الحاجة، إلى التعامل المؤقت أو القليل مع أصحاب تلك اللغة، فلا يبلغ منها سوى ما يسد به حاجته من التعلم.

ولذلك فإنه يرى أن "ليس ينبغي للعاقل أن يسوم اللغات ما ليس فسي طاقاتها، ويسوم النفوس ما ليس في جبلتها" (٢)، فلغة طاقتها، كما أن للنفس طاقاتها واحتمالها، فلا ينبغي لذي العقل أن يتكلف الألفاظ تكلفا، ويحمل اللغة فوق ما تحتمل، كما لا ينبغي أن يحمل نفسه فوق ما تستطيع. ولكل أمر من أمور الحياة، طرفان يوشران بعضهما في بعض، لذلك ينبغي أن لا تكون اللغة متكلفة، حتى لا تقع فوق احتمال المتلقين، كما ينبغي أن يهيئ المتلقي نفسه وعقله لفهم ما يقال. ولقد سبقت إشارة الجاحظ، إلى هذه العلاقة بين المتفطن والمتلقي، غير مرة في هذا البحث.

ويتطرق إلى تأثير اللغة، بلغة من نزل في أرضها من الأقوام الأخرى، كما تأثرت مواضع من بلاد العراق، بلغة من نزل فيها من الفرس. ولم يقتصر هذا التأثير على العراق، وإنما نجد "أهل المدينة لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم". ويأتي الجاحظ بأمثلة من تلك الألفاظ الفارسية التي دخلت إلى لغة العامة، فصاروا يذكرونها، ويهملون الألفاظ العربية الأصلية. ولعل بعض هذه الألفاظ مستعملة

(١) انظر، الحيوان، ج ٥، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

(٢) نفسه، ج ٦، ص ٨.

حتى وقتنا الحاضر، بل إنها انتقلت مع الوقت إلى بلاد الشام، من ذلك مثلاً استبدال الناصية كلمة الخيار بالقثاء العربية، فلقد انتقلت هذه الكلمة الفارسية إلى الكوفة فيقول: "ويستمنون القثاء خياراً"، والخيار بالفارسية "وغير ذلك من الألفاظ ذات الأصل الفارسي (١). ولعلّه لا يقصد تأثر اللغة العربية الفصحى، بل يقصد اللغة المحكية المتداولة بين العامة. وهو لا يجد غضاظة من الاعتراف، بأن العرب قد تأثروا بألفاظ الفرس، فاللغات جميعها تتأثر فيها بينها، الفصحى منها والعامي، ولا توجد لغة بمنأى عن هذا التأثر.

ويعتدل سبب اختلاف اللهجات بين البلدان العربية واختلاف بعض ألفاظها بأن ذلك إنما كان على حسب من نزل فيها من القبائل العربية أصلاً، ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر (٢).

من ناحية أخرى، يقول: "واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتهما" (٣). وذلك لأن إتقان المرء لأحدى اللغتين يكون أقوى من إتقانه للغة الثانية. ويميل إلى أحداها أكثر من الأخرى، ولذلك لا يكون مستواء واحداً في كلتا اللغتين. مما يفسر سبب تعجبه من قدرة موسى بن سيار الأسواري، على إتقان اللغتين: العربية والفارسية، إتقاناً تاماً ومتساوياً، حيث كان يفسر القرآن الكريم بهاتين اللغتين "فلا يُدري بأي لسان هو أبين" (٤).

هذا، مع أن كلام المعجمي، ومخارج حروفه، تشبي بأصله، حتى ولو نشأ في بلاد العرب، وتكلم بلغتهم، متخيراً ألفاظها ومعانيها (٥).

ومع ذلك، فإن بعض الناس الموهوبين، يستطيعون محاكاة الآخرين بلهجاتهم ولفاتهم "نعم حتى تجده كأنه أطلع منهم"، بل إنّه قد يحاكي ذوى اللغات، والعاهات،

(١) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٩ - ٢٠.

(٢) انظر، نفسه، ج ١، ص ١٨.

(٣) نفسه، ج ١، ص ٣٦٨.

(٤) انظر، نفسه، ج ١، ص ٣٦٨.

(٥) انظر، نفسه، ج ١، ص ٦٩.

في ألفاظهم وصورهم ، كالأفأفأ ، والأعسى (١) . وغير ذلك من الأشكال والحركات والأصوات ، ومن هؤلاء ، أبو دبوبة الزنجي ، مولى آل زياد ، فقد كان يحاكي أصوات الحمار في صوت واحد ، وكذلك نباح الكلاب (٢) . فيمقلق قائلا :-

" ولذلك زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له العالم الصغير سليل العالم الكبير ، لأنه يصور بيديه كل صورة ، ويحاكي بفعه كل حكاية ، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم ، ويأكل الحيوان كما تأكل السباع ، وأن فيه من أخلاق جميع أجناس الحيوان أشكالا " (٣) .

فلا يزال الجاحظ في هذا المقام ، يربط ما بين التفسير العلمي والأدبي ، فالإنسان من حيث تكوينه العام ، يشابه الحيوان في بعض حركاته ، ويمقلد كل ما يرى ويسمع ، ولذلك استطاع أن يتعلم اللغات المختلفة ويمقلد اللهجات المتعددة ، ومن خالفه في الهيئته ، والصورة والحركة .

وأخيرا ، يبيدي رأيه في لغة الزنج ، مستحسنا إياها فيقول : " وليس في الأرض أحسن حلوقا منهم . وليس في الأرض لغة أخف على اللسان من لغتهم ، ولا في الأرض قوم أذرب ألسنة ، ولا أقل تمطيطا منهم .

وليس في الأرض قوم إلآ وأنت تصيب فيهم الأرت والأفأفأ والمعبي ، ومن في لسانه حبسة ، غيرهم " (٤) .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٩ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٠ .

(٤) رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

ب - اللّحن :-

لا شك أن قضية اللحن ، من القضايا التي تعاني منها اللغة ، حتى يومنا هذا ، والجاحظ ، يتطرق إلى هذه القضية ، دونما محاولة لإيجاد الحل لها ، مكتفيا بعرضها ، وإبداء انطباعه الخاص فيها .

فيرى أن اللحن قبيح ، لا سيما من أصحاب التكلف ، ومن الأعراب (١) . ربما لأن اللغة العربية الفصيحة الصحيحة ، تؤخذ من الأعراب الأقحاح ، الذين لم تؤثر فيهم المدنية ، فإذا ما تأثروا بها ، ولحنوا ، كان ذلك منهم قبيحا .

ويناقش هذه المسألة ، في معرض رده على من يدعي بأن المولّد قد يخطئ ، على خلاف الأعرابي الذي نشأ وترعرع على اللغة العربية ، معتبرا أن المولّد د خيل ، والأعرابي أصيل (٢) . فيقول : " فالعلماء الذين اتسعوا في علم العرب ، حتى صاروا إذا أخبروا عنهم بخبر كانوا الثقات فيما بيننا وبينهم ، هم الذين نقلوا إلينا . وسواء جعلناه كلاما وحديثا منشورا ، أو جعلناه رجزا وقصيда موزونا " (٣) .

فالأساس إذن ، هو العلم والاتساع في المعرفة . وعلى ذلك مدار الأمر ، لا على الأصل والنسب ، لأن العالم حين يتعمّق في علم العرب ويتوسّع فيه ولو كان عجمي الأصل فإنه يفد وثقة ويؤخذ عنه . ولذلك فعين يتناهى إليه خبر ما ، فهو لا يطمئن إلّا إلى مسألة الأعراب للتأكد من صحته أو عدمها . وفي الوقت ذاته ، لا يأخذ من ينكر فسي كلامه خطأ في الإعراب ، أو لحن أو ما شابه (٤) .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٢) انظر ، الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٣) نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

ومن أهل الوبر ، ينتقل إلى لحن أهل المدر ، فيقول : " ولأهل المدينة السنين
ذلة وألفاظ حسنة ، وعارة جيدة . واللحن في عوامهم فاشر ، وعلى من لم ينظر في النحو
منهم غالب " (١) . غير أنه لا يعلل السبب ، ربما لأنه معروف لدى الجميع . ولعل
من أبرز الأسباب ، اختلاط أهل المدن بالعجم الذين ينزلون في أرضهم ، ولقد سبق
إشارته إلى تأثير عامة العرب في المدينة والكوفة والبصرة ، بألفاظ الفرس ، وهو " العجم
حين يتكلمون باللغة العربية لا شك يلحنون ، فيتأثر العرب بلحنهم كذلك وتضعف لفتهم
مع مرور الزمن .

ويدور الجدال حول ، إغفاق الجاحظ في فهم قصد مالك بن أسامة حين قال :-

أَمَفَطَى مَنِّي عَلَى بَصْرِي لِلْـ
حُبِّ أَمْ أَنْتِ أَكْمَلُ النَّاسِ حُسْنًا
وَحَدِيثُ أَلَدِّهِ هُوَ مَسْمُومًا
يَنْعَتُ النَّاعَتُونَ يَوْزَنُ وَزْنًا
مَنْطِقٌ صَائِبٌ وَتَلْحَنُ أَحْيَا
نَاً وَأَحْلَى الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا " (٢)

فيقول : " واللحن من الجواري الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب المـ
ومن ذوات الخدور الغرائر أيسر . وربما استلج الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية
صاحبة تكلف ، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد " (٣) .

فمن الواضح ، أنه لم يتبادر إلى ذهنه ، سوى اللحن بمعنى الخطأ (٤) . ولم يخطر
على باله في لحظة هذا التعليق ، أن المقصود من سياق المعنى العام لهذا الشعر ،

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٧ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٤) " واللحن والتلحين والليانة والليانة : ترك الصواب في القراءة والنشيد ونحو ذلك . . . والتلحين : التخطئة . . . قال ابن الأثير : اللحن الميل عن جهة الاستقامة ، يقال : لحن فلان في كلامه إذا مال عن صحيح المنطق . . . لسان العرب (لحن) .

أنه اللحن بمعنى التعريض ، أو التورية بشيء عن شيء (١) . ويذكر ابن منظور أبيات مالك بن أسماء ، المذكورة ، فيقول : " يريد أنها تتكلم بشيء وهي تريد غيره ، وتُعَرِّضُ في حديثها فتزِيلُهُ عن جَهْتِهِ من فِطْنَتِهَا وكان اللحن في العربية راجع إلى هذا ، لأنه من الغدول عن الصواب " (٢) .

ولذلك ، فلقد حاول الجاحظ ، أن يجد مخرجاً ، أو سبيلاً ، يعلّل به سبب استحسان الشاعر للحن الجوّاري الظريفات والشّابات المليحات . (بمعنى الخطأ) ، والدليل على ذلك قوله " أيسر " ، أي أن الخطأ قبيح ولكنه أيسر إذا كان من الجوّاري المليحات وكذلك قوله " وربما استلح " ، أي أنه يحاول تحليل سبب استملاح بعض الرجال الخطأ من الفتيات الظريفات .

ولشعر مالك بن أسماء هذا ، قصّة مع الجاحظ ، ترويه مصادر متعدّدة (٣) ، إن بيد وأنس . تنبّه لحقيقة معنى اللحن المقصود في الأبيات المذكورة فيما بعد ، من ذلك يقول ياقوت : " وحدّث يحيى بن عليّ بن المنجّم قال : قلت للجاحظ : مثلك فيسي علمك ومقدارك في الأدب يقول في كتاب البيان والتبيين : ويكره للجارية أن تشبه بالرجال في فصاحتها ، ألا ترى إلى قول مالك بن أسماء الفزاري :-

وحدّث ألدّه هو مينا
ينعت الناعتون يؤزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحياء
نا ، وخير الحديث ما كان لحناً

(١) " . . . وَلَحَنَ لَهُ يَلْحَنُ لَحْنًا : قال له قولاً يفهمه عنه ويخفى على غيره ، لأنه يُعِيلُ بالتورية عن الواضح المفهوم " لسان العرب (لحن) .

(٢) لسان العرب (لحن) .

(٣) انظر ، ياقوت ، معجم الأدباء ، دار المستشرق ، بيروت - لبنان / ج ١٦ ، ص ٨٩ - ٩٠ ، وانظر ، الخطيب البغدادي - الحافظ أبو بكر أحمد بن علي ، تاريخ بغداد ، دار الكتاب العربي بيروت - لبنان / ج ١٢ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ ، وانظر ، الشريف المرتضى - علي بن الحسين الموسوي العلوي ، أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م / ج ١ ، ص ١٥ - ١٦ .

فتراه من لحن الأعراب ، وإنما وصفها بالظن والغطن وإنما تلحن أى توري في لفظها عن أشياء وتتنكب ما قصدت له ، فقال : كُطِنْتُ لذلك . قلت : ففهره قال : فكيف لي بما سارت به الرُكبان ؟ فهو في كتابه على خطأه (١) .

ويذكر ياقوت شرح أبي محكم ، لهذه الأبيات ، وذلك على الإيما والتورية (٢) . كما يعرض لدفاع أبي حيان التوحيدي عن الجاحظ ، بأن اللحن بمعنى الخطأ ، من الفتيات والفواني مقبول ، بل ومستحب " لأنه بالتأنيث أشبه . . . " وذلك " لأن مقابيل المنطق الصائب المنطق الملحون " ، وليس ببعيد أن هذا ما يقصده الشاعر ، هذا من ناحية . أما إذا كان المقصود باللحن هو التورية والتعريض على مذهب علي بن يحيى ، فليس معنى ذلك أن اللحن بمعنى الخطأ يعتبر " لهوجاً ومردوداً " وقد يجوز أن يكون مراد الشاعر ذلك ، لأن الشاعر يشعر بهذا كما يشعر بهذا (٣) .

يعرض ياقوت الآراء المختلفة في تفسير مفهوم اللحن ، ومن الواضح أنه يرجح السرى الآخر الذي يخالف ما ذهب إليه الجاحظ ، ويختم أبا حيان التوحيدى الذى انتصر لـ يرى الجاحظ فيقول ياقوت : " وقد انتصر أبو حيان لهذا القول الذى اعترف الجاحظ بخطئه فيه " (٤)

وعند المقابلة ، بين شرح الجاحظ لأبيات مالك بن أسماء ، ونقل ياقوت لهذا الشرح في معجم الأدياء يلاحظ الاختلاف في النص . حيث لم ينقل ياقوت النص بصورة حرفية .

- (١) معجم الأدياء ، ج ١٦ ، ص ٨٩ - ٩٠ .
- (٢) انظر ، نفسه ، ج ١٦ ، ص ٩٠ .
- (٣) انظر ، نفسه ، ج ١٦ ، ص ٩٠ - ٩١ .
- (٤) نفسه ، ج ١٦ ، ص ٩٠ .

ج - الترجمة :-

(لعل الترجمة ، من القضايا اللغوية المهمة عند الجاحظ ، فهو لا يكتفي بما ينهل من التراث العربي ، بل يدفعه شغفه بالمعرفة ، إلى الاطلاع على ما يترجم من التراث الإنساني ، فكثيرا ما يذكر لنا كتابي " الحيوان " و " المنطق " لأرسطو ، وكتاب اقليدس ... مستشهدا تارة ، وناقدا تارة ، وقد يكتفي بالعرض مشوا ببعض التشكيك باستعمال كلمات مثل " زعم " وغيرها ، تارة أخرى .)

(ولكي تكون الترجمة دقيقة صحيحة ، ينبغي أن يتصف المترجم ، بأمور منها " أن يكون بياها في نفس الترجمة في وزن علمه في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللفظة المنقولة والمنقول إليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية " (١) . هذا ، مع العلم أن اللغتين إذا اجتمعتا في لسان واحد ، فلا مقل من أن يدخل الضيم عليهما ، إذ توءثران في بعضهما بعضا فتتداخل أساليبيهما ، وطرائقيهما في التعبير ، لما قد يسبب للمترجم بعض الإرباك .

ولتقان اللغة الواحدة ، ليس لإتقان لغتين أو أكثر ، ويعمل ذلك ، بأن القوة في الإنسان واحدة ، فإذا أن تنصب كلها على لفته الأم وحسب ، وإذا أن تتوزع على اللغات الأخرى التي يتعلمها إلى جانب لفته ، وفي الحالة الأولى ، فإن اللغة الواحدة تستهلك قوته كلها فيتمكن منها ، وأما في الحالة الثانية ، فإن إتقانه لكل لغة على حدة يكون أقل وأضعف لأن قوته متوزعة عليها جميعا (٢) .

وقد تصعب اللغة على المترجم ، ويكثر خطؤه فيها ، على حسب صعوبة العلم الذي هو بصد ترجمته ، ووضيقتة وقلة العلماء فيه ، هذا والمترجم لا يحل محل واحد من هؤلاء العلماء الذين ينقل عنهم ، لأن العالم هو كاتب كذلك ، أما المترجم ، فـ

(١) الحيوان ، ج ١ ، ص ٧٦ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٦ - ٧٧ .

مهمته محصورة في النقل عن اللغة الأخرى وحسب ، ولذلك فهو لا يفني العالم حقاً —
عند الترجمة (١) .

فإذا كانت ، هذه هي حال ترجمة الكتب في العلوم والمعارف المختلفة ، فكيف تكون الحال إذا ن عند ترجمة كتب الدين والأدب والعلوم الإنسانية ، إذ لا شك أن المهمة تغدو أشد وأصعب على المترجم وذلك بسبب القضايا الفكرية والدينية واللغوية المتشعبة ، التي على المترجم أن يكون عالماً بها عند ترجمته كتب الدين ، على ما يحمل نفسه فيها ، من المشقة ، فمعاينة الخطأ فيها أشد من عاقبة الخطأ في الموضوعات الأخرى (٢) .

فإذا لم يكن المترجم على مستوى المعرفة ، فإنه يخطئ ، بقدر نقصانه من كمال المعرفة ، هذا مع العلم أن هنالك من العلوم الكثيرة والقضايا ما لا يستطيع المترجم الإحاطة بها (٣) .

فإذا كان هناك حاذق باللغة اليونانية على سبيل المثال ، وآخر حاذق باللغة العربية ، وكان العربي مقصراً في بلاغته باللغة اليونانية ، عن بلاغة اليوناني ، فإن الحاذق باليونانية هذا ، حين يطلع على النص اليوناني مترجماً إلى اللغة العربية ، فإنه لا يرضى ببلاغة النص المترجم ، إلا أنه لا يجد بداً من التجاوز عن هذا التقصير (٤) . وهذا يدل على أن التأليف المختلفة ، حينما تترجم وتنقل إلى لغات أخرى ، فإنها تفقد من مستوى بلاغتها ، إذ لا تكون كما كانت عليه في لغاتها الأصلية .

ويعرض الجاحظ ، لتصحيح النسخ بعد الترجمة ، فيقول : " ثم يصير إلى ما يعرض من الآفات لأصناف الناسخين ، وذلك أن نسخته لا يعمدها الخطأ ، ثم ينسخ له من تلك النسخة من يزيده من الخطأ الذي يجده في النسخة ، ثم لا ينقص منه ، ثم يعرض

(١) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٧٧ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٨ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٨ .

بذلك من يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله ، إذا كان ليس من طاقته إصلاح السقط الذي لا يجده في نسخته * (١) .

ويشير إلى الخطأ الذي قد يقع فيه المترجم ، من ذلك مثلاً ، ترجمته قول أرسطو ، بعداوة الثعلب للزرق ، فيدحض الجاحظ هذا القول منطقياً وبالتحليل العلمي ، ولذلك يقول * ولعل المترجم قد أساء في الاخبار عنه * ، فهو يرجح إذن ، خطأ المترجم وذلك لأمرين :

الأول : أنه لم يسمع قط أن أرسطو قد قال مثل هذا القول .

والثاني : أن التحليل المنطقي يدحض معاداة الثعلب للزرق ، من بين جميع أكلة اللحم ، ويجتهد بقول يراه أقهر إلى حقيقة ما زعم صاحب المنطق (٢) ، مما يدل على أنه لا يأخذ الكلام المترجم على عواهنه والتسليم به ، دون تفكير أو مناقشة عقلية ، لأنه يضع نصب عينيه ، إمكانية وقوع المترجم في الخطأ والزلل .

بل قد لا تخلو الترجمات من أكاذيب المترجمين ، أو من زيادة على الأصل ، وفساد تأويل بسبب جهل المترجم نفسه ، ومن فساد النسخ ، وقد تتعرض الترجمات إلى أنواع من التبديل والتغيير ، مع مرور العصور والأزمنة عليها (٣) .

ويشير إلى ترجمة الأمثال ، وما ينتج عنها من خلاف ، ومن ذلك الخلاف الذي حدث حول ترجمة لابن المقفع ، يقول : * وفي كتاب كليله ودمنه : * وَكُنْ كَالنَّسْرِ حَوْلَهُ الْجَيْفِ ، ولا تكن كالجيف حولها النسور * . فاعترض على ترجمة ابن المقفع بعض المتكلفين من فتيان الكتاب فقال : إنما كان ينبغي أن يقول : * كن كالنَّسْرِ حَقّاً بِالتَّحَفِ ، ولا تكن كالهَبْرَةِ تَطِيفُ بِهَا الْأَكَلَةُ * . وأظنه أراد الضروس فقال الضرس . وهذا من الاعتراض عجيب * (٤) .

(١) الحيوان ، ج ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٨٠ .

(٤) نفسه ، ج ٦ ، ص ٣٣٠ .

فالجاحظ يستنكر هذه التسميات المستندة إلى مختلف التعليقات في التناسل بين الحيوانات المختلفة الأجناس، فيعلق :-

"وهؤلاء" وما أشبههم يفسدون العلم، ويبتهمون الكتب، وتفرهم كثرة أتباعهم ممن تجدهم مستهترا بسماع الغريب، ومفرما بالطرائف والبدائع. ولو أعطوا مع هذا الاستهتار نصيبا من الثبوت، وحظا من التوقي، لسلمت الكتب من كثير من الفساد" (١).
ومن الترجمات كذلك، يقول في معرض روايته لأحد أخبار البخلاء: "... فقال: لو خرجت من جلدك لم أعرفك. ترجمة هذا الكلام بالفارسية: "أكرا زيوست بهارون بيائسي نشنا سستم" (٢).

وهذه الأمثلة المذكورة، قد تشكل خيوطا دالة على أن الجاحظ كان مطلعا على اللغة الفارسية، بحكم التجاور مع الفرس، وانتقال الألفاظ الفارسية إلى لغة العامة في العراق، ولكنها لا تشكل في حد ذاتها دليلا على أنه كان قد درسها، أو تعمق فيها بالضرورة.

(١) الحيوان، ج ١، ص ١٤٤.

(٢) البخلاء، ص ٢٢.

د - الفصاحة :-

والفصاحة عند الجاحظ ، ضد العجمة ، ويمضي في توضيح كلا المصطلحين ، فيقول :
" والفصيح هو الإنسان ، والأعجم كل ذي صوت لا يفهم إرادته إلا ما كان من جنسه " . (١)

ولذلك ، كان كل شبيه يفهم عن شبيهه ، من أصناف الحيوان المختلفة (٢) ، فهسي
إذن عجماء .

أما الإنسان فهو فصيح ، من حيث كونه ذلك النوع من الكائنات الحية ، أي من
حيث كونه إنساناً " وإن عبر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية " ، على الرغم من
أن العربي مشـ... لا يفهم " طسطة " الرومي ، فإن الرومي كذلك لا يفهم " بيان "
العربي . " فكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح " . هذا من حيث المقارنة العامة
بين الفصاحة والعجمة ، أي " إذا قالوا : فصيح وأعجم " .

ولكن هناك مصطلح آخر ، راجع العرب على ذكره وهو مصطلح " العرب والعجم " ،
وهنا يختلف المعنى ، حيث يراد به في هذا المقام " أنه لا يتكلم بالعربية ، وأن العرب
لا تفهم عنه " (٣) .

ومن الملاحظ أن اللبس يقع في " العجمة " حيث إن هذا المصطلح ، يرد فسي
كلا المفهومين ، ولذلك فإن دلالة العجمة تختلف في السياق الذي ترد فيه ، فـ... إذا
اقتربت بالفصاحة ، فهي تكون على المعنى الأول ، أي الحيوان ، حيث الفصيح هو الإنسان ،
أما إذا اقتربت دلالة العجمة هذه ، بالعرب ، فتكون عندئذ على المعنى الثاني ،
أي غير العرب . وأن استعمال " العجمة " في معان مختلفة ، سواء أكانت للأصل

(١) الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٢ ، وانظر ، نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤٥ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٤) من ذلك " الأعجم : الأخرس . والعجماء والمستعجم : كل بهيمة . . . ويقال : قرأ
فلان فاستعجم عليه ما يقروءه ، إذا التبس عليه فلم ينتهياً له أن يمضي فيه . . . واستعجمت
على المصلي قراءته إذا لم تحضره . واستعجم الرجل : سكت . . . إضافة إلى معانسي
أخرى متعددة ، لسان العرب (عجم) .

الذي وضعت فيه هذه اللفظة من أجله ، أم كانت للمعنى الاصطلاحي ، في مقابلة "العرب والعجم" قد يوحي بإحساس العرب باستدلائهم ، وذلك لتفوق لغتهم على سائر لغات الشعوب الأخرى ، وكذلك في تسمية الجاحظ للغة الرومي "طمطة" ولغة العربي "بيسان" .

ولعل هنالك تفرقة أخرى ، ما بين النسبة إلى العجمة ، في كلا المعنيين ، حيث الملاحظ أن العجمة من حيث كونها ضد الفصاحة ، فإن النسبة إليها "أعجم" (١) ، أما العجمة من حيث نسبتها إلى غير العرب ، فيقال عجمي ، حيث يطلعها الجاحظ ، فسي صيغة الجمع في قوله "العجم" (٢) .

وإذا كان "الأعجم" ، من لا يفهم عنه إلا من كان من جنسه من أنواع الحيوان (٣) فإنه يستدرك على قوله ، فيرى أن الإنسان يفهم على الحيوانات المختلفة الكثير من إراداتها وحوائجها ، كما يفهم عن الرضيع في مهده من بكائه وضحكه . . . الكثير من احتياجاته كذلك (٤) . ولعل حديثه عن منطق الطير وميانه مؤيدا بالآيات القرآنية ، والأشعار ، وكلام العرب ، إنما هو من هذا القبيل (٥) .

والأعجم ، خلاف الصامت ، حيث يبين أن الصامت هو الجامد ، يقول : "ويقال "جاء بما صأى وصمت" . فالصامت مثل الذهب والفضة ، وقوله صأى يعني الحيوان كلّه ومعناه نطق وسكت ، فالصامت في كلّ شيء سوى الحيوان" (٦) .

وأخيرا ، ينهي الجاحظ هذا البحث ، بوقوفه وقفة متأنية عند أهمية الفصاحة ، ويفضي به الحديث إلى الدخول في مجال الغيبيات ، حيث يقول إن الأطفال والخمسة

- (١) انظر، الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٢
- (٢) انظر، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢ ، والبحث ، ص ١٢٧ ، وفي لسان العرب (عجم) : "يقال : عجمي وجمعه عجم ، وخلافه عربي وجمعه عرب . . . والعجم : جمع الأعجم الذي لا يفصح ويجوز أن يكون العجم جمع العجم ، فكأنه جمع الجمع . . . يقال : هو "لا" العجم والعرب . . . قال أبو اسحاق : الأعجم الذي لا يفصح ، ولا يبين كلامه وإن كان عربي النسب كزياد الأعجم . . . فأما العجمي فالذي من جنس العجم . . ."
- (٣) انظر، الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٢
- (٤) انظر، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢
- (٥) انظر، نفسه ، ج ٧ ، ص ٥٧ - ٥٨
- (٦) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٣

يدخلون الجنة بفصاحة أهلها ، وكذلك حين تكلم عيسى بن مريم في المهد ،
وحين نطق يحيى عليه السلام بالحكمة وهو بعد صبي ، وكذلك القول في
آدم وحواء عليهما السلام وكذلك كل شيء أنطقه الله بقدرته ،
وسخره لمعرفته * (١)

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

إنَّ اللسانيات ، من العلوم المكتملة لعلم البلاغة ، وعلم البيان بشكل خاص ، وإنَّ لا بدَّ لتمام بيان اللسان ، وفصاحته ، من إتقان مخارج الحروف ، حيث إنَّ هذا الفن وسيلة لها أثرها البعيد ، وعلى الأخص في المقامات التي يحتاج فيها إلى الخطابة ، السستي تعتمد اعتماداً كبيراً على جهازة الصوت ، وإتقان مخارج الحروف

فبعد انتهاء الجاحظ من عرضه للاقتران في الألفاظ (١) ، يبدأ حديثه عن اقتران الحروف ، حيث يبيِّن كيف أنَّ بعض الحروف إذا أُضيفت إلى بعض في اللفظ الواحد ، فسيان التنافر فيما بينها يظهر بوضوح كالجيم والظاء مثلاً ، يقول :
فأما في اقتران الحروف ، فإنَّ الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الفيم ،
بتقديم ولا بتأخير . والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال ، بتقديم ولا بتأخير : (٢) .

فينبغي أن تكون الحروف متلائمة فيما بينها ، لا يمسر على اللسان نطقها ، ولا يخذش الأذان سمعها ، فالحروف المتنافرة ، لا تتوالى في العربية الفصيحة ، فلا نرى الجيم تلي الظاء مباشرة ، أو تسبقها ، دونما فاصل ، ولذلك كانت اللغة العربية ، لفظة موسيقية ، إن جاز التعبير . فلا تخرج اللفظة متكلِّفة أو غريبة وحشية ، ثقيلة على اللسان ، صعبة المخرج . وإن وجدت بعض الألفاظ ، على هذه الشاكلة ، فإنها إما أن تكون قليلة الاستعمال ، كبعض ألفاظ الأعراب . أو أنها تتراجع مع تطوُّر الزمن ، فلا تعود مستعملة ، أو مقبولة .

ومثل هذه الحروف المتنافرة ، كثيرة ، ولا يسمح المجال بحصرها وتعدادها . ولذلك يكفي الجاحظ بذكر هذه الحروف ، لتكون مثالا على تنافر الحروف حيث منهجه يتمثل بالاستدلال على الكثير بالقليل ، وعلى الغاية بالقياس والتفكير ، فيقول : " وهذا

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٥ - ٦٨ .
(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٦٩ .

All Rights Reserved.- Library of University of Jordan, - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved.- Library of University of Jordan, - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved.- Library of University of Jordan, - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved.- Library of University of Jordan, - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved.- Library of University of Jordan, - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved.- Library of University of Jordan, - Center of Thesis Deposit

ومن تهتمت ثنياه ، فإن عجزه عن نطق حرفي الفاء والسين " إذا كانا في وسط الكلمة " يبدو جلياً واضحاً " . ويرى أن حرف الضاد ، إنما يخرج من الشدق الأيمن ، إلا إذا كان المتكلم يعمل بكلمتي يديه ، وكانت القوة فيهما متساوية ، فإنه يخرج الضاد من الشدق الأيمن أو الأيسر ، مثل عربن الخطاب .

ومن الملاحظ ، وجود التناقض ، بين قوله : إن الأعسر اليسر ، يستطيع إخراج الضاد ، من الشدق الأيمن أو الأيسر ، وقوله : إن الأضبط ليس بإمكانه ذلك إلا " بالاستكراه الشديد " . وذلك لأن الأضبط ، هو نفسه الأعسر اليسر (١) . فإذا كان بإمكان الأعسر اليسر إخراج الضاد " من أي شذقيه شاء " . فإن ذلك بإمكان الأضبط كذلك .

والظاهر ، أنه يؤكد ذلك ، بتشبيهه هذه العملية ، بعمل الهواء في المنخرين ، فيقول : " وكذلك الأنفاس مقسومة على المنخرين ، فحالا يكون في الاسترواح ، ودفع البخار من الجوف من الشق الأيمن ، وحالا يكون من الشق الأيسر ، ولا يجتمعان على ذلك في وقت إلا أن يستكره ذلك مستكره ، أو يتكلفه متكلف ، فأما إذا ترك أنفاسه على سجيته لئلا تكن إلا كما قالوا " (٢) .

وفي هذه الجملة الأخيرة " إلا كما قالوا " إشارة إلى أنه كان يطبق أحكام أهمل التجربة ، على أصوات ومخارج الحروف في اللغة العربية .

وسلامة الجوارح ، وصحة المخارج ، لها أثرها الكبير ، في إتقان الحروف ، ولعمل اللسان والأسنان ، هي التي عليها الاعتماد الأكبر في نطق الحروف .

(١) انظر ، لسان العرب " ضبط " .

(٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٢ - ٦٣ .

و- اللسان :-

واللسان ، أداة النطق الأولى ، التي لا غناء للمرء عنها ، فيمدد الجاحظ وظائفه وفوائده قائلا : " . . . في اللسان عشر خصال : أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق يرتد به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الأشياء ، وواعظ يعرف به القبيح ، ومعز يرتد به الأحرزان ، وخاصة يزهي بالصنعة ، ومُله يونق الأسساع " (١) .

ولا شك أن منافع اللسان ووظائفه الكلامية ، وهذه الخصال العشرة التي يذكرها ، إنما هي من قبيل الدلالة على مدى أهميته . ولذلك قال ضمرة بن ضمرة ، للنعمان بن المنذر ، حين استقبح منظره فقال " تسمع بالمعدي لا أن تراه " . فقال ضمرة إن الرجال لا يوزنون ، ولا يقاسون بالمظاهر ، وإنما المرء بأصفره : بقلبه ولسانه ، إن صال صال بجنان ، وإن قال قال ببيان " (٢) .

ويفسر بعض الأدباء التي تعرض للسان ، يقول : " ويقال في لسانه حُبة ، إذا كان الكلام يشغل عليه ولم يبلغ حد الغفاء والتمتاع . ويقال في لسانه عقلة ، إذا تعقل عليه الكلام . ويقال في لسانه كنة ، إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب ، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول ، فإذا قالوا في لسانه حكمة فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق ، وتجزأ أداة اللفظ ، حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال " (٣) .

مستشهدا لذلك بالأشعار المختلفة (٤) . من ذلك يقول : " وقال محمد بن زوئيب في مديح عبد الملك بن صالح :-

(١) رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣٧٩ .

(٢) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧١ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤٠ - ٤٢ .

وَفِيهِمْ قَوْلُ الْحُكْلِ لَوْ أَنَّ ذَرَّةً

تَسَاوَدَ أُخْرَى لَمْ يَفُتَّ سَوَادُهَا (١)

وفي مقابل ذلك ، يرى أن الإنسان ، يستطيع بما منح من القدرة والاستطاعة ،
تذليل جوارحه بالممارسة والصبر والمران الطويل ، لنطق الأحرف المختلفة التي لم يعقد
عليها وتستعصي عليه . " ومتى ترك شمائله على حالها ، ولسانه على سجيته ، كان مقصورا
بعادة المنشأ " فهذا هو الأصل ، أما إذا صم وأراد نطق حروف مختلفة عن حروف لغته ،
فإنه يستطيع ذلك بالتكلف الشديد . وهذه الخاصية ، يتميز الإنسان ، عن سائر المخلوقات
الأخرى ، وجميع أصناف الحيوان (٢) .

وهذه حال سائر جوارح الإنسان ، حيث المران يزيد من قوتها وفعاليتها ، والإهمال
يقلل من قوتها ويعقد هـا (٣) . حتى إن بعض الموهوبين ، يستطيعون محاكاة
من في ألسنتهم نقص كالفأفة مثلا ، بحيث يتقنونها بصورة أحسن من
الفأفأء نفسه (٤) .

هذا بصورة عامة ، ولكن في بعض الأحيان ، فإن ممارسة اللفظ بصوت معين ،
يوثدي إلى التأثير في اللسان من حيث تكوينه العضوي ، فلا يصبح قادرا على لفظ
أصوات أخرى وأحرف لم يعتد ها ، فالسنددي مثلا ، الذي نشأ على جعل الجيم
زايا ، فإنه لا يستطيع أن ينطق الجيم نطقا سليما ، حتى ولو أقام بين القبائل العربية
الصميمة خمسين عاما ، وهكذا الأمر بالنسبة لسائر الأجناس وأصحاب اللغات
المختلفة (٥) .

(١) البيان والتبيين ج ١ ، ص ٤٠ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٠ ، ٢٧٢ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

(٤) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٩٨ .

(٥) انظر ، البيان والتبيين ج ١ ، ص ٧٠ - ٧١ .

ويذهب الجاحظ في اهتمامه باللسان ، حدّا أنه يفرّد غاوين خاصّة يذكر فيهما
ما قيل في مديح اللسان (١) . ومن أمثلة ذلك ، يورد قول الشاعر :-

فما المرء إلا الأصفران : لسانه
ومعقوله والجسم خلق مصوّر
وما الزين في ثوبٍ تراه وإثما
يزين الفتى مخبوره حين يخبر
فان طرة راقتك منه فريثما

أمر مذاق العود والعود أخضر (٢)

وقول جرير :-

وليس لسيّفي في العظام بقية
وللسيف أشوى (٣) وقعة من لسانيا (٤)

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٦ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٦ .

(٣) " ويقال : كل شيء شوى ، أى هيّئ " لسان العرب " شوا " .

(٤) نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

ز- الأسنان :-

وكما أن للسان أثره في عملية النطق ، فكذلك الأسنان ، إلا أن أهميتها لا تعدل أهمية اللسان ، ولذلك لا يوليها الجاحظ ذلك الاهتمام الذي يولييه للسان .

ولقد أثبت التجارب أنه إذا سقطت الأسنان جميعها ، فإن ذلك أفضل في الإبانة من سقوط معظمها ، فإما أن تبقى كلها وإما أن تذهب جميعها ، حيث إنه إذا ذهب بعضها ، بقي بعضها الآخر ، فإن ذلك يؤدي إلى اختلال التوازن بينها ، فيختل بالتالي صحة النطق وحسن الإبانة (١) . ومن الملاحظ أنه يعتمد على تجارب الآخرين ولكنه لا يأخذ أقوالهم على التسليم بصحتها دون التأكد ، بالمعاينة الشخصية ، أو إعادة التجربة ، وتطبيقها . . . كما حدث مع رأي " أهل التجربة " (٢) ، ولذلك يقول معلقا : " وقد رأينا تصديق ذلك في أفواه قوم شاهد هم الناس بعد أن سقطت جميع أسنانهم ، وبعد أن بقي منها الثلث أو الربع " (٣) .

فإذا لم يتسن له أن يتحقق الأمر بنفسه ، وبالمشاهدة الخاصة ، فهو يستمد دليله ، من مشاهدات الناس ، وفي قوله " الناس " دليل على كثرة الأشخاص الذين عاينوا أولئك الذين سقطت أسنانهم جميعها ، وأولئك الذين بقي من أسنانهم بعضها .

وزيادة في التأكيد ، يذكر أسماء الأعلام الذين لم تؤثر سقوط أسنانهم على الإبانة عندهم (٤) . ومنهم " سفيان بن الأبرد الكلبسي " (٥) .

فهو إذن من محبذي المنهج التجريبي في البحث العلمي ، فإذا لم يستطع إجراء التجارب التي أجراها آخرون ، أو سابقون له ، بنفسه ، فإنه يلجأ إلى مقارنتها

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦١ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٦١ - ٦٢ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٦١ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٦١ .

(٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٦١ .

بتجارب وآراء علماء آخرين ، كما هو الأمر مع رأي " أهل التجربة " ، حيث وجدوا أنه إذا كانت اللثة ، حيث مواضع " مفارز الأسنان " متقلصة ، قليلة الارتفاع ، ذهبت الحروف وفسد البيان . فإذا كان مجال الهواء الذي يمر فيه اللسان ضيقاً ، حيث الأسنان تحيط بالفم من كل جانب فتقل من سعة مجال الهواء ، بحيث يصطدم بهما اللسان من كل جهة " وكان لسانه يملأ جوية فمه " فإن سقوط الأسنان عندئذ لا يفسد كثيراً (١) .

هذه مقولة " أهل التجربة " ، وما أن الجاحظ لم يتسن له إجراء هذه التجربة بنفسه ليتأكد من صحة ما ذهبوا إليه ، فإنه يلجأ إلى إثبات ذلك من مصدر آخر فيقول من كتاب أرسطو الموسوم بـ " الحيوان " قوله : " فإنه زعم في كتاب الحيوان أن الطائيس والسبع والبهيمة كلما كان لسان الواحد منها أعرض كان أفصح وأبين ، وأحكى لما يلقن ولما يسمع ، كنحو الببغاء والغداف وغراب البين ، وما أشبه ذلك ، وكالذي يتهياً من أغواء السنانيير إذا تجاوزت ، من الحروف المقطعة المشاركة لمخارج حروف الناس " (٢) .

وينتهي حديثه عن الأسنان بإيراد الأخبار المختلفة في ذكرها وتبيين أهميتها (٣) .

-
- (١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦١ - ٦٢ .
 (٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٦٢ .
 (٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٥٨ وما بعدهما .

ج - اللشغة :-

يبدأ الجاحظ حديثه عن اللشغة ، بعرض للحروف التي تدخلها " وهي أربعة أحرف : القاف والسين ، واللام ، والراء " فما عدا هذه الأحرف الأربعة التي تدخلها اللشغة فإن الخط يعجز عن تبيانها ، كاللشغة التي تدخل على " الشين المعجمة " ، لا سيما أن مخارج الحروف لا تعد ولا تحصى ، ولا يعتمد عليها (١) .

ثم يبدأ بعد هذا العرض ، في تفصيل اللشغات التي تدخل على الأحرف الأربعة المذكورة : بدءاً بالسين (٢) التي تنقلب مع اللشغة ثاء " كقولهم لأبي يكسوم أبي يكسوم " .

أما اللام (٣) ، فأنها تنقلب طاء مع اللشغ " فإذا أراد أن يقول قلت له ، قال : قلت له " .

وفي السلام (٤) لشفتان :-

الأولى : تنقلب اللام ياء " فيقول بدل قوله : ' اعتللت اعتليت " .

والثانية : تنقلب اللام كافاً " كالذي عرض لمرأخي هلال ، فأنه كان إذا أراد أن يقول : ما العلة في هذا ، قال : مكعكة في هذا " .

وأما الحرف الأخير من هذه الأحرف الأربعة التي تعرض لها اللشغة فتصوّر بالخط : الراء (٥) ، حيث تنقلب مع اللشغ السي :-

١- الياء " فمنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ، قال عمي " (٦) .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣٤ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٤ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٥ .

(٥) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٥ ، ١٥ ، ٣٧ .

(٦) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦ .

- ٢- الفين : " ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ، قال : عمغ " .
- ٣- الذال : " ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو ، قال : عمذ " .
- ٤- الظاء : " فإذا أراد أن يقول " واستبدت مرة واحدة . . . " يقول " واستبدت مظنة واحدة " .

ولعله قد وجد أن قول الشاعر :-

واستبدت مرة واحدة

أنا العاجز من لا يستبد

خير مثال ، يطبق عليه اللشعة بالراء ، فيطبقها على هذه الأحرف الأربعة التي تصير إليها الراء مع المشع .

كما يذكر خلال ذلك أسماء بعض الأعلام ، الذين كانت تدخل اللشعة عندهم ، على حرف من هذه الحروف (١) ، فهو لا يكتفي بالكلام النظري ، وإنما يدعمه بالمشاهدة والتجربة .

ولعل حرف الراء ، من أكثر الحروف ورانا في كلام الناس ، فيستند في ذلك إلى قول أبي محمد الزبيدي (٢) :-

وَحَلَّةُ اللَّفْظِ فِي الْيَاءِ إِذَا ذُكِرَتْ

كَحَلَّةِ اللَّفْظِ فِي الْإِمَامَاتِ وَالْأَلْفِ

وَحَصَّةِ الرَّاءِ فِيهَا غَيْرُ خَافِيَةٍ

فاعرف مواقفها في القول والصرف (٣)

فيدعو القاري ، أن يجرب بنفسه ، كما يفعل هو ، فيختار عددا من الخطب والرسائل ، ويحصى الحروف ، ليجد أن هذه الحروف التي يذكرها الشاعر ، وهي : الياء واللام والألف

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣٥ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢ .

والراء ، من أكثرها ترددا (١) ، وأهمها جميعا حرف الراء . ولذلك ، فهو يفيض فسي الحديث عن اللغات التي تدخل هذا الحرف . ليجد أن " أقلها قبعا " هي اللشغة بالفين ، وهذا انطباعه المعتمد على ذوقه الخاص ، فيقبل لشغة الفين دون غيرها ، حين تطرق سمعه ، خاصة أن صاحب هذه اللشغة ، يستطيع بطول التكلف وعناءه أن يقوم لسانه ، لمخرج الراء سليمة وصحيحة . كما كانت الحال مع محمد بن شبيب المتكلم (٢) ، ويؤكد مقولته هذه ، كمادته بالدليل القاطع ، حيث يؤكد قدرة محمد بن شبيب هذا ، على نطق الراء بعد المران والتدرب بالمعاينة الشخصية فيقول : " أنا سمعت ذلك منه " (٣) .

أما أكثر هذه اللغات قبعا ، فتلك التي على الهاء " ثم التي على الظاء ، ثم التي على السين " (٤) .

هذا ، بالنسبة للغات التي يستطيع كتابتها وتبينها بوساطة الخط . لا سيما تلك التي تدخل على حرف الراء ، إذ أن هنالك لغات ، تدخل على هذا الحرف ، ولكن ليس بالمستطاع التعبير عنها بالخط ، كتلك التي " كانت تعرض لواصل بن عطاء ، ولإسليمان ابن يزيد العدوي الشاعر ، فليس إلى تصويرها سبيل " (٥) .

فبعض مخارج الخروف ، إذا ن تستمد خصوصيتها من حيث كونها لا تكتب ولا تصور فواصل بن عطاء ، كان يلغ في حرف الراء ، ومع أن الجاحظ لا يستطيع تصوير لشغته كتابة ، إلا أنه يصفه بأنه كان " ألغ فاحش اللشغ " (٦) بل إنه يصفها بالقبح والشناعة (٧) .

- (١) انظر ، البيان والتبيين ؛ ج ١ ، ص ٢٢ .
- (٢) انظر ، نفسه ؛ ج ١ ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، ١٥ .
- (٣) نفسه ؛ ج ١ ، ص ٣٧ .
- (٤) انظر ، نفسه ؛ ج ١ ، ص ٣٦ .
- (٥) نفسه ؛ ج ١ ، ص ٣٦ .
- (٦) نفسه ؛ ج ١ ، ص ١٤ .
- (٧) انظر ، نفسه ؛ ج ١ ، ص ١٦ .

ولذلك ، فلقد سعى واصل إلى إخراج حرف الراء من كلامه ، لا سيما أنه كان رئيس فرقة ، ينافح عن مبادئها واتجاهاتها أمام " أرباب النحل وزعماء الملل " ، بالمناظرات والخطب وغير ذلك ، مما يحتاج إلى البيان الحسن ، والمنطق السديد ، وفصاحة اللسان ، ونطق الحروف نطقاً كاملاً ، مع تمام إخراجها من مخارجها . لأن للبيان وجهاً آخر ، لا بدّ من الاهتمام به ، في مثل هذه المناسبات ، وهو الوجه اللساني الذي يعتمد على جبهة الصوت وسهولة المخارج ووضوح النطق فإن لهذه الأمور سحرها الخاص في التأثير ، إضافة إلى أثر البيان بفنونه ووسائله كافة . ولقد كان واصل بن عطاء مدركاً لهذا الأمر ، فقد كانت لشفته في الراء توهّجه فراح يدرب لسانه ويروّضه لغاية إسقاط الراء من كلامه " حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمّل " (١) ويدل على الصعوبة التي لاقاها في سبيل ذلك قوله : " فلم يزل يكابد ذلك ويفالجه ، ويناضله ويساجله ويتأتى لستره والراحة من هجنته " (٢) ، لأن الإرادة القوية ، والإيمان بها ، تمكن المرء من اجتياز كل العقبات وتذليلها مهما صعبت وتوقّعت ، على الرغم من المشقة التي تواجهه من أجل الوصول إلى مبتغاه . ولعل هذا الإيمان ، نابع من الاعتزال الذي يدعو الإنسان إلى التفكير والتدبر ، والتعمق في الأمور واستعمال العقل في كسب مسألة ، فالإنسان خالق لأفعاله ، يختار بإرادته طريقه وسيله في الحياة .

وصار واصل يعتاد الكلام بدون استعمال حرف الراء ، حتى صار ذلك ميزة له ، وصفة من صفات بلاغته ، يقول : " ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حسنتي صار لغرابته مثلاً ، ولطرافته معلماً ، لما استجزنا الإقرار به ، والتأكيد له . ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلّدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت معاجزة الخصوم ومناقلة الأكفاء ومفاوضة الأخوان " (٣) .

هذا ، وواصل بن عطاء ، كان زعيم المعتزلة ورئيسهم ، فكانت مقدرة اللفوية هذه ، مصدر فخر لأرباب هذه النحلة ، مما يفسّر كذلك هذا الإعجاب الشديد الذي يكنّيه

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤ - ١٥ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ١٥ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ١٥ .

الجاحظ لواصل ، إذ استطاع أن يتجنب هذا الحرف ، الذي يعتبر من أكثر الحروف ترددا في الألفاظ ، على الصعوبات الجمة التي اضطر إلى مواجهتها وتذليلها في سبيل تقويم لسانه على النحو السليم .

ويسوق الجاحظ الأمثلة المتعددة ، التي تبين هذه القدرة الفريدة التي امتاز بها واصل (١) .

ولعل هذا الأمر ، يعيدنا إلى قضية الترادف التي سبقتنا الإشارة إليها في قضية اللفظ والمعنى ، فالجاحظ لا يؤمن بالترادف بين الألفاظ ، وإذا استبدلت اللفظة بأخرى ، فلا بد من أن يكون هناك فرق ، ولو كان بسيطا ، في المعنى ، من ذلك على سبيل المثال حين هجاه شارين برد ، واصلا عندما أعلن كفره على الملأ حين " صوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم " ومن ضمنهم علي بن أبي طالب (٢) فقال واصل عندئذ : " أما لهـذا الأعمى الملحد المشنف المكنى بأبي معاذ من يقتله . أما والله لولا أن الفيلة سجية من سجايا الغالية ، لمعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ، ويقتله في جوف منزله وفسي يوم حفلهم كان لا يتولى ذلك منه إلا عقيلي أو سدوسي " (٣) .

وبأني بشرح للشمرى ، يبين فيه مواقع استبدال الألفاظ التي يدور فيها حرف الراء بغيرها من الألفاظ الخالية من هذا الحرف (٤) . من ذلك استبدال واصل كلمة المشنف بالمرعث ، فعلى الرغم من أن كلاهما يحمل معنى واضع القرط في أذنه ، إلا أن المرعث هو ذلك الذي يضع القرط في أسفل الأذن والمشنف ذلك الذي يضعه في أعلى الأذن (٥) .

فإذا كان واصل ، قد نجح في استبدال ألفاظه خالية من حرف الراء بأخرى تشتمل على هذا الحرف ، فإنه يبقى هنالك ثمة اختلاف في المعنى ، في كلتا اللفظتين ، غير أنه ، استطاع بذلك أن ينتزع إعجاب الأدباء ، وفي مقدمتهم الجاحظ ، لهذه القدرة

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٦ - ١٧ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٧ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٦ - ١٧ .

(٤) انظر ، لسان العرب ، شنف ، رعث . يقول ابن منظور : " وكان بشار بن برد يلقب المرعث

وسمي بذلك لرعات كانت له في صفره في أذنه " ، (رعث) .

اللغوية النادرة ، التي لم يستطع أن يجاريه فيها أحد ، حتى أنها حدث بالشعراء ، أن يتغنوا بهذه المقدرة ، غير المتكلفة (١) .

وهكذا كان الأمر ، في اللشغات التي تدخل على الراء ، ولكنها لا تكتب ، كلفسة واصل بن عطاء ، وبشير الجاحظ أيضا إلى لشغات أخرى ، من هذا الصنف فيقول : "كذلك اللشفة التي تعرض في السين كنحو ما كان يعرض لمحمد بن الحجاج ، كاتب داود بن محمد ، كاتب أم جعفر ، فإن تلك أيضا ليست لها صورة في الخط ترى بالعين ، وإنما يصورها اللسان وتتأدى إلى السمع" (٢) .

ويرى ~~ممن~~ ناحية أخرى ، أن اللشغات قد تتعدّد في لسان المرء ، فيلشغ في حرفين مثلا ، "كنحولشفة شوشى" ، صاحب عبد الله بن خالد الأموي ، التي كانت تدخل حرفي اللام والراء ، فيستبدل بالأولى ياء ، والثانية ياء أيضا ، قال مرة : مويي ويي أيي . يريد مولاي ولي السرى (٣) .

كما أن هناك لشغات تدخل على الضاد والصاد ، إضافة إلى الراء ، شأنهم في ذلك شأن شوشى هذا (٤) .

فاللشفة ، التي يقصدها الجاحظ ، هي التي تمنع من البيان ، وتكون طبيعة في الطفل العربي ، حيث تدخل لسانه منذ بداية نشأته ، وهي لا تعادل تلك التي يصيب من يشيخ ويهرم ، من أثر تقدّمه في السن ، وما يترتب عليه ذلك ، من ارتخاء الحنك وسقوط الأسنان كما أنها غير اللكنة التي تكون في لسان العجمي حين يتعلّم اللفظة العربية ، أو العربي الذي ينشأ مع العجم ، لأن اللغة العربية ليست لغتهم الأم فلم ينشأوا عليها ، منذ نعومة أظفارهم (٥) .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦ .

(٥) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧١ .

وهذه المناسبة ، يذكر أسماء الأعلام من العجم ، الذين كانت في لسانهم لكُنية ،
ويقسمهم إلى قسمين :-

الأول : " اللكن من كان خطيبا ، أو شاعرا ، أو كاتباً داهياً " (١) .
والثاني : " لكنة العامة ومن لم يكن له حظ في المنطق " (٢) .

ففي هذا التقسيم ، يلحظ الباحث أنه تقسيم بحسب المكانة الثقافية . فالطبقة
الأولى تمثل خاصة المثقفين ، والثانية تمثل عامة الناس . مما يدل على أن القراءة والدرس ،
وطول العمران . . . كل ذلك له أثره البعيد في تقويم اللسان والتخفيف من شدة اللكنة
عند العجمي .

وملخص القول ، فقد درس الجاحظ اللثفة من خلال استعراضه النطق عند بعض
الأعلام الذين دخلت في أسنتهم ، ومن أشهرهم واصل بن عطاء ، ومحمد بن شبيب
المتكلم . وذكر أسماء الأعلام من العجم من يلكنون في كلامهم ، مصوراً لكناتهم من خلال
إيراد نواذرهم وأخبارهم ، وهو في ذلك كله يضع القاري في الصورة التي كانوا عليها ،
ويمكنه من التعرف إليهم أكثر فأكثر . ويشرح من خلال هذه الأمثلة ما يريد قوله خير شرح ،
فيخرج بالكتاب من الجمود العلمي ، ويجعله قريباً ومحبيّاً إلى نفس القاري ، وبذلك يحقق
الغاية من إقامته .

واللثفة ، على أثرها السي في البيان ، فإن الناس " يستملحون اللثفاء إذا كانت
حديثاً السن ، ومعدودة مجدولة ، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح " (٣) فيقرر
بذلك الذوق العام في عصره ، دون تعليق ، لمجرد العلم به .

وأخيراً يعود للحديث عن العقدة التي دخلت لسان موسى عليه السلام (٤) ، بيد أن
الأوهام والخرافات التي نسجها " العوام " حول لثفته فمنهم من قرر بأنها " خلقة "

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٧١ - ٧٣ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٣ - ٧٤ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٥ .

ومنهم من جعلها من جرّاء رمي فرعون جفراً في فيه بعد أن قالت له امرأته " لا تَقْتُلْ طفلاً لا يعرف التمر من الجمر ، ومنهم من كان يظن أن تلك اللشعة كانت من شامة فسي لسانه كالواقدي (١) . فيرد مثل هذه الأقاويل ، بأنه لا يوجد لدى من يزعم أن موسى عليه السلام كان ألشع ، الدليل والبرهان القاطع على ذلك . ثم إن قوله تعالى : عَلَّمَنِي لِسَانِي لِسَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ (وَأَحْلَلْتُ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي) (٢) لا تدل على شيء من هذه الأقاويل (٣) ، فصدره ودليله وبرهانه ، الذي يؤول إليه ، هو القرآن الكريم ، وليس فيه ما يدل على صحة زعم العامة ، أو ما ذهب إليه الواقدي !

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢) طه ، ٢٧ .

(٣) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

٤- الأصوات :-

[وينتقل الجاحظ إلى الحديث عما يحدثه الصوت من أثر في النفوس ، فهو يتحدث عن لغة مخالفة للغة المعروفة التي تختلف من بلد لآخر ، ومن جنس لآخر ، وهي اللغة العالمية التي تؤثر في الناس جميعهم ، على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ، لغة الطبيعة ، المخيف منها والمسر ، لغة الموسيقى وأصوات الناس الشجية ، كصوت قاريء القرآن مثلاً ، الذي لا يؤثر في المسلمين فحسب ، بل وفي غير المسلمين كذلك ، لما فيه من شجاسة يحرك النفوس ، ويوقد القلوب . حيث الصوت يؤثر في الناس من حيث كونه صوتاً لا غير " وليس يعتربهم ذلك من قبل المعاني ، لأنهم في كثير من ذلك لا يفهمون معاني كلامهم وبالأصوات ينمون الصبيان والأطفال " (١) .]

[فمن الأصوات إذن ، المكروه ، ومنها المحبوب ، فيحاول أن يعلل سبب كره النفس أو اغتمامها ، من أثر بعض الأصوات دون غيرها ، كصوت الفتيلة عند قرب انطفاء نارهـا ، أو حين يطرأ عليها " بعض الـلل " ، وكصوت النائم " وكذلك صوت احتكاك الأجر الجديسد بعضه ببعض ، وكذلك شجر الآجام على الأجراف " .]

فليست تلك الكراهة ، وذلك الاغتمام بهذه الأصوات ، من أثر شدتها ، فقد يكون الصوت ليس بالشديد أصلاً ، كصوت غطييط النائم مثلاً ، ولكن تلك الكراهة ، تنبع " من قبل الصورة والمقدار " .

[والخوف من صوت الصاعقة ، يقترب بالاحتراق ، ولذلك يكره الناس الصوت الناتج عنها ، بل إنه يذهب إلى التفسير العلمي لسبب الاحتراق ، حيث يرى أن السبب ليس في الصوت نفسه ، وإنما في اقتراب هذا الصوت من الشخص ، وذلك " لأن الشيء إذا اشتد صدمه فسخ القوة " ، أو قد يكون السبب في الهواء المحيط بالإنسان ، حيث يحس من

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

الصدمة ، ويتحول إلى نار ، وذلك لأن الصوت مصحوب بالنار ويستعين برأي أهل التجربة في قوله : " وهم لم يجدوا الصوت شديدا جدا إلا ما خالط منه النار " (١) .

فلا شك أنه يقصد بالضمير " هم " أي أهل التجربة .

هذا ، في الألوات بشكل عام ، وبما أنه مهتم بما يخص اللسانيات من هذه الأصوات ، نراه يعرج على أصوات الحيوان ، حيث إن بعضها يقارب بعض حروف الإنسان ، حتى أنه يطلق عليها " اسم الناطق إذا قرئ في الذكور إلى الصامت " ، فسمي بعض أصناف الحيوان ، بالصوت الذي يغلب عليها إذا شابه حرفا من حروف الإنسان (٢) ، مثال ذلك تسمية أحد أنواع الطير بالقطا يقول : " فلما تهيأ للقطاة ثلاثة أحرف ، قاف ، وطاء ، وألف ، وكان ذلك هو صوتها ، سموها بصوتها " (٣) . حتى لكان القطاة انتزعت لنفسها هذا الاسم ، ويستشهد بالشعر في هذا المجال (٤) .

ومن القطاة ، ينتقل إلى صوت الشاة ، الذي يشابه حرفي اليم والألف عند الإنسان " والذي يتهيأ للشاة قولها : ما " مستشهدا في ذلك بالشعر ، حتى إن الصبية لمسا جهلوا أن اسمها الحقيقي هو " الشاة " فإنهم سموها بالأحرف التي سمعوها منها ، فأطلقوا عليها اسم " مساه " (٥) .

أما صوت الكلاب ، فإن ما يخرج من أفواهها يشابه ثلاثة أحرف لدى الإنسان وهي " العينات والفاءات والواوات ، كنحو قولها : وو وو ، وكنحو قولها : عف عف " (٦) .

فيستحسن الجاحظ ، نادرة ، فيرويه غير مرة ، وهي أن رجلا سأل صبيا عن اسم أبيه فأجابته الصبي " وو وو ، لأن أباه كان يستق كلبا " (٧) . وهذا أيضا من تسمية

- (١) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .
- (٢) انظر ، نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ ، وانظر ، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ ، ص ١١٩ - ١٢٦ .
- (٣) انظر ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ ، وانظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٤ .
- (٤) انظر ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ .
- (٥) انظر ، نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .
- (٦) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٤ ، وانظر ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٨٨ .
- (٧) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٦٤ ، وانظر ، الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .

ج ٥ ، ص ٢٨٨ .

الصبيان للكلب ، بالأصوات التي سمعوها منه حيث تهياً لهم منها
حرف الواو .

(ولعل ، الأصوات التي يصرها السنور ، تشكل في مجملها لفة بحد ذاتها ،
لما في أصواتها من تشابه مع الكثير من حروف الانسان ، لو توقّر لها العقل والاستطاعة ،
فيصف لفة السنانير المتخيّلة هذه ، بأنها لو منحت العقل لكانت " لفة صالحة الموضع ،
متوسطة الحال " (١) .

ولعل في هذا الخيال الواسع ، الذي امتاز به الجاحظ ، اقتراباً - ما نسميه اليوم
بفن " الرسوم المتحركة " أو " الكاريكاتور " ، حيث تتحدّث الحيوانات مع بعضها بعضها ،
يتخلّلها أصواتها الحقيقية . ولقد سبقت إشارة المنسّي أن كل شكل يفهم
عن شكله (٢) .

(وينتقل صاحبنا إلى الحديث عن أصوات الحيوانات الأخرى فيقول : " ولا يــــن
أوى صياح يشبه صياح الصبيان . وكذلك الخنزير . . . وتهياً للغراب القاف . وقد
تهياً للهازردستان - وهو العندليب - ألوان آخر ، وقد تهياً للبيضاء - من
الحروف أكنــــر " (٣) .

(أما الإنسان ، فلقد منح من القدرة ومن الاستطاعة ، ما يؤهّله لأن يقلّد مختلف
أنواع الحيوان ، في الصوت والصورة والحركة " وإن كان لا يحسن بيني كهية وكّر الزنبور ،
ونسج العنكبوت " (٤) . فقدرة الانسان على تقليد الأصوات والحركات ، تفوق قدرته على
تقليد الفعل كالبناء مثلاً . فهو عاجز عن تقليد نسيج العنكبوت ، ووكّر الزنبور . مما

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٨٩ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤٥ .

(٣) نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ٦ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

يُبدل على أن قدرة الإنسان وإن اتسعت ، تبقى محدودة ومقيّدة . /

(ومعد ، فلعل الجاحظ ، قد أطلع على بحوث الخليل بن أحمد الفراهيدي ، (- ١٧٠ هـ) ، فيما يتعلق باللسانيات ، واخراج الحروف من مخارجها الصحيحة وهذا الشكل ، يشارك مـسـنـ سبقه في وضع أسس هذا العلم الذي يكتمل فيما يسمى بعلم التجويد الذي نشأ في خدمة قراءة القرآن الكريم بالدرجة الأولى ، حيث إن علم التجويد هو اخراج الحروف من مخارجها الصحيحة ، وإن فاللسانيات الحديثة ، تعتبر من هذه الوجهة تطويراً لعلم التجويد .)

٢ - نقد الشعر وفنونه

الشعر -

لقد أولى الجاحظ الشعر اهتماماً كبيراً ، حيث إن له دوراً مهماً في حياة العرب ، منذ العصر الجاهلي . وهو أسبق من النثر عند هم يخلدون به آثارهم ومناقبهم " فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها ، وتحصين مناقبها ، على ضرب من الضروب ، وشكل مسن الأشكال " (١) . ووسيلة العرب إلى تخليد مآثرهم تتمثل بالشعر (٢) ، الذي بمسسه كانوا يتمايزون ، ويتفاضلون ، حتى اقترن بهم ، وغدا جزءاً من حياتهم ، فكان البيت من الشعر يرفع قائله ، أو يكون سبباً في هلاكه .

والشعر فن ، أساسه الموهبة ، وبنائه يقوم على أمور عدة سبقت الإشارة إليها في معرض الحديث عن المعنى واللفظ (٣) ، حيث " الشأن في إقامة الوزن ، وتخير اللفظ وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسيج ، وجنس من التصوير " (٤) .

ولعل هذا التعريف شامل ، على إيجازه ، فالشعر نسيج من العلاقات بين الألفاظ من جهة ، وبين الألفاظ ومعانيها من جهة أخرى . ففي قوله " تخير اللفظ " ، أي تخير اللفظ المناسب للمعنى الذي جعل حظّه وحقه (٥) ، وتقوم هذه الألفاظ على العلاقة بين الحروف ، لتشكيل اللفظ ذا المخارج السهلة ، وهذه العلاقات تتشكل على الإيقاع الموسيقي الملائم لها ، عند " إقامة الوزن " ، بعد سبكها وشذبتها تشديداً حسناً ، ذلك أن الشعر ، ليس موهبة وحسب ، بل هو فن ، فيه تنسج العلاقات المذكورة ، وتصور .

(١) الحيوان ، ج ١ ، ص ٧١ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٣) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

(٤) الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

(٥) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٤٣ .

ومن هنا يكتسب الشعر قوته ، حين تلتقي الهوية ، والاتقان مع العمل السدوء ، لإخراج القصيدة في أحسن صورة ، وذلك يضلل الفنان موهبته لأنها إذا تركت على حالها ، دون صقل ومران ، بالعكوف على القراءة والدرس ، فإنها تنضب وتجف رويداً رويداً . ولقد سبقنا إشارتنا إلى أن الأعضاء إذا أهملت تدوي ، وإذا مرّنت ودرّست تقوى وتشتد (١) . ولهذا يأخذ على أبي عمرو الشيباني ، استجاداته لبيتين من الشعر ، أخذاً المعنى بعين الاعتبار ، غاضاً البصر عن التركيب اللفظي والشعري ، ورأى الجاحظ " أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً " (٢) .

فالشعراء الفحول ، كانوا يعيدون النظر في قصائد هم ، يشذبونها : ويحيلون فيها آراءهم ويقلّبونها ، حفظاً على أدبهم ، وإشفاقاً على قنهم من السقوط . فيجعلون عقله ، زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره " ، حتى ولو أخذت منه قصيدته عاماً كاملاً قبل إعلانها " وكانوا يسمّون تلك القصائد : الحوليات ، والمقلّدات ، والمقلّدات ، والمنقّحات ، والمحكمات " (٣) . حتى نعت أولئك الشعراء الفحول ، بالعبيد ، وقال الأصمعي : " زهير بن أبي سلمى ، والحطيئة وأشباههما ، عبيد الشعر " . وكذلك كل من جود فسي جميع شعره ، ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلّها مستوية في الجودة " (٤) .

ولا شك أن هذه الأقوال جميعها تدل على أن الشعر ، فنّ يحتاج إلى مجهود ومتابعة ، حتى يكون شعراً على مستوى عال من الجودة والإتقان ، وقد بلغ تمرّس الشعراء وعنايتهم في هذا الفن ، أن غدت بيوت الشعر تحتوي على " الأمثال والأوابد ، ومنها الشواهد ، ومنها الشوارد " (٥) .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٢) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٣١ .

(٣) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٩ .

(٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٣ .

(٥) نفسه ، ج ٢ ، ص ٩ .

ويذهب الجاحظ إلى القول : إن الشعر " حديث العيلار ، صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه : امرؤ القيس بن حجر ، ومهلل بن ربيعة " (١) . وللتدليل على صحة رأيه ، يستشهد بأبيات لامرئ القيس بن حجر (٢) ، فيقول : " ويسدل على حداثة الشعر ، قول امرئ القيس بن حجر :

إِنَّ بَنِي عَوْفٍ ابْتَنَوْا حَسَنًا
ضَيْعَهُ الدُّخْلُونَ إِذْ غَدَرُوا
أَدَّوْا إِلَى جَارِهِمْ خَفَارَتَهُ
وَلَمْ تَضَعْ بِالْمَفِيبِ مَنْ نَصَرُوا
لَا حَسِيرٍ وَفَسٍ وَلَا عُدَسٍ
وَلَا أَسْتَغِيرُ يَحْكُمُهَا الشُّفَرُ
لَكِنْ عَوِيْرٌ وَفَسٍ بِذِمَّتِهِ
لَا قَصْرَ عَابَةٍ وَلَا عُسُورُ (٣)

ثم يعلق قائلا : " فإذا استظهرنا الشعر ، وجدنا له - إلى أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومئة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام " (٤) ويقصد بقوله " الشعر " ، أي الشعر العربي .

ويقول في موضع آخر : " وقد قيل الشعر قبل الإسلام في مقدار من الدهر أطول مما بيننا اليوم وبين أو الأسلام " (٥) .

فإذا كان الزمن ، ما بين القرن الأول الهجري ، وهو أول الإسلام والقرن الثالث الهجري ، وهو عصر الجاحظ ، مائتي عام ، فهو يرى في هذا النص أن الشعر بدأ قبل الإسلام بأكثر من مائتي عام ، وأما في النص السابق ، فيقدر عمر الشعر العربي ، ما بين

(١) الحيوان ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٥) نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٧٧ .

مئة وخمسين عاماً إلى مائتي عام . وهذه النسب معتمدة على الحساب التقريبي والاستظهار ، وليس بالمستطاع الإتيان برأي دقيق أكيد في هذه المسألة . وفي كلا النصين يقتدر الجاحظ عمر الشعر العربي بمائتي عام أو أكثر ، هذا مع الاستظهار الدقيق ، ومع النسبة التقريبية . فالأدب في مثل هذه القضايا الغامضة لا جزم فيه إلا بالدليل القاطع ، ومع أنه لا يملك ذلك ، إلا أنه يحاول أن يحسب ويستظهر ، لكي يعطي رأياً قريباً من الصواب ، مبيناً طريقته في حساب هذه المسألة ، وكيفية خروجه بالنتيجة ، فهو إذن لا يناقض نفسه في كلا النصين .

يرى الجاحظ ، أن الشعر حديث الوجود ، وليس بقديم ، وذلك بالمقارنة مع عمر النثر ، ودليله على ذلك ، من كتب اليونان حيث " كتب أرسطا طاليس ، ومعلمه أفلاطون ، ثم بطليموس ، وديمقراطس ، وفلان وفلان ، قبل بدء الشعر بالدور قبيل الدهور ، والأحقاب قبل الأحقاب " (١) .

ولكن ، إذا كان يتحدث عن عمر الشعر فهو يقصد بالضرورة ، الشعر العربي ، لأن الدليل الذي يأتي به ، من الشعر الجاهلي ، ثم يدل على أن النثر أسبق من الشعر ، وهو لا يزال يقصد الشعر العربي ، ويقصد بالنثر ، أي النثر اليوناني ، فلو أنه يقصد الشعر الإنساني بشكل عام ، ثم عقد المقارنة ، فوجد أن النثر الإنساني ، يسبق الشعر مثلاً ، لاستقام الأمر ، أو لو أنه يتحدث عن الشعر اليوناني ، وبعد الاستظهار ، وجد أن النثر اليوناني أسبق من الشعر اليوناني ، لكان الأمر يستقيم كذلك ، ولو أنه أراد أن يعقد المقارنة ، بين الشعر اليوناني والشعر العربي ، فوجد أن الشعر اليوناني أسبق من الشعر العربي ، أو العكس ، فإن هناك وجهاً لهذه المقارنة . غير أنه لا وجه للمقارنة ، بين الشعر العربي من جهة ، والنثر اليوناني من جهة أخرى !

ولكن ما يفسر ، هذه المقارنة ، التي قد يجدها القارىء ، غير متناسبة ، ولا متعادلة ، اعتقاد الجاحظ حقيقة ، أن للعرب الفضل الأول في الشعر ، لم يسبقهم إليه أحد ، وهذا الفن ليس موجوداً إلا في لغتهم (١) ، وواضح أنه لا يقول ذلك تحييزاً للجنس العربي ، حيث يشمل غير العرب كذلك ممن يتكلمون اللغة العربية في قوله " وعلى من تكلم بلسان العرب " (٢) ، ويتابع معللاً حكمه هذا ، بأن الشعر لا تجوز عليه الترجمة والنقل من لغة إلى أخرى (٣) ، فهو عربيّ اللسان ، عربيّ الذوق ، والشعر عنده " صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير " قوامه وهيكله وشكله " إقامة الوزن " (٤) ، أي على ميزان الشعر العربي الجاهلي . ولذلك فهو حين يقرأ الشعر اليوناني مثلاً ، لا يجده شعراً ولا يتذوّقه . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فهو لا يعرف اللغة اليونانية ، وحين يشير إلى كتب اليونان ، فمن الواضح أنه قرأها مترجمة . وكيف يكون الحال أيضاً حين يقرأ الشعر اليوناني مترجماً ، وهو يقول لتوّه إن الشعر لا يترجم ولا ينقل ، وأنه " متى حوّل تقطع نظمه وبطل وزنه ، وذهب حسنه وسقط موضع التعجب " (٥) ، فلا يسلم إذن ، إذا حاول الاطلاع على آداب اليونان ، مترجمة ، حيث إنه لا يعرف اللغة اليونانية ، فلم يقرأ سوى النثر ، وأما اطلاعه على ما وصفه من أدب اليونان ما ينسب إلى الشعراء ، وليس بشعر ، فمردّد ذلك لأن ما قرأه كان مترجماً معدوم النظم ، باطل الوزن ، فتحوّل من الشعر إلى النثر في نظمه .

فالأصل أن يُقرأ الكتاب كما ألّفه الكاتب ، أي بلغته الأم ، وعندئذ يكون الحكم الصحيح على لغته وأسلوبه وتعبيراته وأفكاره ، فإذا ترجم ، فإنه يفقد الكثير من رونقه وقوّته ، غير أن وقعه يظل أفضل بكثير من الشعر الذي ينثر ، ثم يترجم (٦) .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٥ . انظر ، حسن المندي ، أدب الجاحظ ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م / ١١٥٥ ر .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٥) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(٦) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(وحكمة العرب ، نظمت شعرا لا نثرا ، ولهذا فإذا أريد ترجمتها " لهطل نللسك المعجز الذي هو الوزن " على خلاف حكم الأمم الأخرى كالهندية ، واليونانية والفارسية ، فلقد ترجمت فعلا " فبعضها ازداد حسنا ، وبعضها ما انتقص شيئا " ، على الرغم من أن مضمون ما دونه العرب من الحكم شعرا ، لا يزيد في معانيه عن معاني غيرهم من الأمم والشعوب (١) . ولعلّه لا يقصد في هذه الفكرة الأخيرة ، أن ينتقص من قيمة ما أنتجه الغرب من فكر وقيم وحكم ، ولكنه ربما وجد أن المعجم سبقوا العرب في تدوين آثارهم وحكمهم) ساعد هم على ذلك الفن النثري حيث سبقت إشارته إلى كتب أعلام اليونانيين من أمثال أرسطو وأفلاطون (٢) .)

فكانت أسبق ما وصلنا من مآثر وحكم العرب الجاهليين التي دونوها شعرا . ويجب أن لا يغيب عن الذهن أن الحضارة العربية الإسلامية ، كانت في ذلك الوقت ، فتية ، بالمقارنة مع حضارات اليونان ، وفارس والهند والصين . فكان العرب قبل مجيء الإسلام ، يدونون حكمهم شعرا . وعلى هذا فإن الجاحظ يقصد حكم العرب في الجاهلية . وعلى الرغم من أن العرب بعد الإسلام ، استمروا في تدوين حكمهم شعرا ، إلا أن النثر كان قد أخذ يشق طريقه ، ليغدو الأساس الذي فيه تدون علوم الحضارة الجديدة وحكمها وإنتاجها ، التي طوت حضارات العالم الأخرى تحت جناحها منذ فجر بزوغها . فكان النثر في ذلك أبلغ من الشعر . والجاحظ لا ينكر مطلقا ، أن هذه الحضارة ، قد استفادت من علوم وتجارب الحضارات السابقة لها ، عن طريق الكتب المدونة والمترجمة ، التي تداولتها الأمم والقرون ، والألسنة ، وذلك في قوله : " وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن لسان إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ونظمر فيها . فقد صح أن الكتب أبلغ في تقييد المآثر ، من البنيان والشعر " (٣) وهو بذلك يمارس عملية النقد الذاتي ، حيث يذكر ما للعرب ، وما عليهم ، فهو لا يتعصب لهم في الحالة الأولى ، ولا يتنكر لفضلهم في الحالة الثانية . وإنما هو عالم ، يبحث عن الحقيقة ، يفخر بما يجده من إبداع العرب ليشهره سلاحا فتاكا في وجه كل من يحاول أن ينسأل منهم ، لأنه عربي اللسان ، فيفيض في تبيان وشرحه . ويقر بما للأمم الأخرى ، من فضل ،

(١) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٧٥ .

إذا وجدهم قد فاقوا العرب فيه ، لا يزيغه حقد أو تعصب أو تحيز . فالباحث الحقيقي ، والعالم الفذ ، هو الذي يلج إلى موضوع بحثه ، بنية حسنة ، وضيرحي ، وأهداف سامية ، تبتغي خير البشرية . ولعل هذه الصفات أصيلة في نفس الجاحظ ، ولذلك استطاع أن يحقق ما يصبو إليه ، وأن يتوصل إلى ما توصل إليه من نظريات ونتائج وآراء في العلوم والمعارف المختلفة .

فللشعر الذي تفوق فيه العرب ، مقاماته ، كما أن للنثر مقاماته ، ولكل مقام مقال .

ولعل من أخطر القضايا التي يطرحها ، قضية نسبة القرآن الكريم إلى الشعر يقول : " وَيُوْخَلُّ عَلَى مَنْ طَعَنَ فِي قَوْلِهِ : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) (١) وزعم أنه شعر لأنه فـسـي تقدير مستعملن مفاعلن ، وطعن في قوله في الحديث عنه : " هل أنت إلا أصبع دميـت ؟ وفي سبيل الله ما لقيـت " . (٢) .

فيرد على هذا الاتهام الخطير ، بأنه لو يتأمل المرء ، " أحاديث الناس ، وخطبتهم ورسائلهم " ، لوجد أنها تحتوي على تفعيلات شعرية ، على الرغم من أنهم لا يقولون شعرا ، ولا يمكن لأحد أن يسمي كلامهم هذا ، شعرا (٣) .

وإذا كان الشعر ، يقوم على الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وصحة الطبع وجودة السبك (٤) ، وإلى جانب ذلك كله ، لا بد من القصد إلى قول الشعر ، وأن تكون النية خالصة لهذا الفن ، كما ينبغي أن يكون القائل عارفا بالأوزان ، قاصدا إليها ، حتى يعتبر ما يقول شعرا . وإلا فإن في كلام العامة ، الكثير من

(١) المسند ، ١ .

(٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٨٨ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٤) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٣١ - ١٣٢ .

التفعيلات الشعرية المختلفة . فالبايع الذي يصيح " من يشتري باندجان " مثلاً ، لا يقول شعراً ، ولا يقصد إليه ، بل لا يعلم أنه قد قال كلاماً في وزن " مستفعِلن مفعولات " ، وكذلك الأمر بالنسبة للأمثلة الأخرى التي يستشهد بها الجاحظ (١) .

وقياساً على ذلك ، فإن القرآن الكريم ، قرآن وحسب ، وإن وجدت فيه التفعيلات المختلفة ، كما في الآية المذكورة آنفاً ، وكذلك الأمر بالنسبة للحديث الشريف ، وسهلاً يرد الجاحظ على من يشبه القرآن ، والحديث بالشعر ، وفي هذه القضية ، يرد على شيخ من البصريين يزعم أن الله تعالى ، جعل نبيه أمياً ، ليعلمه الفقه والشريعة ، وليكون النبي صلى الله عليه وسلم ، مقصوراً على معرفة الدين ، دون ما تفتخر به العرب من الشعر والأنساب والخيال ليكون أدل على أن القرآن أنزل من عند الله ، وليجمل الله تعالى محمداً نبياً ورسله (٢) .

فيرد على الشيخ رافضاً فكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان أمياً جاهلاً ، بل يرى أنه كان يملك كل ما يؤهله لأن يكون أبلغ البلغاء ، وأخطب الخطباء ، وأشعر الشعراء إلا أنه سخر هذه " القوى " و " الاستطاعة " والموهبة ، لما هو أجدر وأولى بالنبوة ، حيث منحه الله تعالى " برهانات الرسالة ، وعلامات النبوة " . ولقد كسان باستطاعته صلى الله عليه وسلم ، أن يبدي هذه القدرات ، بممارسة فنون الأدب المختلفة ، من شعر وخطابة وأن يظهر مدى بلاغته ، وبهائه ، إلا أنه حين صرف نفسه عن كل ما كانت عليه العرب ، من تكلف للشعر والخطابة ، و " طال هجرانه لعرض الشعر وروايته صار لسانه لا ينطلق به " ، لأن العادة عند غلبت عليه ، حيث إنها كما يصفها الجاحظ " نأوم الطبيعة " . وقد سبقت إشارته غير مرة ، إلى أن الأعضاء إذا أهملت غلبت عليهما عادة الإهمال ، وفقدت براعتها . وهذا بالنسبة للشعر ، أما في الخطابة والبيان والبلاغة ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم ، إن أراد ، كان الأبرع في كل فن ، وفاق ما يبين العجز ، وبين العادة الحسنة مع هجران الشيء .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٢ .

ولعل الدليل ، على صحة رأيه ، الأحاديث النبوية الصحيحة التي وصلت إلينا ، فهي تنبئ عن مهارة فائقة في البلاغة والبيان وفصاحة اللسان . ويتعجب الجاحظ مما ذهب إليه الشيخ من اتهام النبي صلى الله عليه وسلم بالأمية ، مع أنه متأكد كما يقول ، من أن هذا الشيخ " لم يرد إلا الخير " . غير أنه مخطئ في ادعائه هذا (١) .

والقضية التالية التي يتطرق إليها ، وهي قضية أدخلت على تاريخ الشعر العربي وتطوره ، كثيرا من الضيم ، وهي " وضع الشعر " ، إذ تخصص بعض الناس في قرض الشعر ، ونسبته إلى قدامى الشعراء ، فيقولون على ألسنتهم ما لم يقولوه فعلا ، لأغراض في أنفسهم دنيئة ، متعددة ومختلفة . من مثل أن الشاعر يحسن بنقص الشعراء في قبيلته ، فيبتغي الإعلاء من شأنها وقيمتها الشعرية ، أو لأغراض التفاخر القبلي ، والرد على القبائل الأخرى ، أو لأغراض شخصية . . . فيعرض الجاحظ لهذه القضية التي يتفاقم خطرها ويشتد ، مع مرور الزمن ، بعرضه للأمثلة الشعرية الموضوعة ، فيقول : " فأمسأ قولوه :-

فانقص كالسدري من متحدر

لمع العقيقة جنح ليل مظلم

فخبرني أبو اسحاق أن هذا البيت في أبيات أخر كان أسامة صاحب رُوح بن أبي همام ، هو الذي كان ولدها . فإن اتهمت خبر أبي اسحاق فسم الشاعر ، وهات القصيدة ، فإنته لا يقبل في مثل هذا إلا بيت صحيح ، صحيح الجوهر ، من قصيدة صحيحة ، لشاعر معروف . وإلا فإن كل من يقول الشعر يستطيع أن يقول خمسين بيتاً كل بيت منها أجود من هذا البيت ، وأسامة هذا هو الذي قال له رُوح :-

اسقني يا أسامك

من رحيق مداك

اسقنيها فاتسني

كافر بالقيامك

وهذا الشعر هو الذي قتلته * (٢) .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٣٣ - ٣٤ .

(٢) الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

فهو هنا ، يعيل إلى رأي أبي اسحاق ، بأن هذه الأبيات ، كان أسامة قد وضعها ويتحدى من يكذب أبا اسحاق ، بأن يأتي باسم الشاعر الذي قال البيت المذكور ، والقصيدة التي استخرجه منها . وهذا الدليل الذي يطالب به ، له شروط ، أن يكون البيت صحيح الشكل والمضمون ، " من قصيدة صحيحة ، لشاعر معروف " ، فهو إذن لا يصدق نسبة أبيات لشاعر معين ، دون التثبت والتأكد من صحة نسبتها ، وهو بذلك يبين منهجه في معرفة الحقيقة العلمية .

وفي إشارته إلى أن أسامة هذا ، كان صديقا لروح بن أبي همام ، الذي يعتقد أنه كان زنديقا . كافرا ، لقوله البيتين المذكورين في هذا النص ، حيث يشهر فيهما كفره وزندقته ، فقتل بهما ، فهو بذلك يربط بين اتجاه الشاعر ، وحياته الخاصة ، وبين شعره . فلا يستبعد أن يكون أسامة وضاعا للشعر ، لأن هذا العمل الشائن ، لا يصدر ، إلا عن شاعر منحرف الأخلاق ، متهم في إخلاصه لدينه . فلا بد من أن يكون صديق الزنديق ، زنديقا مثله . وبذلك يعود إلى تأكيد فكرة الارتباط الوثيق بين الأخلاق والفكر والأدب .

وفي إشارته ، إلى أن روحا هذا ، قد قتل لما أظهر من كفر في هذين البيتين المذكورين ، دليل على خطورة الكلمة ، التي سبقت الإشارة إليها (١) . وعلى خطورة الشعر بشكل خاص ، إذ قتل به الكثيرون .

ومن منهجه في كشف الشعر الموضوع ، معرفته بأسلوب الشاعر بشكل عام . فبيست الشعر المنسوب لأوس بن حجر (٢) ، موضوع على لسانه ، وليس له ، وذلك لأن " هذا الشعر ليس يرويه لأوس إلا من لا يفصل بين شعر أوس بن حجر ، وشريح بن أوس " (٣) ، مما يدل كذلك ، على معرفته الواسعة بالشعر والشعراء .

- (١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٧٠ .
 (٢) انظر ، الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٧٤ ، وانظر ، نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٧٩ .
 (٣) نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٧٩ .

ومن منهجه في هذا الصدد كذلك ، النظر إلى زمن الشاعر ، ومطابقة شعره لذلك الزمن ، فيحكم على شعر الضبي في الكواكب ، بأنه موضوع ، لأنه كان مخضرمًا (١) ، وذلك في معرض رده على من يدعي وجود الأشعار في رجم الشياطين قبل الإسلام . فيسرد قائلا : " قلنا لهؤلاء القوم : إن قدرتم على شعر جاهلي لم يدرك مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولا مولده فهو بعض ما يتعلق به مثلكم . . . فأما أشعار المخضرمين والإسلاميين ، فليس لكم في ذلك حجة . والجاهلي ما لم يكن أدرك المولد ، فإن ذلك مما ليس ينبغي لكم أن تتعلقوا به " (٢) .

ومن أساليبه كذلك في كشف وضع الشعر ، الربط بين الفكر ، والزمان في الوقت نفسه ، وذلك في قضية الرجم بالكواكب والشهب كذلك . فهو يرى ، أن المسلمين يعتقدون بهذا الزعم ، فيرون أن الكواكب إنما هي رجم من السماء ، ولم يكن هذا الاعتقاد سائدا قبل الإسلام ، أي في الجاهلية . فيقول : " وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودي فلمعري إنه جاهلي ، وما وجدنا أحدا من الرواة يشك . في أن القصيدة مصنوعة . ومعد فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذوف ورجم ، وهو جاهلي ولم يدع هذا أحد قط إلا المسلمون ؟ فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة " (٣) ولذلك فـإن الشعر المنسوب لهذا الشاعر الجاهلي ، إنما هو موضوع لا شك في ذلك .

ولا يستغرب الجاحظ ، قضية الوضع هذه ، على السنة قديما الشعراء . فـإذا بلغت بهم الجرأة ، أنهم وضعوا الشعر على السنة اللاحقين من الشعراء مثل خلف الأحمر ، والأصمعي . . . فما بالنا بالقدماء (٤) ، مع اختلاف الزمان والمكان ، حيث كانت الصعوبة في كشف الشعر الموضوع ، أكبر بكثير من صعوبة اكتشافه على السنة اللاحقين .

وقد يكتفي الجاحظ بالظن ، في مواضع أخر ، من مثل رأيه في قصيدة أنشدها له ابن أبي كريمة على لسان يزيد بن ناجة السعدي ، فقال :-

- (١) انظر الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٨٠ ، وانظر شعر الضبي ، نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٧٤ .
- (٢) نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٧٥ .
- (٣) نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ ، وانظر ، شعر الأفوه ، نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٧٥ .
- (٤) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨١ .

أَرْهَيْرُ مَا لَكَ لَا يَهْمُكَ مَا بَسِي
أَخْزَى إِلَهُ مُحَمَّدٍ أَصْحَابِي
كُلُّ الْعَمِيونَ ، صَفِيرَةٌ أَذَانُهَا

جُنْحُ الْحَنَارِ مِنْ يَمْتَوِرْنَ جِرَابِي ... (١)

الى آخر القصيدة ، ويعلق الجاحظ : " ونحن نظن أن هذه القصيدة من توليد ابن أبي كريمة " (٢) . فلا يأتي ههنا بالدليل ، وربما لأنه لا يملكه ، غير أن الشك يساوره في صحة نسبتها ، والأمانة العلمية تتطلب منه أن يقول رأيه بدقة ، دون زيادة أو نقصان ، فلا يجوز بصحتها ، كما لا يجوز بتكذيبها .

ومن جهة أخرى ، فإنه يشهد بصحة قصيدة لامرأة من العصر الجاهلي ، تصف فيها الحية ، فتقول فيها :-

قَدْ كَادَ يَقْتُلُنِي أَصَمُّ مَرْقَشٍ
مِنْ حَبْكُمُ ، وَالْخَطْبُ غَيْرُ كَبِيرٍ
خَلَقَتْ لَهَا زِمَهُ عَزِيمَ وَرَأْسُهُ
كَالْقُرْصِ قُلُوحٍ مِنْ رَقِيقِ شَمِيرٍ (٣)

الى آخر الأبيات . فيقول : " والشعر صحيح . وليس في أيدي أصحابنا من صفة الأفاعي مثلها " (٤) . مما يدل على أن شعر المرأة الجاهلية هذا ، كان مشكوكا في صحته ، ومتهما بالوضع ، كما يدل على أن الجاحظ ، حين يلجإ إلى البحث والتنقيب ، فهو يبحث عن الحقيقة ، دون أفكار سابقة أو أهداف أخرى ، سوى البحث عن الحقيقة . وإذا كان يشكك في صحة نسبة بعض الأشعار ، فإنما ذلك من قبيل حبه للغة وأدب أمته ، والبحث عن

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٢) نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٣٥ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٤) نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨١ .

الحقيقة ، وإذا قاده البحث والتفكير المنطقي ، إلى صحة تلك الأشعار ، فإنه يبري ، ساحتها من تهمة الوضع ، فيعيد بذلك للشاعر أو الشاعرة ، حقهما في شعرهما ، كما يمنح للقارئ ، حقه في المعرفة الحقيقية ، لا المزورة .

ولعلّ البحث عن الحقيقة الفنية ، والشعرية بشكل خاص ، قد تأثر بالبحث عن حقيقة الأحاديث النبوية الشريفة ، حيث وضع الكثير منها على لسانه صلى الله عليه وسلم . فإذا وصلت بهم الجرأة إلى حدّ تزوير الحديث ، والتقول على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يقل ، فكيف بنا الحال ، في وضع الشعر على ألسنة الشعراء سابقهم ، ولا حقهم ! فكان منهج الجاحظ في البحث عن الحقيقة الشعرية ، يسير في مسارب ثلاثة :-

الأول : يتمثل في صفات الراوي الأخلاقية والفكرية وتاريخ حياته ، كما هو الأمر مع بيت الشعر الذي قاله " أسامة صاحب رُوح بن أبي همام " (١) .

والثاني : يتمثل في دراسة الشعر نفسه ، من حيث أسلوبه وألفاظه . . . ومضى تطابقه مع أسلوب الشاعر بعامة في جُلّ شعره (٢) .

ولعلّ هذين الطريقتين ، يشابهان طريقة علماء الحديث في بحثهم عن الأحاديث الموضوعة وكشفها ، حيث ينظرون في السند ، أي سند رواية الأحاديث ، من جهة وفسي المتن من جهة أخرى .

والثالث : مطابقة الشعر المزعوم ، مع زمن الشاعر المنسوب إليه ، حيث لكل زمان ، ألفاظه التي تميزه ، ومعتقداته السائدة . . . فيربط إذن بين الأسلوب ، والفكر ، والزمن ، كما هو الأمر مع نسبة شعر إلى الضبي (٣) ، وإلى الأفوه الأودي (٤) .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٧٩ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٨٠ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

ومن قضية الوضع، إلى قضية السرقات الأدبية، ويركز في هذا المجال على سرقة المعنى، حيث يبدع شاعراً ما معنى جديداً، غريباً، جميلاً... فيعجب بعض الشعراء " فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره "، أي يسرق المعنى مع لفظه، فإذا خشبي أن يكشف أمره، فإنه لا يعدم أن يسرق المعنى مدعياً ابتداعه، أو أن " يجعل نفسه شريكاً فيه، كالمعنى الذي تتنازع الشعراء فتختلف ألفاظهم، وأعارض أشعارهم، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه " فإذا ما ووجه أحد هم بسرقة المعنى فإنه ينكر أن يكون قد سمع به من قبل، مدعياً بأن ذلك ربما يكون من قبيل تسوار الأفكار وحسب (١).

وفي قوله " إن هو لم يمد على لفظه " (٢) فهو يقصد اللفظ ومعناه، في عودة منه لتأكيد ذلك الترابط الوثيق، الذي يوحد اللفظ مع معناه، حيث إنه في معرض الحديث عن " أخذ الشعراء بعضهم معاني بعض " (٣)، فهو يريد القول إن السرقة إما أن تكون كاملة حين يسرق اللفظ والمعنى سوياً، وإما أن تكون ناقصة في قوله " فيسرق بعضه "، أي يسرق المعنى دون اللفظ، وذلك دليل على أن اللفظ لا يكون تاماً كاملاً، إلا إذا عُبِّرَ عن المعنى الذي جعل أصلاً له، دون زيادة أو نقصان.

ويستثني من الشعراء المبدعين الذين طرّقوا معاني لم يسبقوا إليها، ولم تسرق معانيهم، مثال ذلك عنتره، حين وصف الذباب " ولقد حلول " بعض المحدثين " - أي ممن عاصروا الجاحظ - سرقة معناه ذاك فأخفق في محاولته. " فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه، أنه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر " (٤). ولذلك يحذر من تلك الألفاظ والمعاني، لأن ذلك دليل على نضوب الموهبة الأدبية، والخيال والعجز عن الإبداع. وبالتالي يعمق عملية التطور اللغوي والأدبي.

(١) انظر، الحيوان، ج ٣، ص ٣١١.

(٢) نفسه، ج ٣، ص ٣١١.

(٣) نفسه، ج ٣، ص ٣١١.

(٤) انظر، نفسه، ج ٣، ص ٣١١ - ٣١٢، وانظر أبيات عنتره، نفسه، ج ٣، ص ٣١٢.

ومن الأمثلة على سرقة المعنى في الشعر ، أن أخذ الذكواني (١) معنى قول الأخطل (٢) :

"ضفادع في ظلما ليلي تجاوزت"
فَدَلَّ عليها صوتها حية البحر" (٣)

فقال :-

"يَدْخُلُ في الأشداق ماء ينصفه"
كيما ينق والنقيق يتلفه" (٤)

حيث تتبين السرقة في الشطر الثاني من البيت المذكور (٥) ، إذ يشير كلا الشاعرين ، إلى نقيق الضفدع داخل الماء (٦) .

ويتأرجح تعبير الجاحظ ، لتبني الذكواني معنى قول الأخطل ، فمن الواضح أنه يعتبر الأمر تأثرا ، لا سرقة في قوله " ذهب إلى قول الشاعر " (٧) تارة ، ثم يعود ليؤكد مفهوم " السرقة " فيما صنع الذكواني ، حين يقول " (وقد سرق معناه بعض الشعراء " (٨) فالفرق كبير ما بين التأثر في المعنى بين شاعرين ، وهذا ما تغيده ظلال كلمة " ذهب إلى " ، وبين السرقة الشعرية . ففي الحالة الأولى ، ينكر السارق فضل الأسبقين وفي الحالة الثانية ، فيها إقرار بأسبقية شعراء آخرين ، إلا أن يكون الجاحظ يقصد مفهوم السرقة ، في كلا التعبيرين ، وهذا الاحتمال ضعيف جدا ، لأنه معروف عنده ، أنه دقيق في استعمال ألفاظه ، ولا يؤمن بترادف الألفاظ ، كما سبقت الإشارة .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٣٢ ، وانظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٨ .

(٣) نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٣٢ ، وانظر شعر الأخطل ، أبي مالك غياث بن غوث التفليس ، صنعة السكرى روايته ثمن أبي جعفر محمد بن حبيب ، تحقيق د . فخر الدين قباوة ، بيروت ، ١٩٧٩ م - ١٤٠٩ هـ / ج ١ ، ص ١٨١ .

(٤) نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٣٢ .

(٥) انظر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٨ .

(٦) انظر ، نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٣٢ ، وانظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٧) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٨ .

(٨) نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٣٢ .

ولقد تأثر الذكواني أيضا ، في صدر بيته المذكور هذا ، ببيت من الشعر لأبي جندب الهذلي (١) ، ويستعمل للدلالة على هذا التأثير تعبير " ذهب إلى قول الشاعر " (٢) ، فهو إذن لا يعتبر الأمر سرقة شعرية .

وهناك أمثلة متعددة ، في موضوع السرقات الشعرية ، يسوقها الجاحظ (٣) مبينا مواضع السرقة فيها ، وهو إن لم يستطع أن يجزم في تلك السرقة ، فإنه يستعين بالتحليل العلمي المنطقي . فمن ذلك حين شك أبو الزحرف في شعره ، من وجع بركبته من أشبر الشيخوخة ، والتقدم في السن ، وشكا شاعر آخر وجعا برفقه ، مستعملا تقريبا الألفاظ ذاتها مع اختلاف في بعضها (٤) . فيملق قائلا : " ولم يفضحه إلا قول :-

* أشكو إليك وجعا برفقسي *

لأن الأول حكى أن وجعه في المكان الذي يصيب الشيوخ ، ووجع الرفق مثل وجع الأذن ، وضربان الضرس ، ليس من أوجاع الكبر في شيء " (٥) .

فالسراقات الأدبية ، آفة تصيب الأدب ، وتقضي على الأدباء ، وهي عمل بمبدأ كل البعد عن الخلق العلمي المطلوب في كل باحث عن المعرفة ، وكل مبدع في كافة الفنون والعلوم . ولذلك نرى السارق لا يخرج من سرقاته تلك بمفهم ، ولا ينال طائلا ، فلا يزداد إلا هوانا ، لتقضي عليه في النهاية ، هذه العادة السيئة القاتلة للإبداع (٦) . ولهذا يدعو الجاحظ الشعراء ، أن يجددوا في معانيهم ، كما يجددون في ألفاظهم ، لكي يستمر الشعر في التطور والنمو وهو بهذه الدعوة ، يشجع الشعراء على تمرين أخيلتهم وأذهانهم ، لتتفتح عنها التصاوير ، والمعاني المبتكرة ، دون الركون إلى القديم مسن المعنى واللفظ ، حتى يعتمد الفن الشعري ، عن التكرار العمل . ولذلك يركز على

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .

(٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .

(٣) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ، وانظر ، الحيوان ، ج ٤ ، ص ٣٥٧ .

(٤) انظر ، الحيوان ، ج ٤ ، ص ٣٥٧ .

(٥) نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٥٧ .

(٦) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٤٢ .

آفة سرقات المعاني دون الألفاظ ، لأن المعنى يحتاج إلى سعة الخيال ، وعمق التفكير ، والتجربة ، حتى يتحدد وينمو ويتطور .

لقد سبقت الإشارة ، إلى أن هناك فرقا ، ما بين سرقة المعنى ، وبين التأشير به ، أو استعارته وتبنيّه ، حيث يسوق الأمثلة التي قد تأثر فيها شعراء بغيرهم مستعملا تعبيرات من مثل قوله نغن تأثر التميمي بأحد الشعراء (١) ، فيعبر عن ذلك بقوله : " ذهب في البيت الأخير إلى قول الشاعر . وإلى قول الآخر . . . (٢) . وتمتلي ، كتبه بالأبيات الشعرية التي بينها تشابه من نواح معينة ، أو الشعراء الذين ذهبوا مذاها سب شعراء سابقين لهم ، فعلى سبيل المثال ، يسذكر أبياتا عديدة ، وكل بيت منها متأثر بغيره ، أو مشابه له (٣) ، يتخللها تعليقات له تميّن مبدى هذا التأثر ، أو نوعه من مثل قوله : " وقال الراجز وهو يمتح بدلو . . . وهذا كقول بشار الأعشى . . . وهذا المذهب شبيه بما ذهب إليه شتيم بن خويلد في قوله . . . ومثل هذا قول زيّان بن سيّار . . . (٤) ، وقد يجد أن هذا التأثر قويّ جداً ، فيستعمل له كلمة صريحة مثل " أخذ " في قوله : " قال النابغة : -

(إذا ما غزوا بالجيش خلق فوقهم)

عصائب طير تهتدي بمصائب (٥)

فأخذ هذا المعنى حميد بن ثور الهلالي فقال :-

إذا ما غزا يوما رأيت عصائب

من الطير ينظرون للذي هو صانع (٦)

- (١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .
- (٢) نفسه ، ج ١ ، ص ١٧٨ .
- (٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٤ - ٥ .
- (٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٤ .
- (٥) ديوان النابغة الذبياني ، جمع وشرح وتعليق الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ، الجزائر ، ١٩٧٦ / ص ٤٦ .
- (٦) الحيوان ، ج ٧ ، ص ٢١ ، وفي ديوان حميد بن ثور الهلالي ، صفة الأستاذ عبد العزيز الميمني ، القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م / ص ١٠٦ ، ورد قوله :-
إذا ما غزا يوما رأيت عصائب
من الطير ينظرون للذي هو صانع

وهناك أشارات أخرى مختلفة ، للدلالة على التأثر مثل قوله : " وقال الآخر في نحوه " أو " وهذا شبهه بقوله " أو " وهذا من شكل قوله " أو " وهذا مثل قوله " أو " ومثله " أو " قال . . . في المعنى الأول " (١) ، وغير ذلك من التعبيرات .

ولا يكون تأثر الشاعر ، بغيره من الشعراء ، ضرورة ، حيث إن الفنون المختلفة تتأثر فيما بينها ، ولذلك ، نجد الشاعر قد يتأثر بقول من الأقوال ، من حيث المعنى ، أو حتى من حيث بعض الألفاظ بالإضافة إلى المعنى (٢) . من ذلك على سبيل المثال ، يمين تأثر أحد الشعراء ، بقول أبي بكر الصديق من خلال شرحه لأبيات الشاعر ، فيقول : . . . ولذلك قال الشاعر :-

إذا ركب الأسوار بفلاً صَفْلَةً
لدى الحرب والهيجا قد شب نارها
فذاك دليل لا يخيل ، وعزومة
على الصبر حتى يستبان بشارها
وذو الصبر أولاً هم بكسل سلامة
وبالصبر يبدو عقبها وعيارها

ذهب إلى قول أبي بكر ، رضي الله عنه ، لخالد بن الوليد : " احرص على الموت توهب لك الحياة " .

- (١) انظر مثلاً ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ ، ونفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ ، ٢٧٦ ، ٣٥٧ ، ونفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ونفسه ، ج ٤ ، ص ٦٣ ، وانظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ، ٣٨٢ ، ونفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ، ٢٠٢ ، ونفسه ، ج ٣ ، ص ٧٦ ، ٧٣ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢١ - ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ٣٨٤ ، ٤١٩ ، ٤٦٧ ، ونفسه ، ج ٦ ، ص ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٦٨ ، ٢٤٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٧٠ ، ٤٢٢ ، ٤٣٠ ، ونفسه ، ج ٧ ، ص ٦١ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ٢٥٥ ، وانظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٤٦ - ٤٧ ، ٢٣٤ .
- (٢) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٥٤ ، ونفسه ، ج ٣ ، ص ٦٠ - ٦١ .

يقول : إذا صبرتم ولم تفروا ، هزمتم العدو ، فصار صبركم سبيلا
لحياتكم . (١)

ومن كل ما سبق ، يبين الجاحظ ، الفرق ما بين السرقة الشعرية ، والتأثر
بين الشعراء ، من خلال الأمثلة العديدة ، التي يتخللها شرح أو تعليق
هنا وهناك .

(١) التكسب بالشعر والمديح :-

تذكر لنا المصادر المختلفة ، أسماء العديد من أعلام الشعراء ، ممن اتخذوا
من الشعر وسيلة للكسب المادي ، ووظف مواهبه الفنية في البلاغة والبيان والشعر
في خدمة من يبتغي منه الفائدة ، عن طريق الإطراء والمديح حيث الشاعر يروم مصلحة
شخصية من المدح . وهو "لا" من ينعتهم الجاحظ بعبيد الشعر ، مثل زهير
والحطيئة (٢) .

فأمثال هذين الشاعرين ، ممن يتكسب بشعره ، مبتغيا " صلات الأشراف والقادة ،
وجوائز الملوك والسادة " يعمدون إلى تنقيح شعرهم ، وإجالة النظر فيه مرارا ، لكي تكون
أبيات القصيدة كلها على درجة سواء ، من الجودة . فيستفرغون طاقاتهم كلها في قصائد هم ،
حتى إن ذلك يؤدى إلى دخولهم في مداخل التكلف والصنعة . وأولئك لا يبذلون الجهد
نفسه في غير المديح ، من فنون الشعر الأخرى ، بل يخرج من ألسنتهم عفو الخاطر ، ونما
مجهود . يذكر ، لا فرق بين الشعر البائت ، والمرتل من حيث قلة الجهد الواضح فسي
ذلك الشعر (٣) .

(١) رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ .

(٢) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ١٣ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٣ - ١٤ .

ولعلّ الصدق ، من أبرز الصفات التي تضفي على هذا الضرب من الشعر - أي المديح - قيمته الفنية ، حيث يعبر الشاعر بصدق في مديحه عن الصفات التي يتحلّى بها المدحون فعلا ، ونما كذب أو تزوير للواقع ولحقيقة المدح ، لأن الكذب يلحق الضرر بالمادح ، حيث يفضح كذبه ، وبالممدوح لأن كشف الناس لحقيقة صفاته وطباعه وأفعاله ، تجعلهم يعرضون عن تصديق ما قيل فيه من المديح (١) . وهو بذلك يطرح قضية لا يزال ، الخسلاف حولها قائما حتى وقتنا الحاضر ، وهي قضية الصدق الفني ، حيث يبدى رأيه الواضح في هذا الموضوع .

وإذا كان لا بدّ للشعر من الخيال المحلق المستند إلى الواقع والحقيقة ، ولا يند من بعض المبالغة التي تخدم الأغراض الفنية ، فإن موافقة الشعر لجوهر الحال وواقع الأمور ضرورة تحتّمها الأخلاق الفنية ، حيث إن التعبير المباشر والاكتفاء بعرض الواقع كما هو ، لا يعتبر صدقا فنيا ، إذ يفقد مجرد إخبار أو عرض خالٍ من الأدوات الفنية اللازمة ، الارتقاء بهذا العرض إلى مصاف الفن الجيد .

وجملة القول ، فإن الجاحظ ، يفرّق ما بين المديح الكاذب الذي ينافق به الشاعر مدحوه ، من أجل كسب مادي زائل ، وبين الصدق في مديح الشاعر لمدحوه ، حيث يعتبر عن محبته له من خلال ذكره لحقيقة الأوصاف الحميدة التي يتحلّى بها ، ولو كانت مشوبة ببعض مبالغة أو سعة خيال ، من أجل خدمة الفن الشعري ، شرط أن لا يحط الشاعر من قيمة فنه ، أو يبيعه من أجل أطماع شخصيّة .

وقد قيل في الرسول صلى الله عليه وسلم ، مديح كثير ، وتلك الأشعار تختلف فسي درجاتها ، فمنها الجيد ، ومنها المذموم إلى درجة أن الجاحظ يصفها بالحق ، كمذهب الكميّ بن زيد في أبيات له (٢) يستهلّها بقوله :-

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣٦ ، وانظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٢١ . وانظر ، السير في الأدب ، ص ٤٩٨١ / ٤٩٨٢ .
(٢) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

فاعتسب الشوق من فؤادي والشعرُ إلى من إليه مُعْتَسَبٌ* (١)

ويمثل سبب إطلاق صفة الحمق على مذهب الكميّ في شعره هذا فيقول: "فمن رأى شاعرا مدح النبي صلى الله عليه وسلم فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس، حتى يزعم هو أن ناسا يعميونه ويثلبونه ويمتفونونه؟!" (٢). فهو يرى أن الخيال هنا ضحل، والفكرة سطحية، بالإضافة إلى الابتعاد عن الحقيقة، فالصدق الفني هنا غير وارد، فإنّه من الاستحالة بمكان، أن يعيب أحد من البشر الكميّ لمدحه الرسول صلى الله عليه وسلم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يتابع تعليقه على أبيات الكميّ فيقول: "ولقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم، فما زاد على قوله :-

وبورك قبرُ أنت فيه وبورك

به وله أهلٌ بذلك يشربُ (٣)

لقد غيّوا برّاً وحزماً ونائلاً

عشيّةً واره الصّفيح المنصبُ

وهذا شعر يصلح في عامّة الناس* (٤). فالمستوى العام لهذه الأبيات لا يرقى إلى الفن الشعري الحقيقي. وهذا الشعر الركيك، يصلح في عامّة الناس، ولا شك أنّه يقصد بقوله "عامّة الناس"، أي عامّة الطبقة المثقفة، كما سبقت الإشارة، وهو بذلك يؤكد الترابط بين الشكل والمضمون، واللفظ والمعنى، في الارتقاء، حيث الاهتمام بالمضمون وحده يهبط بمستوى القصيدة الفني، وبالشكل وحده يهبط بمستواها الفكري. لذلك فإن الفن الشعري المتكامل، يقوم على الموازنة بين هذين الأساسين المهمين في الشكل والمضمون. وهذا يعيدنا إلى نظريته المهمة في الشعر، حيث يعرفه بأنّه "صناعة، وضرب من النّسج، وجنس من التصوير" (٥).

(١) البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٣٩.

(٢) نفسه، ج ٢، ص ٢٤٠.

(٣) "يعني قبر النبي صلى الله عليه وسلم - ويثرث، يعني المدينة "البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٤٠.

(٤) البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٤٠.

(٥) الحيوان، ج ٣، ص ١٣٢.

ويرى أن شعر المديح ، إذا توقرت فيه الصفات الفنية المذكورة ، من حيث المضمون والشكل ، أي إذا كان المديح صادقا ، والأسلوب رفيعا ، والتصوير بديعا ، والخيال واسعا ، وكان شكله موافقا لمضمونه ، فإن هذا الضرب من الشعر ، يعود على كل من المادح والمدوح بالفائدة ، فالأول يستفيد " فضيلة البيان " ، والثاني يفيد من " فضيلة المأثورة " (١) .

ويذكر في هذا المجال ، أسماء بعض الخلفاء والأمراء الذين خصهم الشعراء بالمديح (٢) .

فالشعراء حين تتوجه بالمديح لشخص ما ، فلا بد أن يكون ذلك الشخص بطيلا من الأبطال ، أو سيّدا من الأسياد ، أو عالما معروفا ، أو كاتباً مشهورا . . . أي أن الله تعالى أسبغ عليه من نعمه ما جعل الشعراء يرومون رضاه ومدحه . ولذلك يختتم حديثه عن المديح بقوله : " وما أعلم في الأرض نعمة بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل مدوحاً " (٣) .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٧٢ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٣) نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ .

(٢) الهجاء :-

والعربيّ ، قديم العهد بالهجاء ، يرتبط به هذا الفن من فنون الشعر ، ارتباط الناقة ، والفرس ، والسيف . . . يسّله في وجه أعدائه ، إمّا مهاجماً وإمّا مدافعاً ، لما لـه من الأثر البالغ في المهجو ، سواء أكان فرداً أو قبيلة أو فرقة . . . على المستويات المختلفة : الاجتماعية ، أو الفكرية ، أو السياسية .

ويروي الجاحظ ، المناسبات التي قيلت فيها أشعار في الهجاء ، في فضـل الشعر والخوف منه . . . (١) من ذلك على سبيل المثال ، قول جرير المشهور ، في قبيلة نـمير (٢) :-

” ففضّ الطرف إنك من نمير
فلا كعباً بلفّت ولا كلابساً ” (٣)

فيروي ، خبر المرأة التي ” مرّت بمجلس من مجالس نمير ، فتأملها ناس منهم ” فنهرتهم مستشهدة بقوله تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) (٤) وبيت جرير المذكور (٥) . وهو يسوق هذا الخبر لمجرد الطرفة والعلم به ، حيث يملق قائلاً : ” وأخلق بهذا الحديث أن يكون مولداً ، ولقد أحسن من ولّده ” (٦) .

وفي معرض هذا الحديث عن هجاء القبيلة كلّها ، يرى أن هذا الهجاء غير صحيح ، فقبيلة نمير المهجوة هذه فيها ” شرف كثير ” (٧) ، فأتى هجاء جرير

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٣٤ وما بعدها .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٥ .

(٣) نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) النور ، ٣٠٠ .

(٥) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٦) نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٧) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

لها ، على سائر حسناتها حتى إنه يقول : " وما علمت في العرب قبيلة لقيت من جميع ما هجيت به ما لقيت نمير من بيت جريـــــــــــــــر " (١) .

ويذكر كذلك أسماء العديد من القبائل المعروفة بوفرة الفضائل ، وكثرة المحاسن ، فيأخذ الشعراء عليها ما يرونه فيها من " بعض النقص " فيشبهوا بها ، ويذهب هجاءهم لها ، بجميع أفضالها ! ويذكر أمثلة من الأشعار في هجاء تلك القبائل (٢) . ويعتدل السبب في ذلك بأن من عادة العرب " إذا وجدت رجلاً من القبيلة قد أتى قبيحاً ألزمت ذلك القبيلة كلها كما تعدح القبيلة بفعل جميل ، وإن لم يكن ذلك إلا بواحد منها " (٣) ، ولذلك نجد قبائل تهجى بأكل لحوم الكلاب وبأكل لحوم الناس ، مثل قبيلة أسد مثلاً ، ويعتذر أسماء القبائل المهجوة في هذا الصدر (٤) " ولعلك إذا أردت التحصيل تجده معذوراً " (٥) من كثرة عدد هــــــــــــا .

وفي تعليقه هذا ، إدانة لهذه العادة المؤذية ، وإدانة للشعراء كذلك الذين يطرقون في شعرهم هذا السبيل . فإذا كان الخير والشر ، يتنازعان نفس الإنسان ، وتتناوبه المحاسن والمذام ، ولا يحكم عليه من فعل صدر عنه ، أو كلمة بدرت منه ، إذا كان الحسن من الأفعال عنده ، قد طغى على القبيح منها ، فكيف بقبيلة بأكملها ، معروفة بأفضال غالبية أفرادها ، تهجى بفعل شائن صدر عن أحدهم . وهذا وفي كل قبيلة من جميع أصناف البشر ، فمنهم الشجاع ، ومنهم الجبان ، ومنهم الكريم ومنهم البخيل ولعل هذه الظاهرة استمرت حتى وقتنا الحاضر ، في الأماكن التي تكون فيها الروابط القبلية قوية على الرغم من قوله تعالى : (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (٦)

(١) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٣٦ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٦ ، وما بعدهــــــــــــا .

(٣) البخلاء ، ص ٢٣٤ .

(٤) انظر ، نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٥) نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٦) الأنعام ، ١٦٤ .

ويعود الجاحظ في هذا المجال إلى تبيان أهمية التحليل الاجتماعي في النقد الأدبي . فالشعر ، وفق هذه النظرة من نتاج العلاقات الاجتماعية والفنية ، والفكرية والسياسية . . . ولهذا نجد العرب تخشى الشعراء أشد الخشية حتى " يبلغ من خوفهم من الهجاء ومن شدة السب عليهم ، وتخوفهم أن يبقى ذلك في الأعقاب ، ويسبب به الأحياء والأموات ، أنهم إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه العواثيق ، وربما شذوا لسانه بنسفة ، كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص الحارثي حين أسرته بنو تميم يوم الكلاب " (١) . لا سيما أن الشاعر حين يهجو فائده " يشيع الصفة " ويبالغ في تضيخمها ، شأنه في ذلك شأنه حين يمدح (٢) . وهذا البيان للمبالغة ، من حيث كونها سمة فنية في فننسي الهجاء والمديح ، تقتضي سمة التخيل ، والابتعاد عن الحقيقة والواقع ، مع الخوف على ملامح بعض هذه الخيوط في نسيجه الخيالي وصوره الشعرية .

فإذا كان هجاء الفرد ، يعتبر هجاء للقبيلة بأكملها ، فما بالنا حين يمس ذلك الهجاء ، سيد تلك القبيلة وشريفها ! لا شك أن الطعنة عندئذ تكون أشد إن يصيب بها الشاعر الهاجي ، المقتل من سمعة القبيلة ، وذلك لأنه لا يسود عليها إلا الأفضل والأنبيل من أفرادها . فإذا هجى ومرغت سمعته ، لم يثب لسان أفراد القبيلة ما يفخرون به . ولا يكون ذلك الهجاء ، إلا من قبيل الحسد والفيرة التي تنهش صدور أشرف القبائل الأخرى وأسيادها . فإذا ما برز عليهم سيد القبيلة المهجو ، فيوظفون من شعراء قبائلهم من ينال من سمعة ذلك السيد (٣) . " وَمَنْ طَلَبَ عِيَاءً وَجَدَهُ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ عِيَاءً وَجَسَدَ بعض ما إذا ذكره ، وجد من يغلط فيه ويحمله عنه . " ولذلك هجى حصن بن حذيفة ، وهجى زُرارة بن عُدَس ، وهجى عبد الله بن جُدعان ، وهجى حاجب بن زُرارة (٤) (٥) . فهو يشير بذلك إلى أثر العصبية القبلية التي تسفها الشعراء وتحملهم على هجاء أسياد القبائل

(١) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٤٥ .

(٢) انظر ، الحيوان ، ج ٦ ، ص ١٣٨ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

(٥) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٣ .

الأخرى بسبب من التحاسد والتباغض بين الأسياد . ولا يزال يربط بين الشعر والعلاقات الاجتماعية والسياسية .

ولهذا الهجاء ، وقع مرّ في النفوس ، ولذلك نجد من العرب من يبكي بالدمع الغزير ، من " وقع الهجاء " . ولعلّ هذا التأثر البالغ ، نابع من الحرص على السمعة الطيبة والذكر الحسن ، ولهذا يرى أن بكاء العرب هذا " من أول كرمها " ، ويذكر أسماء أولئك الذين بكوا من الهجاء (١) لما له من أثر مرّ في نفوسهم ، وتشهيرهم بين الناس . " كما يبكي مخارق بن شهاب ، وكما يبكي علقمة بن علاثة " (٢) .

بل قد يهجو الشاعر شخصاً لم ير وجهه ، مما يدل على مدى الظلم الذي يلحق بالمهجو ، وعلى ضعة أخلاق الشاعر الهاجي ، كما كان الأمر حين " يبكي عبد الله بن حسن جدعان من بيت لخد اثربن زهير . وما زال يهجو من غير أن يكون رآه ، ولو كان رآه ورأى جماله وسهائه ونبله . والذي يقع في النفوس من تفضيله ومحبته (و) من إجلاله والرقّة عليه - أسسك " (٣) .

ومن ناحية أخرى ، فلا يكون عرضة للهجاء ، سوى من كان في منزلة وسط بين شدة الخمول ، وشدة النباهة . ويذكر أسماء القبائل التي سلعت من الهجاء ، لخمولها وخفوت صوتها " كما سلعت غسان وغيلان من قبائل عمرو بن تميم " (٤) ، كما يذكر أسماء القبائل التي لا تتضرر بالهجاء لذكائها ونباهتها " مثل نباهة بني بدر ونسبي فزارة ، ومثل نباهة بني عُدس بن زيد وبني عبد الله بن دارم ، ومثل نباهة الدّيان بن عبد المدان وبني الحارث بن كعب " (٥) .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

(٣) نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

(٤) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٣٨ .

(٥) نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٨ .

ولكن الجاحظ لا يعمّل السبب في ذلك ، فلهذا أن من يكون في منزله تتوسط شدة الذكاء لا يخلو في أقواله وأفعاله ، من سقطات كثيرة ، وكبوات عديدة ، أما شديد الخمول ، فلا يسترعي انتباه أحد ، ولذلك لا يلتفت إليه الشعراء ، إذ هو بخموله يتجنب سبب السقطات التي قد يقع فيها متوسط الذكاء ، ومن جهة أخرى ، فإن الشديد الذكاء والنباهة ، لا يدع مجالاً للسقطات الكثيرة ، لأنه بنباهته ، يعرف كيفية تجنبها أو إخفائها ، فحسن التخلص تكون سمة من سماته . فالأمر لا يخلو من سقطات ما أو خطأ قد يقع فيه الذكي .

ولكي يعتبر الهجاء هجاءً بحق ، فينبغي أن تكون الصفة التي يلحقها الشاعر بالمهجو "مثلة" (١) . وأن تصيبه في الصميم ، ويذكر الأمثلة على شعر لم يعتبر هجاءً لأنسبه لم يكن بالموجع والمؤلم (٢) .

ويتطرق ، إلى قضية يتسم بها العربي في هجائه ، وقد يقع فيها اللبس ، وهي أن العربي قد يهجو غيره بصفة ، فإن ابتلي بها ، تحولت هذه الصفة إلى مفخرة له ، يتباهى بها ، ويحرص الجاحظ في تحديد مقولته هذه وتوضيحها ، فيقول " ولكنه : أي العربي لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به صاحبه " . ويؤكد ذلك باستعماله عبارة " فافهم هذه " . وينبه إلى أن الناس " يفلطون على العرب ويزعمون أنهم قد يمدحون الشيء الذي قد يهجون به " . فينقض هذه المقولة ويفندّها حيث يقول : " وهذا باطل فإنسبه ليس شيء إلا وله وجهان ، وطرفان وطريقان ، فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين ، وإذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين " . ثم يستشهد على ذلك بأمثلة ، فيورد أبياتا للحارث ابن حلزة يفخر فيها ببيكر بن وائل على تغلب ثم يعاتبهم فيها عتابا دالاً على أنهم لا ينتصفون منهم حيث يقول موجهاً العتاب إلى الأراقم :-

(١) " ومثل بالرجل يمثل مثلاً ومثلاً . . . ومثل ، كلاهما : نكل به ، وهي المثلة والمثلية . . . والعرب تقول للمعقوبة ، مثله ومثله . . . وكأن المثل مأخوذ من المثل لأنسبه إذا شنع في عقوبته جعله مثلاً وعلماً " . لسان العرب (مثل) .

(٢) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ ، وانظر البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٣٧ .

وأنا عن الأراقم أنيسا
 ، وخطبنا نعننى به ونسنا
 يخطبون البري، منا بذي الدنـ
 ب ولا ينفع الخلي الخـ
 زعموا أن كل من ضرب العيـ
 رهمال لنا وأنا السـ
 إن إخواننا الأراقم يغـ
 ن علينا في قولهم إـ

الى آخر القصيدة :- . . .

(ويفسر هذه الظاهرة ، بأنه قد يجتمع في اللفظة معنيان متناقضان ، فيستعملان
 بهما تارة على سبيل المدح ، وتارة على سبيل الذم (١) .

ولعل هذه الرؤية المتمثلة العميقة ، للفظ وعلاقته بالألفاظ الأخرى داخل
 السياق العام للجملة أو بيت الشعر . . . هي التي قادت الجاحظ الى توضيحها في
 هذا التفسير المنطقي لهذه الظاهرة ، فاللفظ يتغير معناه ويتبدل ، بحسب موقعه
 من الجملة ، وبحسب الإشارات الأخرى ، التي توحى بها الألفاظ ، مقدّمة في مجملها
 المعنى العام ، إما مدحا أو ذما . ولا شك أن نبرة التعميم في قوله : " فانه ليس شيء
 إلا وله وجهان وطرفان وطريقان ، فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين ، وإذا ذموا
 ذكروا أقبح الوجهين " (٢) .

فهذه النظرية الكلية ، العامة ، الشاملة لنظرية المتضادات ، هي من تأثير دراسة
 الفلسفة والمنطق ، والفكر المعتزلي الذي دخل في النقد الأدبي ، فانه . يعتبر من قبيل

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢) نفسه ، ج ٥ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

التركيز على الترابط الوثيق ما بين الفكر والأدب ، وذلك التأثير الجذري الحاصل بينهما .
فقد استطاع الجاحظ بفكره الفلسفي هذا أن يفسر ظاهرة فنية عربية قديمة ، ولولا تفسيره
هذا ، ونظرته الثاقبة ، لآتهم العرب بالغموض والتناقض في هذا الصدد .

وفي نهاية المطاف ، حول مبحث الهجاء ، يعبر الجاحظ ويكرر تحذيره من
مفبة فتك الشعر ، فيقول : " فيجب على العاقل بعد أن يعرف ميسم الشعر ومضرتيه ،
أن يتقي لسان أخس الشعراء . وأجهلهم شعرا بشطرماله ، بل بما أمكن من ذلك .
فأما العربي أو المولى الراوية ، فلو خرج إلى الشعراء من جميع ملكه لما عنفت " (١) .

فقد اعترف الجاحظ للشعر ، بمكانته وما يتركه من أثر في النفوس مدحا وذمما ،
فيشبه آثار الهجاء بوقع النبال ، وأن أولئك الذين لا يكثرثون لها ، يخرجون من حدود
حساسية الإنسان ، إلى صفة الأبهم الأعجم الذي لا يوءثر فيه وقع الكلام ، ويستشبه
على ذلك بقول الباخريزي :-

مالي أرى الناس يأخذون ويمطون	ن ويستمتعون بالنشيب
وأنت مثل الجمار أبهم لا	تشكو جراحات السن العرب (٢)

(١) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٩٤ .
(٢) نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٩٤ .

لقد كان لانتشار اللغة العربية ، في الأمصار المختلفة ، نتيجة للفتوح الإسلامية ، أثر كبير في الشعراء من العجم ، الذين شملتهم اللغة العربية وأدابتهم في بوتقتها واحتوتهم داخل إطارها ، فغدوا يقرضون الشعر العربي . وفي هذا الصدد ، يفسر الجاحظ بين شعر هؤلاء المولدين ، وشعر العربي الصميم ، فيقول : " والقضية المستتي لا أحتشم منها ، ولا أهاب الخصومة فيها : أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب ، أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى ، من المولدة والنابتة . (١) "

ففي قوله " عامة " ، سواء في نسبها إلى العرب ، أو إلى المولدين ، فهو يري التعميم ليكون قاعدة في هذا الموضوع ، ولكي يحترز لنفسه - مما قد يشذ عن هذه القاعدة ، وعن هذه العمومية ، من أشعار للمولدين ، قد تفوق أشعارا لبعض العرب .

فالقاعدة إذن ، أن العرب ، سواء أكانوا حضرا أم بدوا . . . أشعر من سائر الشعراء من أصل عجمي ، في الأمصار والقرى المختلفة ، غير أنه لا يوضح ما إذا كان هؤلاء المولدون يتكلمون اللغة العربية منذ مولدهم ، وهي لهم بمثابة اللغة الأم ، بفضل النظر عن أصلهم العجمي ، أم أنهم نشأوا على لغة آبائهم وأجدادهم ، وتعلموا اللغة العربية ، باعتبارها اللغة الرسمية ، إلى جانب لغتهم الأصلية . فإذا كانوا من الصنف الأول ، أي تشرّبوا اللغة العربية ، ونشأوا عليها مذ كانوا في أمهاتهم ، فمن الممكن جدا أن يبرز منهم في شعره ، على الشاعر العربي الأصل ، ألا أن يكون الجاحظ يعتبر الموهبة الشعرية وراثية ، يتميز بها العرب والأعراب عن سائر الأمم والشعوب ، فكأن أن قصرها على العرب في غير هذا الموضع

وإذا كانوا من الصنف الثاني ، ممن يعتبر اللغة العربية لغة رسمية ، يتعلمونها إلى جانب لغتهم الأم ، لأنها ضرورة يقتضيها اعتناقهم الإسلام ، فإن شعرهم عندئذ

يخرج متكلفاً مفتقداً للذوق والسليقة ، وأسلوب التعبير العربي الأصيل السليم . وهذا أمر طبيعي ، حيث الإنسان يكون مبدعاً في اللغة التي ينشأ عليها ، وتسري في دماغه منذ نعومة أظفاره ، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى فمن الملاحظ أن الأعرابي الذي لم تؤثر فيه المدنية ، يتمتع بالموهبة والسليقة الشعرية ، أكثر من العربي المتمدّن ، الذي ينشأ في نعيم الحضارة والمدنية ، حيث يتأثر بالمعجم الذين يقطنون في مدينته من حيث الأسلوب واللغة وطرائق التفكير والحياة . . . مما يبتعد عن الفن الشعري العربي الخالص . فإذا كان الأعرابي يفوق العربي المتمدّن في فن الشعر والموهبة الفنية ، فكيف تكون الحال ، حين يقارن شعر هذا الأعرابي الأصيل ، بالمولدين من الشعراء " المتعربين " إن جاز التعبير ، لأنهم يركّزون نشاطهم ويوجهون تفكيرهم إلى قول الأشعار " اللاحقة بأشعار أهل البدو ، أي يتكلفونه . فإذا ما تساهل المولّد في نظم شعره ، وأراد أن يحاكي الأعرابي في ركوبه إلى السليقة الشعرية " انحلت قوّته ، واضطرب كلامه " (١) .

يلاً أنه لا يذهب إلى أن كلّ مولّد رديء الشعر ، وكلّ عربي جيّد ، فهو يضطلع نظرية عامة ، مستندة إلى رؤية عامة لشعر العرب والمولدين ، حيث للموهبة المتوارثة أباً عن جدّ ، دورها في رقي العمل الفني أو انحطاط مستواه . ومن هنا ينطلق في حكمه العام ، ولكن لكل قاعدة شواهد . لذلك يرى أنّ من يحاول أن يحطّ من قيمة مستوى شعر المولدين ، لمجرد أن أصلهم عجمي ، ومن قيمة من يروي شعرهم ، أنه جاهل " غير بصير بجوهر ما يروي . ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممّن كان ، وفي أيّ زمان كان " (٢) . وهو بذلك يبيّن منهجه في نقد الشعر ، حيث ينظر في الأبيات نفسها ، متجرداً من أفكار مسبقة عن القائل أو الراوي ، فينظر في النص الشعري ، ومن خلال المقاييس النقدية والشعرية ، يطلق حكمه ، إذا كان ذلك الشعر جيداً أم رديئاً . فالناقد الحقيقي يميّز

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٣٢ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٣٠ . وانظر ، محمد خير شيخ موسى ، فضول الناقة الحري وقضاياها ، الدار البيضاء - المغرب ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م / ص ١١٥ - ١١٦ .

الشعر الجيد من الردي ، كما قد يحدّد الزمان الذّات قيلت فيه الأبيات الذي هو بصددها ، لأن الألفاظ والأسلوب والموضوع وطريقة التفكير . . . كل ذلك يظهر الزمان الذي قال فيه الشاعر قصيدته ، أو أبياته .

وخلاصة الأمر ، فإن الجاحظ يرى أن العرب أشعر من المولّدة ، بصورة عامّة ، لأن الموهبة أساس هذا الفن ، تتنامى بالدراسة وطول العمران ، وعمق التجربة ، وتنتقل بالوراثة حيث تولد أصلاً مع الطفل ، فتشذبها وتنمّيها الخبرات التي تمر به في حياته ، والعكوف على الدرس والتعلّم ، والبيئة التي ينشأ فيها . . . مما يساعد على صقل موهبته وإبرازها .

غير أن هناك من المولدين ، من قد يتمتع بالموهبة ، ويقبض ، وافر من التجربة اللغوية والمعرفة ، فيبرز على أقرانه من الشعراء ، فلا يجوز أن يبخسه أحد حقّه من تبيين مواضع الحسن من شعره ، ولا يجوز لأحد أن يتعاض عنها لأن قائلها عجي الأصل .

بل إن هذه القضية ، قد تقود إلى ملاحظة ، يثيرها الجاحظ ، وهي ظاهرة إدخال بعض الألفاظ الأعجمية ، لا سيّما الألفاظ الفارسية ، إلى الشعر العربي على سبيل الاستحسان والاستطراف ، ولا يقتصر الأمر على الشاعر العربي في الحواضر والمدن ، وإنما تجاوزه إلى الأعرابي كذلك . ولقد سبقت الإشارة إلى تأثير لغة العامة بألفاظ فارسيّة (١) في اللغة المحكية ولكن هذا التأثير تعمّق لتدخل ألفاظ الفرس في الشعر العربي ، ويسوق الأمثلة في هذا الصدد (٢) ، ليبين كيفيّة استعمالها في الشعر .

وهو مع ذلك كله ، لا يفسّر سبب هذا الاستحسان ، فربما أنه من طبيعّة البشر ، حب التعرف والاستطلاع ، والميل إلى كل ما كان غريباً عن طبائعهم ولغاتهم ، وطرائقهم في الحياة . ولهذا تتواصل الشعوب المختلفة فيما بينها ، ويحصل التأثير والتأثير ، ولولا هذا الطبع البشري ، لغنيت البشرية ولما قامت لأية حضارة من الحضارات القديمة والحديثة ، قائمة .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٤١ - ١٤٤ .

هذا مع العلم أنه في ذلك الوقت ، كانت الحضارة العربية الإسلامية ، سيّدة الحضارات في العالم ، وكان العرب يشعرون بقوّتهم ، فانفتحوا على حضارات العالم الأخرى ، والأقوام والشعوب المختلفة ، ولم يخشوا تأثيرها فيهم ، لأن ثقتهم بقوّتهم جعلت نظرهم إلى سائر الشعوب من العجم ، نظرة متسامحة ، لا يشوبها حقد أو خوف أو تردد ، على عكس تيّار الشعوبية آنذاك ، الذي كان يقاوم بضراوة ، كل ما يمت إلى العربية والعرب بصلة ، وما هذه المقاومة وذلك الحقد ، إلا دليل على شعور الشعوبيين يتصدّدهم الغرس ، بضعفهم وقلة حيلتهم أمام هذه الحضارة المتألّفة ، التي تفجّر بجرها من المبادئ التابعة من القرآن الكريم الذي نزل بلسان العرب .

(٤) الشعر والموسيقى :-

والشعر ، فنّ يقوم على التقطيع الموسيقي ، وهذه الخاصية تربطه بفن الموسيقى والنغم ، فننتج عن هذا الارتباط ، فن آخر ، له وزنه وتأثيره ، ألا وهو فن الغناء (١) ، فيتطرق الجاحظ إلى قضية ، لعلها ما زالت تشغل بعض المتزمتين ، حتى وقتنا الحاضر ، وهي قضية تحريم الغناء ، فيرى أن الغناء يحسن ويقبح على حسب الصدق أو الكذب ، أي على حسب الميزان الأخلاقي ، الذي يوزن به الناس كذلك في جميع مناحي معاشهم ، فالصادق منهم يحب ، والكاذب يبذ . وكذلك الأمر بالنسبة للغناء ، فالشعر كلام موزون ، وهذا الوزن لا يغيّر من الكلام شيئاً ، في اللفظ أو المعنى ولا يخرج عن سبيله أو يحوّل الحكمة منه . فإذا كان الكلام محلّلاً ، فإن ما يتبعه من الوزن والتقنية محلّلان بالضرورة ، إذ لا تحرّهما علة من العلة أو سبب من الأسباب .

هذا ووزن الشعر ، إنما هو ضرب من الموسيقى أي " وزن الغناء " وكذلك فسان العروض هو جزء من علم الموسيقى " وهو من كتاب حدّ النفوس ، تحدّه الألسن بحسب مقتنع ، وقد يعرف بالهاجس كما يعرف بالإحصاء والوزن ، فلا وجه لتحريمه ، ولا أصل لذلك

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ص ١٦٠ .

في كتاب الله تعالى ولا سنة نبيه عليه السلام* (١). فالمرجع الوحيد والأكيد له ، هو القرآن الكريم وما صحّ من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكل ما عداها قابيل للنقاش والدحض ، والقبول والرفض ، فمن يحرم الفناء ، فمن عنده ، لا من عند الله تعالى .

فإذا كان بعضهم يزعم أن الفناء محرم ، لأنه يشغل عن ذكر الله ، فإن الكثير من عروض الدنيا تشغل عن ذكر الله ، ولكنها غير محرمة ،* ونعلم أن قطع الدهر بذكر الله لمن أمكنه أفضل ، إلا أنه إذا أذى الرجل الفرض فهذه الأمور كلها له مباحة ، وإذا قصر عنه لزمه المأثم . فإذا كان الترويح عن النفس حراما ، لكان أولى بالأنبياء عليهم السلام ، أن يسلموا ما يشغل عن ذكر الله " هذا سليمان بن داود عليهما السلام ، ألهاه عرض الخيل عن الصلاة حتى غابت الشمس ، فمركبها (٢) وقطع ركبها (٣) .

وينصح الجاحظ بحفظ الشعر ومذاكرته . يقول في معرض تقديمه لقصيدتين من شعر بشر بن المعتز (٤) : * . . . فإن حفظ الشعر أهون على النفس ، وإذا حفظ كان أعلق وأثبت ، وكان شا هدا . وان أحتيج إلى ضرب المثل كان مثلا . . . وإذا قسمنا ما عندنا في هذه الأصناف ، على بيتين هذين الشعرين ، وقع ذكرهما مصنفا فيصير حينئذ آنق في الأسماع ، وأشدّ في الحفـظ * (٥) .

-
- (١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .
 (٢) " أبو عمرو : تقول إذا أعياك غريبك فغريب ، أي احتل . . . ومن أمثالهم في خلف الوعد : مواعيد غرقوب . . . لسان العرب (غرقب) .
 (٣) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٦١ .
 (٤) انظر ، الحيوان ، ج ٦ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .
 (٥) نفسه ، ج ٦ ، ص ٢٨٤ ، وانظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٩١ .

٥) دور الشعر في الأخبار والروايات :-

وللشعر ، دور كبير في تثبيت صحة الأخبار والروايات ، أو نفيها . يقول الجاحظ في تقديم أبي بكر على غيره من الصحابة : " على أنه إذا تفقدنا أخبارهم ، وأحصيناهم أحاديثهم وعدد رجالهم ، و نظرنا في صحة أسانيدهم ، كان الخبر في تقديم أبي بكر أم ، ورجاله أكثر ، وإسناده أصح ، وهم بذلك أشهر ، واللفظ به أظهر ، مسع الأشعار الصحيحة والأخبار المستفيضة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وممته وفاته . وليس بين الأشعار وبين الأخبار فرق إذا امتنع في مجيئها وأصل مخرجها التباعد والاتفاق والتواطؤ " (١) .

وفي هذا النص ، يتبين لنا جانب من منهجه ، في التثبت من صحة الخبر أو الرواية حيث يحصي عدد الأخبار والآحاديث ، مع عدد الرجال الذين رووا تلك الأحاديث ثم يدقق في صحة ذلك الإسناد . ولا شك أنه متأثر في ذلك ، بمنهج علماء الحديث النبوي كما سبقت الإشارة ، ولمزيد من التأكيد يستعين بما صح من الشعر ، لأن الشعر الصحيح ، هو تاريخ صحيح ، يكشف ما غمض منه أو خفي ، وله دور كبير في تأكيد الحقائق وتوضيحها . ولذلك يقول :-

" وإنما ذكرنا الأشعار مع الأخبار ليعرفوا ظهور أمره ، ووجوه دلائله وقهر أسبابه ، وليكون آنس للقلوب ، وأسكن للنفوس ، وأقطع لشغب الخصم ، ولجحد المنازع " (٢) .

ويدلل على أهمية الشعر ، من حيث كونها أخباراً وتثبيتاً للحجج وتاريخاً للوقائع ، فيورد مثلاً أبياتا لشريح بن هاني الحارثي يلقب فيها بأبي بكر بالصدق ، مع أنه كان يتشيع (٣) . فيعلق على شعر شريح هذا قائلاً : " ألا ترى

(١) العشمانية ، ص ٣ ، وانظر نفسه ، ص ١٢٤ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٤ .

(٣) انظر نفسه ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

آن هذا شريح بن هاني، سعى أبا بكر صديقا على ما لم يزل يسعى به (١). ويستمر في إيراد الأشعار وأسماء قائلها حول تسمية أبي بكر بالصديق (٢)، مبيّنا صفته هو، لا الشعراء، ومن شاكلهم بأنهم "ليسوا بأصحاب خصوصيات ولا نظر في الفاضل والمفضول" (٣). وذلك لكي ينفي عن شعرهم تزويرا للحقائق، أو تهمة الوضع، وليثبت صحة أشعارهم، بعدم تحيزهم لغرة من الفرق.

ومن ناحية أخرى، فإن الأشعار كذلك تصوّر المجتمع وأحواله وظروفه فيقول: "وإذا نظرت في أشعارهم علمت أنهم قد أكلوا الطيب وعرفوه، لأن الناعم من الطعام لا يكون إلا عند أهل الثراء وأصحاب العيش... (٤).

(وبالشعر، تكتب الموضوعات المختلفة، من العلوم والمعارف، ومن ذلك علم الحيوان، حيث طرّقه "العرب والأغراب" شعرا، مما يدل على أن هذا العلم لم يكن مقصورا على الفلاسفة، ورجال العلم من العجم. وفي جعبة الجاحظ، "أشعار كثيرة، وشواهد عديدة"، قد أعرض عن تفسيرها خشية الإطالة، فلا يصيب معناها، ولا يرقى إلى مفزاها إلا الراوية الحاذق البار، ذو المعرفة الواسعة بالشعر والشعراء (٥). كما يذكر أسماء بعض الحيوانات التي ذكرتها العرب في أشعارها (٦).

وهناك موضوعات أخرى تطرّق إليها العرب شعرا، من ذلك مثلا في "صفة الفسول والشیطان" (٧)، وفي ذكر الجان (٨) وغير ذلك من الموضوعات المتعددة. وإن المتصفح لكتب الجاحظ، يجد لها غنية بالأشعار في شتى الميادين، ومختلف الموضوعات والمجالات ما يبرهن على قدرة العربي الشعرية والفكرية في آن واحد.

- (١) العثمانية، ص ١٢٥.
- (٢) انظر، نفسه، ص ١٢٥ - ١٢٧.
- (٣) انظر، نفسه، ص ١٢٧.
- (٤) البخل، ص ٢٢٩.
- (٥) انظر، الحيوان، ج ٣، ص ٢٦٨.
- (٦) انظر، رسائل الجاحظ، ج ٢، ص ٢٧٠.
- (٧) انظر، الحيوان، ج ٦، ص ٢١٤.
- (٨) انظر، نفسه، ج ٦، ص ١٨٢ وما بعدها.

لقد لفت انتباه الجاحظ ، شيع أمثال وأشعار أكثر من غيرها ، على الرغم من كونها أقل في المستوى والجودة (١) ، " و بعد فكم من بيت شعر قد سار ، وأجود منه مقيم في بطون الدفاتر ، لا تزيد الأيام إلا خمولا ، كما لا تزيد الذي دونه إلا شهرة ورفعة " (٢) فيعجب من هذه الظاهرة لا سيما أنها تتعدى الشعر إلى غيره ، كالتاريخ . فمن ذلك مثلاً كبار القادة الذين قتلهم علي بن أبي طالب وأجهز عليهم ، فقد أغفلت العامة ذكرهم ، مما دعا إلى اغفالها ذكر فروسية علي وشجاعته (٣) .

غير أنه ، لا يجد تعليلاً منطقياً لمثل هذه الظاهرة الغريبة ، لأن أفضل الناس وأشجعهم وأفطنهم وأشعرهم . . . أولاهم بالشهرة من غيرهم . فإذا كان الأمر مقصوراً على الشعر والأدب ، كان التعليل في يسرة التعبير وسهولة اللفظ وقرب المعنى وغير ذلك مما قد يبدد الوهم والتعجب ، وهو يذكر غير مرة ، أن العامة تؤثّر ما سهل من اللفظ حتى ولو كان خطأ شائعاً . فمن ذلك مثلاً عند مقارنته بين استعمال العامة لبعض الألفاظ في غير مواضعها ، واستعمالها في القرآن الكريم (٤) ، ولكن العجيب في الأمر ، حين يتجاوز الشعر إلى غيره ، مما لا يستطيع الجاحظ تعليله . ولعلها ظاهرة نفسية واجتماعية ، فضلاً عن كونها ظاهرة أدبية .

ثم ينتقل إلى ظاهرة أخرى مهمة ، وهي " كثرة الشعر وقلته في بعض قبائل العرب " ، حيث يرى أن قبائل مثل بني حنيفة ، مشهورون بالقوة ، والشدة ، وبالكسرة والفرة ، وكثرة الفارات ، فاستحقوا بذلك حسد سائر القبائل ، " حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكرائها " ، إلا أن شعرهم قليل بل إنهم أقدم القبائل شعراً . فيمزو السبب في ذلك إلى " الحظوظ والفرائز ، والبلاد والأعراق " ، فلا يملك سوى هذا التفسير لهذه الظاهرة الغريبة ، لأنه لم يجد التعليل المناسب في الربط بين كثرة الشعر والشعر

- (١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ ، وانظر ، الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .
- (٢) الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .
- (٣) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .
- (٤) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠ .

فبين الخصب والنماء . فقد وجد أن هناك قبائل تعيش حياة رغبة ، خصبة ، وتأكل ما طاب من الطعام ، ومع ذلك فإن شعرهم قليل ، فازدهار الناحية الاقتصادية ، أو انهيارها ، لا تؤثر في الشعر من حيث الكثرة أو القلة . فإذا حاول الربط بين طبيعة الغذاء وبين هذه الظاهرة ، وجد ذلك باطلا حيث وجد أن قبيلة ثقيف مثلاً شعرها قليل ، وطبعها غريب * وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء * على الرغم من خصوبة أرضهم (١) .

ويستمر في ذكر القبائل التي كثر شعرها أو قل (٢) ، مشيراً إلى نقطة مهمة ، في معرض حديثه عن بني الحارث ، إذ كثر شعرهم وجاء بعد الإسلام ، وقد كان قليلاً في الجاهلية (٣) مبطلاً بدليله هذا دعوى من يزعم أن الشعر قد تراجع بعد الإسلام عما كان عليه في الجاهلية ، وخاصة في صدر الإسلام . فها هي قبيلة مسند القبائل العربية الشريفة الأصيلية (٤) ، تفتقت قريحتها وتفتحت عن شعورها مدعين بعد إسلامهم

-
- (١) انظر ، الحيوان ، ج ٤ ، ص ٣٨٠ - ٣٨١ .
 - (٢) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٨١ - ٣٨٢ .
 - (٣) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٨١ .
 - (٤) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٣٨١ .

(٦) شعر المرأة :-

لقد عانت المرأة عهداً طويلاً ، من القيود والأغلال التي أثقلت كاهلها ، وكبّلت حريتها ، ومسحت شخصيتها ، فأضحت مجهولة وانتفى وجودها على الساحة الأدبية ، وغدت تعيش على هامش حياة الرجل . فإذا جاء ذكرها في معظم المصادر المختلفة ، فإنها تبرز على نحو ما يحلو للرجل تصويرها ؛ فهي إما جارية حسناء وقينة تأسّر القلوب والأسماع . وإما زوجة أو محبوبة يخلد اسمها الشاعر الذي قال فيها إما غزلاً أو رثاء ، فيقترن اسمها به ، ولا تشكّل سوى موضوع من الموضوعات التي قد طرقها الشاعر .

أما الكاتبة البارزة ، والشاعرة المغلقة ، والطبيبة الماهرة ، والفيلسوفة المفكّرة فلا شهرة لها إلا في القليل النادر !

ولقد تنبّه الجاحظ لهذه الظاهرة ، فحرص على أن يضمّن كتبه المليئة بالمختارات الشعرية ، باقة من شعر المرأة المنسي المتجاهل ، في موضوعات متعدّدة ، ولعلّ من أشهرها ، القصيدة التي ترثي فيها الشاعرة ليلى بنت النضر أباه ، في قصيدتها المشهورة (١) التي تستهلّها بقولها :-

يا راكباً إن الأثيل مظنّة

من صبح خامة وأنت موقّق (٢)

وهي قصيدة مؤثّرة ، تعكس شدة حزنها ومصابها ، لمقتل أبيها وتعاتب فيها الرسول صلى الله عليه وسلّم ، في قولها :-

أحمدُها أنتِ صنّ نجيفة

في قومها والفحل فحل ممّرق

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤ .

ما كان ضرك لو مننت وربما
من الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من تركت قرابة
وأحقهم إن كان عتق يعتسق* (١)

ولعل هذه الأبيات ، تنبئ عن الأسلوب الجزل ، غير المتكلف ، حيث إن الموضوع لا يحتمل تكلفاً أو تصنعاً ، فجاءت القصيدة مؤثرة أشد التأثير ، حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه قال بعد انتهائها من قصيدتها : " لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته ! " (٢) ، مما يبين مدى تأثير الشعر ، وقوته إلى درجة أنه من شدة تأثيره قد يعتق رقاب الناس من الموت المحقق .

وليلي بنت النضر هذه ، كانت شاعرة معروفة فيما يبدو ، وإن يذكرها الجاحظ فسي موضع آخر ، ذاكرا بيتاً من شعرها (٣) ، فيقول : " فمن ذلك قول ليلي بنت النضر الشاعرة " (٤) .

غير أننا لا نسمع لها شعراً كثيراً ، ولا نعرف لها ديواناً مشهوراً ، ربما لأن رواية الأشعار لم يحفلوا بها ، لكونها امرأة ، وإن لا يقال عن المرء أنه شاعر ، من قصيدة واحدة ينظمها ، أو بيت شعر يطلقه وحسب ، بل لا بد من أن يكون له شعر كثير ، حتى يستحق هذا النعت ، فلا نرى لهذه الشاعرة ، شهرة ، كما طارت شهرة حسان بن ثابت مثلاً في الآفاق ، وكما لمع نجم غيره ، من شعراء صدر الإسلام .

ويفرد الجاحظ ، عنواناً يسميه بـ " قطعة من أشعار النساء " (٥) ، ومع أن الشعر شعر وحسب ، لا فرق فيه بين امرأة ورجل ، إلا أن في نسبته الشعر إلى النساء في هذا

- (١) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٤٤ .
- (٢) نفسه ، ج ٤ ، ص ٤٤ .
- (٣) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣١٣ .
- (٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٣١٣ .
- (٥) انظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٥٣ - ٥٦ .

الموضع ، ليس للتفريق ، وإنما لإبراز قدرة المرأة الشاعرة ، على طرق موضوع العشق والفضل ، في شعرها ، مما يدل على ذلك القسط من التحرر الذي كان المجتمع العربي يعميش في كنفه . فإذا كان الشاعر يعبّر عن عشقه ، فيتفوّز في محبوبته ، ويذكر اسمها في بعض الأحيان ، فإن للمرأة الحق في التعبير عن مشاعرها نحو محبوبها ، بل إنها لا تسترّد في ذكر اسمه ، كنحو إعلان إحدى الشاعرات من خثعم على الملأ أنها تحب رجلاً اسمه " كعب بن طارق " ، إذا تقول :-

فإن تسألوني مَنْ أَحَبُّ فَإِنِّي
أَحَبُّ ، وَبِيتِ اللَّهِ ، كَعْبُ بْنُ طَارِقٍ
أَحَبُّ الْفَسْتَى الْجَدِّ السَّلُولِيَّ نَاضِلًا
على الناس معتاداً لِرُضْبِ الْفَسَارِقِ * (١)

وأعلان شاعرة أخرى لم يذكر اسمها أنها تحب رجلاً اسمه " خالد " ، حيث تسمى الدنيا جميلة بوجوده ، وقيحة " لما تجهز غاديا " ، فتقول :-

وَمَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَفِي الدَّارِ خَالِدٌ
وَأَقْبَحَهَا لَمَّا تَجَهَّزَ غَادِيَا * (٢)

بل إن بعض هذه الأشعار تتسم بطابع الحوار الشعري ، بين المعشوق الشاعر ، ومعشوقته الشاعرة ، يعبّر فيها كلاهما عن وجده وكلفه بمحبته ، وما لاقاه من اضطهاد الناس له من جرّاء عشقه وإقباله على محبوبته . فيروي أن إحدى الشاعرات ، ردت على عتاب معشوقها لها ، بقولها :-

وَأَنْتَ الَّذِي أَخْلَفْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي
وَأَهْرَزْتَنِي لِلنَّاسِ حَتَّى تَرَكْتَنِي
فَلَوْ أَنَّ قَوْلًا يَكْلِمُ الْجِسْمَ قَدْ بَدَأَ
وَأَشْمَتَ بِي مَنْ كَانَ فِيكَ يَلُومُ
لَهُمْ غَرَضًا أَرْقَى وَأَنْتَ سَلِيمٌ
بِجِلْدِي مِنْ قَوْلِ الْوُشَاةِ كُلُّهُمْ * (٣)

(١) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

(٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٤ .

(٣) نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٥ .

وهناك بعض الأشعار ، حيث تتفزل الشاعرة بحبيبها وتصف جماله ، فـ
يأخذى هذه الحواريات الشعرية ، حيث تقول الشاعرة في إجابتها :-

شهدتُ وبيتَ الله أنكَ بَارِدُ الـ
ثنايا وَأَنَّ الخَصْرَ منك رَقِيقُ
وَأَنَّكَ مَشْبُوحُ الدَّرَاعَيْنِ خُلْجَمُ
وَأَنَّكَ إِذْ تَخْلُو بهنَّ رَفِيقُ (١)

وهناك أيضا أشعار متفرقة للنساء ، في موضوعات مختلفة (٢) . وكثيرا ما
نرى الرواة يغفلون أسماء الشعراء .

ومن السهل أن نتصور أنه إذا ما طرق الأسماع بيت من الشعر ، وكانت ناظمته امرأة
لم يكثر الرواة بذكر اسمها ، وقد يكتفون بتناقل شعرها ، إذا خدم أغراضهم وموضوعاتهم .
ولعلّ الدليل على ذلك ، أن الجاحظ ، المعروف بدقته المتناهية ، وإصراره على ذكر
اسم الشاعرة ، حتى أنه يبحث عن أسماء الشعراء المغمورين ليذكرها . ويحرص على
التعريف بهم ولو قليلا ، إن وجد لهم ترجمة ما ، كأن يقول مثلا : " وقال بعد ذلك سليمان
الأعمى ، أخو مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر " (٣) . وغير ذلك كثير .

وعند ما يذكر شيئا من شعر النساء - على قلته - فإنه لم يوفق في معظم الأحيان إلى
الحصول على اسم الشاعرة ، من ذلك يقول : " قالت أعرابية . . . " (٤) أو " وقالت
امرأة من خشم . . . " (٥) أو " وقالت أخرى . . . " (٦) أو " وقالت امرأة من غامد
. . . " (٧) . وما إلى ذلك .

- (١) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٥٦ .
- (٢) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٤٩ ، ١٨٠ ، ونفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ ، ٣٥٨ ،
ونفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ ، ٣٠٠ - ٣٠١ ، ٣٦٣ ، ونفسه ، ج ٤ ، ص ٥٧ ، وانظر ، الحيوان ،
ج ٣ ، ص ٧٦ - ٧٥ ، ٨٩ - ٩٠ .
- (٣) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣١ .
- (٤) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٥٣ .
- (٥) نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٤ .
- (٦) نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٤ .
- (٧) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .

ولتعليل هذه الظاهرة ، يلجأ الجاحظ ، إلى مواكبة التطور التاريخي للمرأة ، حيث
 " لم يكن بين رجال العرب ونسائها حجاب ، ولا كانوا يرضون مع سقوط الحجاب بنظرة
 القلّة ولا لحظة الخُلسة ، دون أن يجتمعوا على الحديث والمسامرة ، ويزد وجوا فسي
 المناسبة والمُثاقفة . . . وكل ذلك بأعين الأولياء وحضور الأزواج ، لا ينكرون ما ليس بمنكسر
 إذا أمنوا المنكر . . . " (١) فلم تكن المرأة إذن ، عارا وجب إخفاؤه ، بل كانت تخرج
 إلى الرجال ، تجالسهم وتحادثهم ، في أيام الجاهلية ، وصدر الإسلام كذلك (٢) . وكانت
 هذه سمة الشريقات من نساء العرب (٣) ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عارا
 في الجاهلية ، ولا حراما في الإسلام (٤) .

في ذلك الجو من التآلف ، ولدت وترعرعت أخبار المحبين وقصصهم ، فاشتهرت
 منها أخبار الشعراء الذين تغنّوا بمن يهوون من أمثال " جميل وبثينة ، وعفراء وعُروة ،
 وكثير وعزة ، وقيس وليلى ، وأسماء ومرقش ، وعبد الله بن عجلان وهند " (٥) .

ولهذا ، كانت معظم النساء الشواعر - على قلّتهن - من اللواتي عاصرن الجاهلية
 والشرط الأول من الإسلام ، كالخنساء ، وليلى بنت النضر وغيرها ، بل برزت المرأة
 كذلك في الجاهلية ، على الصعيد الديني ، حيث اشتهرت الكاهنات ، وكانت لهن
 منزلة اجتماعية متميزة ، ومن أشهرهن كاهنة اليمس (٦) .

هذا ، وفي عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، كانت المرأة تتحدث في أمورهما
 الخاصة ، بكل صراحة ، كما تحدثت امرأة رفاعة القرظي مع الرسول صلى الله عليه وسلم
 " غير محتشمة " ، كما يصف الجاحظ كلامها ، في معنى قولها إنها تزوجت من عبد الرحمن

- (١) رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .
- (٢) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .
- (٣) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .
- (٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .
- (٥) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .
- (٦) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ .

ابن الزبير ، وهي تريد العودة إلى زوجها الأول رفاعه (١) " ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد على التبتسّم حتى قضت كلاهما " (٢) .

ولقد ساءت أمور المرأة ، مع مرور الأيام ، ومضت السنين - على الرغم من التطّـمـنـنـات الحضاري - فشاعت ظاهرة استعباد المرأة ، متمثلة في الجوارى والإماء والقينات مما أثار على نظرة الرجل للمرأة الحرة ، فزاد من قيودها ، لتغدو سجيناً بين يديه ، شغلها الشاغل السهر على خدمته ، وانجأ الأولاد كما يشاء ليس لها من الحرية سوى الاسم ، حيث أطلقوا عليها اسم " الحرة " لتمييزها عن الجارية العبدية ، التي كانت تباع في أسواق النخاسة ، ليتمتع بها الرجل ، ففي الوقت الذي تقوم فيه الأولى - أي الحرة - وهي زوجته - بدور الإنجاب والحفاظ على النسل وتأمين الاستقرار الاجتماعي لـه ، تقوم الثانية - أي الجارية - بالترفيه عنه ، لا حول لها ولا قوة . فهي بضاعة تباع فـي الأسواق ! وهو في مقابل ذلك يحرم على المرأة ما أحله لها الله . يقول الجاحظ فـي مقارنة له بين ماضي المرأة ، وحاضرها - أي في عصره - ، إن نظرة المجتمع في الماضي كانت تتقبل انتقال المرأة إلى أزواج عدة " لا ينقلها عن ذلك إلا الموت ما دام الرجال يريدونها " (٣) . ثم يستعرض ما آل إليه حالها في عصره ، فيقول في هذا الصدد : " وهم اليوم يكرهون هذا ويستسمجونه في بعض ، ويمافون المرأة الحرة إذا كانت قد نكحت زوجاً واحداً ، ويلزمون من خطبها العار ويلحقون به اللوم ، ويميّرونها بذلك ، ويتخطّون الأمة وقد تداولها من لا يحصى عدده من الموالى . فمن حسن هذا في الإماء وقبحه في الحرائر ! " (٤) فهذا الاستهجان ، لهذه النظرة المؤلمة للمرأة الحرة ، دليل على ما كان يتميز به ، من الانفتاح العقلي ، والمرونة الفكرية ، والأنفة من التعصّب ، وذلك من أثر الاعتزال ، الذي يدعو إلى الامتناع في النظر ، والعمق في التفكير ، وإلى الاستزادة الدائمة من العلم والمعرفة .

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

(٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

ومن ناحية أخرى ، فقد كانت الأمة ، تشارك الحرّة في معاناتها ، حيث كانت تباع على أيدي النّحّاسين ، وتعرض كما البائع يعرض بضاعته ، ولم تكن تملك من أمـر نفسها شيئاً : لم تكن سيّدة نفسها ، سيّدة جسدها ، بل كان مالکها سيدها الأول والأخير ، فوجّهت الطّعمة نحو كرامتها الإنسانية ، فهي شيء جميل ودمية تتحرّك ! يدعى مـ ذلك قوله : " ونظر بعض الحاجّ الى جارية كأنها دمية في محراب . " (١) فيستنكر عدم احترامهم للجارية ، وعدم مساواتها بالحرّة ، والأخيرة على معاناتها ، فإنها لا تستزال تملك من أمر نفسها بقية من حقوق - فيقول :-

"وَلِمَ لَمْ يَفَارُوا فِي الْإِمَاءِ وَهِنَّ أُمَّهَاتُ الْأَوْلَادِ وَحِظَايَا الْمُلُوكِ ، وَفَارُوا عَلَى الْحَرَائِرِ" (٢) . ولعلّ هذه الجملة ، تدّين المجتمع ، الذي :
أذاق المرأة ، أشد أنواع العذاب ، فسرق منها حريتها ، وسلبها حقّها في الحياة الكريمة الحرّة . فليأمن أن يشتريها الرجال ويبيعوها كما يحلو لهم ، دون غيرة على إنسانيتها ، بحجّة أنها عبدة جارية . وإذا كانت " حرّة " فلقد سعوا إلى سلب حريتها باسم الغيرة عليها ، فصنعوا المستحيل ، لكي يحبسوها طوال عمرها ، داخل جدران أربعة ، ولذلك نلمس نبذة الحنق على مثل هذا العمل ، الشائن حين يقول :
" ألا ترى أنّ الغيرة إذا جاوزت ما حرّم الله فهي باطل " (٣) .

ولعلّ هذه الغيرة الشديدة ، دليل على عقدة النقص التي يشعر بها الرجل تجاه المرأة ، فيحاول التقليل من أهميتها في المجتمع ، لئلا تكون منافسة له ، فتتفلسف عليه . وهذا الخوف الدائم من المرأة ، وهذه الغيرة المرضية ، جعلت الرجل يقف فسي

(١) رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٢) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

(٣) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

وإن هذا الخوف الدائم ، من عصيانها له ، حين يأتي اليوم الذي تفجر فيه جسد
عبوديتها وتقدر نفسها حتى قدرها ، وتسترد ما سلب من حقوقها ، يجعله لا ينفك يرد
على أسماعها ، من معسول الكلام ، ما يبقياها في سباتها غافية ، من مثل قوله: إن الرجال
إنما يعملون ويشقون ، من أجل توفير ما يؤمن راحتها ، ويضفي جمالا على حياتها كالمنظر
والكحل ، والثياب الجميلة . . . (٣) فيعملون سبب غيرتهم ، وحسبهم داخل
* الحيطان الرفيعة ، والأبواب الوثيقة والستور الكثيفة ، والخصيان والظوئرة ، والحشوة
والحواضن * (٤) ، بأنه من الواجب عليهم صونهم وحفظهم (٥) لأنها المعشوقة ،
والمطلوبة والمخطومة ، والرجل هو الذي يفديها ويحميها وهو سبيل أمنها ورفاهها (٦) .
وأنه لا يجروء أن يحلف بطلاقها ، حتى ولو كان صادقا ، ويحلف
بكسل ما غدا ، حتى وإن كان لا يحبها ، وإن لم تكن جميلة

- (١) الحيوان، ج ١، ص ١٢٠.
- (٢) رسائل الجاحظ، ج ٢، ص ١٦٣.
- (٣) انظر، نفسه، ج ٣، ص ١٤٢، وانظر، الحيوان، ج ١، ص ١١٠ - ١١١.
- (٤) نفسه، ج ٣، ص ١٤٢.
- (٥) انظر، نفسه، ج ٣، ص ١٤٢.
- (٦) انظر، نفسه، ج ٣، ص ١٤٦.

أو ذات حسب ونسب ومهر غال (١). كل ذلك من شدة حبها له ، لأنه يرى " أن أقرب ما سخر له من روحه وألطفه عند نفسه " الأنثى " . فإنّها خلقت له ليسكن إليها ، وجعلت بينه وبينها مودة ورحمة " (٢) .

هذه هي نظرة المجتمع ، في عصر الجاحظ ، للمرأة الحرة ، ولعلّ هذا الكبت الذي أغلق أمامها كل سبيل وكل طريق ، لاثبات الذات عن طريق الفكر والأدب والشعر خاصة ، هو السبب الرئيسي في ندرة وجود الشاعرات الشهيرات .

وأما نظرة ذلك المجتمع ، إلى المرأة الجارية ، أو القينة ، فتخلوا من كل قيمة إنسانية ، وتنافي كل حكم إسلامي ، حيث الأسواق التي تباع فيها الجواري ، تتجّ بالنّخاسين الذين يكسبون من بيعهن ، الأرباح الطائلة . " فمن يبلغ شيئا من الثمن ما بلغت حبشيّة جارية عون ، مائة ألف دينار وعشرون ألف دينار " (٣) وقد يعرض النّخاس جاريته ، فيأتيه الرجال بالهدايا والعطايا ، لينالوا مجرّد النظر إليها ، وينصرفوا . وفي ذلك ، يفيض الجاحظ في الحديث عن حقيقة " المقيّن " وكيف يتصرف من أجل ازدهار تجارته ! (٤)

وفي المعمل ، يقيم مناظرة خيالية ، ما بين " صاحب الجواري " و " صاحب الفلمان " ليتحدّث على لسان كل منهما ، متقمّصا دور أحدهما في كل مرة ، مما يظهر براعته على الإتيان بالحجّة المنطقية المقنعة ، ثم على نقيضها ، فيدلل عليها بالحجج المنطقية كذلك ، حتى إن القارئ ليخال أن هناك فعلا مناظرة بين اثنين يختلفان في الرأي ، ويتحمّس كل منهما لرأيه ، ليظهر من خلال ذلك جانباً من جوانب نظرة الرجل للمرأة الجارية ، فهي حسنة ، زكية الرائحة ، عطرة الثياب ، جميلة القدّ والقوام ، تقتل الرجال وتقضي

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .

(٢) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

(٣) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٧ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٧ - ١٨٠ .

عليهم من روعة حسننها وبهائها ، فيموتون عشقا وكندا ، ويسهب في رسا لته هذه ، فسي
ذكر مواضع الحسن منها (١) .

كما يحذر من فتنة القينة أو الجارية ، ومن خداعها (٢) ، حيث نشأت على تعلّم
اللهو والمجون من الحديث والفناء ، إلى درجة أنها " لو أرادت الهدى لم تعرفه " .
لأنها منشغلة بما هي فيه من اللهو ومن العيب (٣) ، فتجذب الرجل العابس
بكل ما يملك من حواس ، بعينه ، حين يرنو إلى جمالها ومحاسنها ويتأملها ، وباللمس ،
وبالسمع ، حين تغني ، فتستميل قلوب الرجال ، الذين يعشقون " الفناء الحسن
من الوجه الحسن والهدن الحسن أحسن ، والفناء الشهّي من الوجه الشهّي والهدن
الشهّي أشهى . وكذلك الصوت الناعم الرّخيم من الجارية النّاعة الرّخيمة " (٤) .

فهي وإن كانت تجذب الرجال ، وتوقعهم في حبائها ، إلا أنها لا تعرف معنى
الوفاء والإخلاص في عشقها ، فحبها ليس حقيقيا ولا صادقا (٥) . وكيف ينتظر من امرأة
جاروا عليها ، مذ كانت طفلة فنشئت على لهو الحياة وعيشها ، وعلموها أن وظيفتها تنحصر
في ترفيه الرجال ، فكيف ينتظر منها أن تخلص في ودّها ، لا سيما لرجل لا يخلص لزوجته
بل يتركها ليقتضي وقته بين القينات والجواري ، في مجالس اللهو ، وأسواق الرقيق !!

ولا شك أن هذه الظاهرة العرضية التي اعترت المجتمع العربي الاسلامي كانت
نتيجة أسباب مختلفة ، تستحق الدراسة والبحث ، ومن أهم هذه الأسباب طبيعة نظام
الجواري الذي ارتبط بالحياة التجارية في ذلك المجتمع والبيئات التي جاءت منها
هذه الجواري سواء أكان منها الذكور أم الإناث ، وكذلك السود والبيض والعادات والقيم

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٩١ - ١٣٧ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٠ .

(٣) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٤) نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ ، وانظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٥) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧١ - ١٧٥ .

التي وفدت من الحضارات الأخرى ، مع الشعوب الأعجمية التي دخلت الإسلام كانت من وراء انتشار المجون وأماكن اللهو وتراخي القيم الإسلامية والعربية الأصيلة ، لاسيما مع انحسار الفتوحات الإسلامية ، وخبو روح الجهاد ، والانغماس في الترف واللهو والمجون .

كانت هذه نبذة ، من نظرة الرجل للمرأة ، في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، حيث يعتمد إلى حبس المرأة " الحرة " ، ومعاقبها إذا لم ترضخ لأوامره ، وهو يلهمو ويمجن في أسواق النخاسة ، حيث العذاب من نوع آخر ، ولون مختلف ! بل أنه يجبرو على تفضيل الجارية على زوجته لأنه " قبل أن يطك الأمة قد تأمل كل شيء منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة ، فأقدم على ابتاعها بعد وقوعها بالموافقة . والحرّة إنما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهم قليلا ولا كثيرا . والرجال بالنساء أبصر . وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فانها لا تعرف ذلك " (١) .

فإذا كانت المرأة " الحرة " ، متعمية على الزواج ، لا تملك أن ترى شريك حياة عمرها كله ، أو أن يراها قبل الزواج ، فكيف يطلقون سراحتها للعمل والعلم والحياة الحرة ، والإفصاح عن مشاعرها وخسواطرها نفسها ، وما يعتلج في قلبها ، بالأدب والشعر خاصة ، وكيف لها أن تستلهم موضوعات لشعرها ، إن كانت ذات موهبة فذة ، إذا لم تخرج إلى المجتمع ، وتتعلّم وتعمل ، وتخالط الناس ، وتحادثهم ، نساء ورجالا ، كما كان الأمر في الأيام الأولى من الإسلام ، حيث كانت المرأة أحسن حالا تخرج مع الرجال إلى الحرب ، وتفصح عما في نفسها دون تردد كما سبقت الإشارة ، وتقول الشعر

فالسجن ، ومنعها من حرية التفكير والتعبير . . . قتل فيها كل موهبة وكل إبداع ، وكل عطاء للإنسانية . .

والجاحظ ، هذا المفكر العالم العميق ، الذي نشأ وترعرع في مجتمع ، كانت تلك نظرتة إلى المرأة ، نراه يتردد على الكثير من هذه الأفكار التي عشت في عقول

الرجال ، لأنه متفتح العقل ، سليم القلب ، محب للحرية من جميع جوانبها ، فهو يرى أن " النظر والحديث والدّعاة " ليست حراما ، ولا تجوز الفيرة منها على المرأة (١) . مدّلا على ذلك بالأخبار المختلفة التي استقاها من التاريخ الإسلامي (٢) . ثم يقول مدّعا تلك الأخبار والروايات : " والدليل على أن النظر إلى النساء كنهن ليس بحرام ، أن المرأة المعنّسة تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك . فلو كان حراما وهي شابة لم يحصل إذا عنّست ، ولكنه أمر أفرط فيه المتعدّون حدّ الفيرة إلى سوء الخلق وضيق العطنين ، فصار عندهم كالحق الواجب " (٣) .

وعلى الرغم من أنه ، من حيث كونه رجلا ، يرى أن فضل الرجال يفوق فضل النساء بشكل عام ؛ فإنّه يستدرك بأنه ليس معنى إكبار الآباء ، واحترامهم ، وتعظيم حقوقهم ، أن ييخص الرجال حقوق أمهاتهم ، " وأنا وإن كنت أرى أنّ حقّ هذا أعظم فإنّ هذه أرحم " (٤) ، فأولئك الذين يلحقون بالنساء أنواع الظلم والأذى ، تحت شعار الفيرة عليها ، ويتشدّدون بوجوب حجبتها لئلا يرى وجهها ، وكتم فيها ، لئلا يسمع صوتها ، ينسون ، أو يتناسون أن هذه المرأة ، التي يعلنون احتقارهم لها بهذه الأفعال والأقوال ، السستي لا تمت إلى الاسلام بصلة هي الأم والأخت والإبنة !

ويرى أن الله سبحانه وتعالى ، قد رفع من شأن المرأة ، حين جمّل المعجزة فيها دون الرجل ، إذ خلق منها " ولدا من غير ذكر ولم يخلق من الرجل ولدا من غير أنثى " ، كما ولدت السيدة مريم ، المسيح عليه السلام ، من غير زوج (٥) .

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٢ - ١٥٥ .

(٣) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .

(٤) انظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥٧ ، وانظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥٢ .

(٥) انظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤٩ .

ولعلّ الجاحظ ، يبلغ الذروة ، في عمق التفكير ، واتساع الأفق ، وصفاء القلب ، وشدة الوعي في الحكم على الأمور ، مع المعرفة الكبيرة ، والعلم الوفير ، حين يعلن قائلاً : " ولسنا نقول ولا يقول أحد ممن يعقل : إن النساء فوق الرجال ، أو دونهم بطبقة أو طبقتين ، أو بأكثر ، ولكننا رأينا ناساً يزرون عليهنّ أشدّ الزراية ، ويحتقرونهنّ أشدّ الاحتقار ، ويخسونهنّ أكثر حقوقهنّ " (١) .

(١) رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ١٥١ .

أ - الخطأ :-

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، خطيباً مغمّواً ، وخطبه " مدوّنة محفوظة ، ومخلّدة مشهورة " . كما اشتهر خلفاؤه من بعده بالمقدرة الخطابية الفذة (١) .

(١) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

أو يزعزع ثقة العامة ، بنوايا الخليفة وحاشيته وولاته . . . وقد يكون موضوع الخطبة اجتماعيا في مناسبات معينة كالأعياد وغيرها ، وسهما يكن من أمر ، فإن للخطبة رهبة ما بعدها رهبة ، ولذلك فأنه لا يجروء عليها سوى " الفرّ الجاهل الماضي ، الذي لا يثنيه شيء " ، أو المطبوع الحاذق الواثق بفزارته واقتداره . فالثقة تنفي عن قلبه كل خاطر يمسّسورت اللّجلة (١) والنّحنة (٢) ، والانقطاع (٣) والبهر (٤) والعرق (٥) .

فإذا كان الخطيب ، ذا موهبة في هذا الفن ، ومقدرة على التأثير ، بعلمه الواسع وميانه البارع ، ولسانه الفصيح ، الذي لا يشوبه شفى (٦) أو تشدق (٧) ، أو روق (٨) ، أو ضجّم أو قَم (٩) ، فإنه يبدو ، أمام الجمع الفغير ، رابطط الجأش ، قوي العزم ، واثق الصوت ، ثابت القدم . فحسن إخراج الحروف ، من مخارجها الصحيحة ، وصحة أعضاء النطق ، لها أثرها البعيد في الخطابة . فقد " كان زيد بن جندب أشفى أفصح ، ولولا ذلك لكان أخطب العرب قاطبة " (١٠) .

- (١) " واللّجّجَة : رثقلُ اللسان ، ونقصُ الكلام ، وألّا يَخْرُجَ بعضُه في أثر بعض . . . واللّجلة والتلجّج : التردد في الكلام " لسان العرب (لجج) .
- (٢) " النّحنة التّحنج ، وهو أسهل من السعال . . . والنّحنة أيضا : صوت الجعّع من الحلق . . . لسان العرب (نحج) .
- (٣) " وانقطع الكلام : وقف فلم يَمض (لسان العرب (قطع) .
- (٤) " والبهر بالضم : تتابعُ النفس من الإعياء . . . لسان العرب (بهر) .
- (٥) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٣٤ .
- (٦) " الشفا : اختلاف الأسنان ، وقيل : اختلاف هيئة الأسنان بالطول والقصر والدخول والخروج . وشفتُ سنه شفوّا ، وشفيت شفى . . . لسان العرب (شفا) ، وانظر البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٥٥ ، وانظر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٥ .
- (٧) " . . . والمتشدق : الذي يُلوي شدقه للتفصح . . . لسان العرب (شدق) .
- (٨) " والبروق : ركوبُ السن الشفة " ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٥٥ .
- (٩) " والضجّم : اعوجاج في الفم ، والقَم مثله " نفسه ، ج ١ ، ص ٥٥ .
- (١٠) نفسه ، ج ١ ، ص ٥٥ .

وخطب العرب على ضربين ، فمنها الطويل ومنها القصير ، بحسب المقام السني تلقى فيه الخطبة ، ولكل ميزته . فالطويل من الخطب يخلد في بطون الكتب ، والقصير منها في جلّه - يميل الرواة إلى حفظه ، لما تمتاز به تلك الخطب من القصر فيسهل حفظها (١) . وبذلك يعود الجاحظ لتأكيد فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، حيث للخطب الطويلة مقامها ، فإن قيلت في غيره تحولت عن غايتها ، وعدلت عن مقصد هـا ، وكذلك الحال في أمر الخطب القصيرة .

ومما لا شك فيه ، أن الأسلوب القرآني قد أثر في منهج الخطابة ، فتغيرت صورتها عما كانت عليه قبل مجيء الإسلام ، ومن أهم هذه التغييرات التي طرأت عليها ، دخول الآيات القرآنية في صلبها ، فيقول : " وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن ، فإن ذلك ما يورث الكلام البهاء والوقار ، والرقصة ، وسلس الموقسع " (٢) . ناهيك عن مدى تأثير الآيات القرآنية على الأسماع ، وفي نفوس الناس ، إذ يؤيد بها الخطيب قوله ، ليقطع السبيل على من يريد معارضته ، لا سيما أن الخطابة ، تلقى أمام جمع من الناس ، وهدفها الأول والأخير ، التأثير فيهم . وحيث أن المؤثر الأول ، الذي يحرك المسلمين ، هو القرآن الكريم ، فقد كان إدخال الآيات القرآنية في الخطابة ، تغييرا جذريا في أسلوبها ومنهجها .

من ناحية أخرى ، يقارن الجاحظ ، ما بين خطب الأسلاف والأعراب الأقحاح ، من جهة ، وخطب ثلّة من المؤلّدين ، من ذوي التصنع والتكلف ، فيقول : " ولم أجد في خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح ، ألفاظا مسخوطة ، ولا معاني مدخولة ، ولا طبعها رديئا ، ولا قولها مستكرها . وأكثر ما تجد ذلك في خطب المؤلّدين ، وفي خطب البلديين المتكلفين ، ومن أهل الصنعة المتأدّبين ، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٧٠ . وانظر ، ص ١١٨ .
(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ١١٨ .

والاقتضاب ، أم كان من نتاج التعبير والتفكير^(١) ، غير أنه لا يخوض في تعليل هذا الأمر وتفسيره . وربما كان ذلك لأنه من المعروف أثر المدنية ، ومجاورة العجم ، ودخولهم في الإسلام ، ونزولهم في بلاد العرب ، حيث دخلت بعض ألفاظهم لغة العامة ، وأثرت في أساليبهم ، وألفاظهم ، حين تكلفوا الكتابة ، فابتعدوا بذلك عن أساليب العربية الأصلية ، وألفاظها الصحيحة .

ولا شك أنه حين يتكلم عن فصاحة الأعراب ، فهو يقصد بهم ، أولئك الفصحاء الذين يعدّون المرجع في اللغة ، ممن يقطنون في جزيرة العرب ، ذوي التعقّل والحكمة والفهم ، ولا يقصد البدو والجفاة من الأعراب المتعجرفين ، غير المتأدّبين ، قليلي المعرفة في أمر دينهم ، إذ يشبه هؤلاء بالمجانين ، إذا اعتلوا المنبر للخطابة .

ولعلّ من أصعب الخطب وأشدّها ما يورث الحصر ، خطب "الإملاك" (٢) ، ويكتفى الجاحظ بالاستشهاد بالشعر ، ويقول عمر بن الخطاب في هذا الصدر (٣) ؛ "ما يتصدّني كلام كما تتصدّني خطبة النكاح" (٤) دون أن يعلّل سبب هذا التثاقسل من خطب الإملاك .

لقد سبقت الإشارة ، إلى العلاقة بين القبيلة والفرد ، حيث تعظم بمظمتها ، كما تسقط بسقوطه . وإما أن تمدح كلّها بفعل جميل من أحد أفرادها ، وإما أن تذم بفعل قبيح أتاه (٥) . ولذلك كان هجاء الفرد ، هجاء للقبيلة التي ينتمي إليها الفرد المهجوس ، ولهذا المفهوم القبلي ، كانت تنشب الفارات بين القبائل ، ليس من أجل الفرد وحسب ، بل لأن ما يلحق به من أذى وهجاء ، يلحق القبيلة كلّها ، وتصبح المسألة ، مسألة شأر القبيلة المهجوة لنفسها ، من القبيلة الهاجية ، مع العلم أن الذي هجا ، إنما هو فرد

- (١) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٨ - ٩ .
- (٢) الإملاك : التزويج لسان العرب (ملك) .
- (٣) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ .
- (٤) نفسه ، ج ١ ، ص ١٣٤ .
- (٥) انظر ، البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٣٦ ، وما بعدها . وانظر ، البخلاء ، ص ٢٣٤ .

كذلك ، ففتبدي بذلك صورة النظام القبلي بما يحمل من علاقات داخل نسيجه ، فالفرد للقبيلة ، والقبيلة للفرد ، مما يؤدي إلى تمكن العصبية في النفوس .

وقياسا على ذلك ، فقد لمع نجم قبيلة إِيَاد كلها في الخطابة ، وصار لها ، ينسب الفضل في هذا الفن النثري ، لشهرة قس بن ساعدة ، وهو فرد من أفرادها في فـسـن الخطب هذا والرسول صلى الله عليه وسلم ، هو الذي روى كلامه ، وأظهره ، وصوّنه ، وبين مواطن الجمال فيه (١) .

* وإِنَّمَا وَفَّقَ اللَّهُ ذَلِكَ الْكَلَامَ لِقَسِّ بْنِ سَاعِدَةَ لاحتجاجة للتوحيد ، ولإظهاره معنى الإخلاص وإيمانه بالبعث ، ولذلك كان خطيب العرب قاطبة * (٢) .

وهنا تظهر تلك العلاقة ، بين المضمون والشكل ، فحين تكون المعاني والأفكار سامية ، فإن الألفاظ تعلو وتسمو ، على قدر سمو معانيها ، فاللفظ يرقى بمعناه ، والمعنى يظهر بلفظه . وحين كانت معاني قس بن ساعدة ، تقول بالتوحيد والبعث . . . ، فقد برز ليكون أخطب خطباء العرب .

ومن قبيلة إِيَاد ، إلى قبيلة تميم ، فيروي الجاحظ الخبر الذي كان السبب في شهرة هذه القبيلة ، يقول : " . . . لأن النبي عليه السلام لما سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر قال : " مانع لحوزته ، مطاع في أدنيه " . فقال الزبرقان : " أما انه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدني شرفي " ، فقال عمرو : " أما لئن قال ما قال فوالله ما علمتـه الآ ضيق الصدر ، زمر العروة لثيم الخال ، حديث الغنى " ، فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول ، ورأى الإنكار في عيني رسول الله قال : " يا رسول الله ، رضيت فقلت أحسن ما علمت . وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة " .

(١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ص ٥٢ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : " إِنْ من البيان لسحرا " (١) .

فمن خلال هذا الخبر ، يؤكد الجاحظ العلاقة ، بين الحالة النفسية ، وفن القول . فإذا كان الأديب راضيا أبرز ما في المدح من المحاسن ، وإذا كان غاضبا ، أبرز ما في المهجو من المثالب ، لأن النقائص والمحامد ، تتنازع الإنسان ، والمتفنن يبرز ما يسره على حسب الرضى أو الغضب . ولهذا فقد أبرز عمرو بن الأهتم ، حين رضى ما قد وجدته عند الزهرقان بن بدر ، من محاسن ، وحين غضب أبرز ما قد لسه فيه من مذام ، وهما في كلتا الحالتين صادق . فبراعة القول ، وحسن التخلص به ، لهما أثر في النفس كما السحر يأسر القلوب . ولهذا الخاصة ، اهتم العرب بفن القول ، ولذلك ، جاءت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم ، في أسلوب القرآن الكريم .

ويتحدث ، عن قبيلة عبد القيس ، حين عجب من أمرها ، فقد انقسمت إلى قسمين : خطباء ، وشعراء ، وذلك بعد تفرقها ، ولم تكن كذلك ، من قبل " ففرقة وقسمت بعمان وشق عمان ، وهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت إلى البحرين وشق البحرين وهم من أشعر قبيل في العرب " ، ولم تكن هذه القبيلة ذات شأن يذكر ، في فني الخطابة والشعر ، حين كانت مجتمعة الشمل " في مسرة البادية ، وفي معدن الفصاحة " (٢) . ويمجيز عن تحليل هذه الظاهرة ، ولذلك يكتفي بابداء دهشته ، ازاءها . ولعل البيئة التي صارت إليها كل من الفرقتين ، حتمت عليهما ذلك الانقسام ، بين خطباء وشعراء ، وذلك لأن للبيئة أثرها في تفجير الطاقة الإبداعية المكنونة بين الضلوع ، وإبراز الموهبة الخفية ، والناس يختلفون في طبائعهم واستعداداتهم . فإذا كانت الطبيعة الجبلية مثلا تبرز مواهب بعض الناس ، للملازمة التي بينها وبينهم ، فإن الطبيعة الصحراوية تؤثر في بعضهم الآخر ، والساحلية تؤثر في غيرهم وهكذا فلربما أن قبيلة عبد القيس بشقيها ، لم تلائمها الطبيعة الصحراوية وحين تفرقت في عمان والبحرين ، برزت مواهب أفرادها .

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٥٣ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٩٦ - ٩٧ .

ومن ناحية أخرى ، فإن الجاحظ قد لاحظ أن الشعر الذي صار إلى عمان اشتهر بالخطابة ، والآخر الذي صار إلى البحرين اشتهر بالشعر ، فقد يرجع السبب في ذلك إلى أثر البيئة الاجتماعية ، والفكرية ، والسياسية ، حيث الظروف ، التي يحتاج فيها إلى الخطابة ، تختلف عن تلك التي يحتاج فيها إلى الشعر .

ويتنقل إلى الحديث عن الأعلام الذين اشتهروا بفن الخطابة ، ومن أبرزهم الحسن البصري في رأيه (١) ويذكر أيضا أسماء العديد من الأعلام المشهورين من خطباء العرب ، وقبائلها المختلفة (٢) ، ولا سبيل إلى حصرهم ، في هذا الموضع ، ويقت عند خطبة لمعاوية بن أبي سفيان (٣) ، مشككا في صحة نسبتها إليه ، ومعللا سبب شكه هذا ، ومرجحا نسبتها إلى علي فيقول :-

" وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب : منها أن الكلام لا يشبه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية ، ومنها أن هذا المذهب في تصنيف الناس وفي الأخيــار عما هم عليه من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف ، أشبه بكلام علي رضي الله عنه ومعانيه وحاله منه بحال معاوية . ومنها أننا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه سلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد . وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه والله أعلم بأصحاب الأخبار ، وكثير منهم " (٤) .

فمنهجه في النقد ، إذن ، يقوم على النظر في نص الخطبة ، من حيث الأسلوب ، ومقارنته بالأسلوب العام لمن نسبت إليه الخطبة ، ثم يربط بين موضوع الخطبة والحقائق والأحداث التاريخية المحيطة بها ، كما يربط بين المنهج الفكري السائد في الخطبة والمنهج الفكري للقاتل ، ويعد ذلك يقرر قبول الخطبة وصحة نسبتها ، أو رفضها ، وردها ، على أنها منحولة ، إذا اجتمعت الأسباب التي تدبر عجلة الشك ، حول صحة نسبتها إلى القائل .

- (١) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣٥٤ .
- (٢) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ٣٥٤ وما بعده .
- (٣) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٩ - ٦١ .
- (٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ٦١ .

ب - المناظرات والرسائل -

ومن الخطابة ، ينتقل إلى الحديث عن فن المناظرة الذي يظهر مدى براعة المناظر ، وتفوقه في العلم وقدرته على الدفاع عن فكره ، بوسائل الإقناع المنطقية .

ولقد شغف الجاحظ بهذا الفن ، حتى أن الكثير من رسائله ، تقوم على لمسبب المناظرة ، التي هي ملاك تدريب العقل وتمريته وإيقاظه من الخمول والركون إلى السهل الكل .

(ومثل المناظرة ، كمثال الحرب الضروس ، فميتسلح المناظر بأنواع المعرفة ، والعلم بمكان المعاني ومواضع الألفاظ ، وكيفية استعمالها ، وإدارتها بحيث تخدم غايته ليحقق الفوز المظفر لنفسه ، وجماعته . وكما أن الحرب خدعة ، فكذلك المناظرة ، حيث يوهم المناظر خصمه بأنه أقل منه ذكاءً وعلمًا وحيلةً ، وفطنةً " فيلحن في إعرابه ، ويتسَخف في ألفاظه ، ويتجنب القصد ، ويهرب من اللفظ المعجب ليخفي مكان حذقه ، ويستر موضع رفقه ، حتى لا يحترس منه الخصم ، ولا يتحفظ منه صاحب الحكم " ، غير أنه في الوقت نفسه ، يحرص على عدم الإضرار بحقيقة مراده ، وصحة معناه . وهنا يتقلب الضعف قوةً ، والعيبي بيانًا ، والعجز قدرةً (١) ، فينقض المناظر على خصمه ، على غفلة منه وجهل بمواضع قوة الأول ، ومداها ، إن يظنه ذليلاً وهو عزيز ، وعيباً وهو بليغ ، ومظلوماً وهو ظالم . لأن بإمكانه (٢) " تصوير الباطل في صورة الحق ، وستر العيوب بزخرف القول ، وإذا شاء طفاً ، وإذا شاء رسباً ، وإذا شاء أخرجه غفلاً صحيحاً " (٣) ، مما يدل على أن المناظرة فن يحتاج إلى الذكاء والدهاء وسرعة البديهة ، والموهبة ، بالإضافة إلى سعة العلم وحسن الاطلاع .

فهذه المقدرة على عدل اللفظ عن جهته ، وإخراجه عن سبيله ، بحيث يخدم غرض المناظر ، لا تتيسر إلا لمن مهر في المناظرة ، ورع في هذا الفن ، وتمكن منه ، بحيث

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٤ ، ص ١٩٧ .

(٣) نفسه ، ج ٤ ، ص ١٩٧ .

مولدة ، إذ كان مثل ابن المقفع وسهل بن هارون ، وأبي عبيد الله ، وعبد الحميد
وغيلان ، يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنعوا مثل تلك
السَّير (١) .

فهو وإن كان لا يملك الدليل لإثبات أو نفي هذا الشك الذي يساوره بشأن صحة
رسائل الفرس ، فإنه يستند في شكّه هذا إلى قدرة أمثال ابن المقفع وغيره من الأعلام
المذكورين على تحبير مثل هذه الرسائل . ومن الملاحظ أنه يطمئن في أخلاقهم الأدبية ،
ومع ذلك فهو لا يجزم في الأمر ، فيبقى شكّه هذا في دأثره ، ولا يتجاوزه إلى دائرة
اليقين ، ما دام الدليل غائباً

(١) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

ج - النادرة ١-

النادرة، أو الطرفة، سمة من السمات التي جبلت عليها طبيعة البشر، فالإنسان يتميز بهذه الصفة، ولذلك فهو يبدع الطرائف والنوادر، لإشباع هذه الرغبة، المعبرة عن سروره، المفرجة عن كربه، فتساعده على المضي في حياته متحملاً كافة مصاعبها وهمومها.

والجاحظ بطبيعته، ينزع إلى الضحك، فقد استطاع بملكته الأدبية الفذة، أن يصوغ الطرائف والنوادر المختلفة بسلاسة متميزة، وأسلوب فني طريف، يتجلى في كتبه ورسائله، وأبرزها كتاب "البخلاء" الذي يعتبر تحفة فنية ضاحكة، إلى جانب سماته الأدبية والاجتماعية والفكرية... وليس هذا الموضوع مجالاً للحديث عنها.

والنادرة فن له أصوله، ينتقل من خلالها القائل، إلى الناس، ما يريد من نقد اجتماعي أو سياسي... عن طريق إثارة الضحك، ولذلك ينبغي أن تقال وتكتب، كمسألة تسمع، ودونما تفسير طارئٍ عليها، فإذا كانت من نوادر الأعراب، ولحن الراوي فيها، يتغير جوهرها، ويذهب محل الطرفة منها، وإذا كانت من نوادر عامة الناس بلغتهم المحكية، وأغربها الراوي، فإنها تسخف، وتذهب متعتها كذلك وبالتالي يذهب المفزى المقصود من ورائها (١).

فنظرته الأدبية في هذا الصدد، تشدّها النزعة الواقعية، حيث إن النادرة حينما تروى كما قيلت أصلاً: بلحنها عند المولدين والعموم، وإعرابها عند الأعراب، فإنها تظهر حقيقة هؤلاء الناس الذين استمدوا الطرفة من واقعهم بجميع صورهم وأشكالهم، ومن حياتهم اليومية، بكل ما تحمل من شقاء، وسعادة، من حب وكراهية، وتطلعات مستقبلية، وآمال جديدة... فما من شك، في أن النادرة، تعكس ذلك كله، في صورة هزلية مضحكة ساخنة.

(١) انظر، البيان والتبيين، ج ١، ص ١٤٥ - ١٤٦، وانظر الحيوان، ج ١، ص ٢٨٢، وانظر نفسه، ج ٣، ص ٣٩، وانظر، رسائل الجاحظ، ج ٢، ص ٩١، وانظر، نفسه، ص ١١٩.

ولذلك نراه يهتم بهذا الاتجاه في التعبير ، محاولا الحفاظ على هوية النادرة ، وذكورها وأثرها ، إشفاقا على هذا التراث الشعبي - إن جاز التعبير - من الضياع ومن التسخف ، فيقول في معرض حديثه عن كتاب " البخلاء " : " وإن وجدت في هذا الكتاب لحناً ، أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا أننا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يفتقر هذا الباب ، ويخرجه من حده ، إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعالي البخلاء وأشقاء العلماء ، كسهل بن هارون ، وأشباههم " (١) .

(فالنادرة إذن ، إن هي الآ صورة عن الناس وطرائفهم التعبيرية ، والحياتية ، في معاملاتهم اليومية . ولذلك لا يجوز أن تخرج عن واقع الناس وهمومهم إلى الخيال الذي يخدو وخرافة ، فتخرج النادرة عن غايتها ولذلك كان الإفراط - في النادرة ، مذموماً ولا غاية له ، لأن الطرفة في النادرة ، وموضع الاستحسان منها ، ما يجوز أن يكون في الناس حقيقة (٢) ، فإذا خرجت عن الخيال الواقعي ، خرجت عن كونها نادرة ، وعن كونها ذلك الفن الساخر ، الذي يعبر عن هموم الناس وواقعهم في شتى المجالات ، ولا ينبغي للفن أن يكون بمعزل عن ذلك كله ، وإلا فقد وظيفته في التطور الإنساني ، عن طريق عملية الفهم والإفهام للتأثير في الناس ، بواسطة الفنون المختلفة .)

((ولكل فن من هذه الفنون ، مقامه ومجاله ، حيث يصبح ضرورة ، ولذلك كانت النادرة في موضعها ، ضرورة لا غنى عنها ، ولا يجوز استبدالها بفن آخر ، " وقد يحتاج السخرى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ ، والشريف الكريم من المعاني " (٣) .)

(فلكل حال من الأحوال ، طرفان يحافظان على التوازن : الجد والمزاح ، ولكسلسل موضعه ، والناس لا يستغنون عن المزاح الذي يسهل لهم الحياة ، ويهون عليهم الأمور ،

(١) البخلاء ، ص ٤٠ .

(٢) انظر ، البخلاء ، ص ١٣٢ .

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٥ ، وانظر ، الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٩ .

وليس بإمكانهم الاكتفاء بالجدّ في كل كبيرة وصغيرة ، وإلاّ " لكان الشرّ صراحا خيرا لهم ،
والباطل محصنا أردّ عليهم " ، والأشياء في مواضعها وإن اختلفت كلّيا فيما بينها ، إلاّ أنها
تعود لترتيب وتنشابه من حيث مناسبتها لمقامها ، ولذلك كان " الضحك في موضعه كالبكاء
في موضعه ، والتبسّم في موضعه كالقُطوب في موضعه " وهكذا تسير الحياة في جميع
الأمور (١) . وهنا يعود الجاحظ إلى إثارة " نظرية التضاد ، أو التناقض " ، حيث الأمور
التي تبد ومتناقضة ، ومختلفة اختلافا كلّيا فيما بينها ، إلاّ أنها ، تترايط مع بعضها بعضا ،
في بعض الوجوه .

(من ناحية أخرى ، فإن هذا التناقض ، قد يتنازع الشيء الذي يبدو لنا وحدة واحدة ،
فالمزاح على سبيل المثال ، يتنازعه المدح والذمّ ، ومن هنا ، كان الخطأ إليه أسرع ،
ولكنه لا يكون مذموما أبدا ، كبعض الحالات التي تعبّر عنها ألفاظ كالظلم والفدر فلا
أحد يرى للظلم وجها غير الذم والبفس ، وكذلك الفدر وما شابه ذلك من الألفاظ التي
تعبّر عن الشقاء الإنساني ، وليس كذلك المزاح لأنه " ما يكون مرّة حسنا ومرّة قبيحا " وذلك
حسب المقام ، فيحسن إذا قيل في موضعه ، ويقبح إذا قيل في غيره . فإذا ذهب مقام
المزاح ، عندئذ تحين ساعة الجد ويأتي مقامه الذي يكون فيه الكلام الجاد محمودا ، والكلام
الهازل مذموما (٢) .

" فالناس لم يعيوا الضحك إلاّ بقدره ولم يعيوا المزح إلاّ بقدر ، ومتى أريد
بالمزح النفع ، والضحك الشيء الذي له جعل الضحك ، صار المزح جدّا والضحك
وقارا " (٣) .

ولكن ، في بعض المواقف والأحيان ، قد تقتضي الضرورة ، أن يمتزج المزاج بالجدّ ،
فيبد والكلام في ظاهره جادّا ، وهو في حقيقة أمره وجوهه ، يجري مجرى المزاح (٤) .

- (١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٢٩ - ٨٠ .
- (٢) انظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٠ ، وانظر ، البخلاء ، ص ٧ .
- (٣) البخلاء ، ص ٧ .
- (٤) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

ومن الملاحظ ، أن رسالته الموسومة بـ " الترييع والتدوير " (١) كاملة ، تسير على هذا الأسلوب ، من السخرية المختبئة في ثوب الجسد .

فأسلوبه العام ، ومنهجه يقوم على التنويع ، فتارة يكون جاداً وأخرى يكون هازلاً ، فيدخل الطرائف بين طيات الجد ، فيعمل منهجه هذا قائلاً : " ومن كان صاحب علم ممرناً موقحاً ، يَأْلَفُ تفكير وتنقيب ودراسة ، وَحِلَّتْ تَبَيُّنٌ ، وكان ذلك عادة له ، لم يضره النظر في كل فن من الجد والهزل ، ليخرج بذلك من شكل إلى شكل . فإن الأسماع قد تملّ الأصوات المطربة ، والأوتار الفصيحة ، والأغاني الحسنة ، إذا طال ذلك عليهما " (٢) .

ثم ينتقل إلى الحديث عما ينبغي أن تكون عليه النادرة ، حتى تؤدي دورها في إثارة الضحك والسرور ، فما لا جدال فيه أن أطيّب هذه النوادر ، وأكثرها إضحاكاً ، النادرة الحارة ، ولكن في بعض الحالات ، قد تبعث النادرة الباردة جداً ، على السرور والضحك ، أكثر من الحارة جداً (٣) ، ولقد سبقت إشارته إلى أن الشيء إذا زاد عن حدّه انقلب إلى ضده ، وربما أن هذه القاعدة هي السبب في استحسان النادرة حين تصبح باردة جداً ، فحين زادت برودتها عن الحد المعقول صار شأنها ، شأن النادرة الحارة جداً فسي الاستحسان ، فانقلبت من البرودة إلى نقيضها من الحرارة (٤) . ومدار الأمر على مقدار الشدة أو الضعف ، فشدة الحرارة كشدّة البرودة هي التي أضحكت يدل على ذلك تكرار كلمة " جداً " في قوله : " وإنما الشأن في الحار جداً والبارد جداً " (٥) .

أما الأمر الذي يكتم على النفوس ، ويشير الضيق بدلاً من السرور ، فهو النادرة الفاشرة التي هي دون الحار وفوق البارد من النوادر ، ولا ينطبق هذا الأمر على النادرة وحسب ، بل يشمل كذلك الشعر والغناء (٦) .

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٥٥ - ١٠٩ .

(٢) نفسه ، ج ٢ ، ص ٩١ .

(٣) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٤) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٣ - ٤ .

(٥) انظر ، البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٦) انظر ، نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٥ ، وانظر ، البخلاء ، ص ٧ .

والأصل في النادرة ، أن تلقى على الجمهور ، وأمام الناس ، فهي أشبه ما تكون بالتمثيل المسرحي ، لأن حركات الوجه واليدين ، والصوت وطريقة الكلام كـسـل ذلك له أثره في تأدية النادرة لدورها أحسن الأداء ، وإيصال المغزى المراد منها ، فالنادرة إذن ترتبط براويها ، فإذا كان معروفًا بروحه المرحّة ، ونفسه المنشرة للسرور وله طرائف ونوادر ، ويأتي بالحركات المضحكة حين يشاء ، تكون النادرة عندئذ قبـسـد أدت وظيفتها على النحو المطلوب ، حتى ولو كانت النادرة في حقيقتها باردة ، فإنها لا شك ، تضحك من حسن أداء الراوي .

ولذلك يقول الجاحظ معلقًا على أحد أخبار البخلاء :-

" وهذا وشبهه إنما يطيب جدًا إذا رأيت الحكاية بعينك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ، ولا يأتي لك على كنهه ، وعلى حدوده وحقائقه " (١) .

فعلى الرغم من أنه ، يحاول في كتابه " البخلاء " ، وصف أدق الحركات الخفية ، والظاهرة ، إلا أنه مع هذا كله يعتذر عن عدم قدرة - الكتاب على تصوير المشهـسـد كاملاً ، إذ أنه لحاستي البصر والسمع ، دورهما للذي لا غنى فيه عنهما ، في إثارة الضحك ، وفهم المغزى من النادرة ، فلا يحل الكتاب محل المشاهدة ، في تمثيل هـسـد الأـسـر .

بل إن النادرة ، إذا كانت موضوعة على لسان أحد هؤلاء السراة المعروفين بقدرتهم على الاضحاك فأنها تضحك لمجرد ذكر اسم الراوي ، حتى ولو كانت النادرة باردة ، ولو نسبت إلى راة لا يملكون الحس الطريف ، فأنها لا تستطيع الاضحاك حتى ولو كانت حـسـارة

(١) البخلاء ، ص ٥٨ .

فتخرج النادرة فاترة ، ويذكر في هذا الصدد أسماء بعض الرواة من ذوي الطرافة مثل أبي
(٣) الحارث جعّين ، والهيثم بن مطهر (١) ، كما يذكر أسماء من لا يناسبهم رواية النادرة (٢) مثل
" صالح بن حنين " و " ابن النوّاء " (٣) .

فلكل فن أربابه وأصحابه ، فإذا ولد أحد هم كلاماً في الزهد والوعظ ، ونسبوا
إلى أحد من ذوي التزهد ، لارتقى وارتفع ، وكان وقعته على الناس أحلى ، وأثره فيهم
أقوى . أما إذا نسب كلام الزهد هذا ، إلى أحد من المجان ، ومحبي اللهو ، كأبي
نؤاس مثلاً " لما كان لها إلا ما لها في نفسها ، وبالحرى أن تغلط في مقدارها ،
فتبخس من حقها " (٤) .

فالنادرة إذن ، فن يعتمد على أمور متعدّدة ، منها صوغ الألفاظ وما توحيه من
معان ، وكيفية دخولها في النادرة ، بحيث تثير الضحك ، كما تعتمد على الراوي ، أي كيفية
أداء النادرة ، فدصوته وشكله وحركاته وكيفية تلفظه بالكلمات كل ذلك له أثره
البعيد في الإضحاك . ولكن يبقى هنالك طرف ثالث ، وهو جماعة المستمعين ، لأن الإنسان
بطبيعته ، يحب المشاركة ، لا سيما في المواقف المضحكة ، وعند سماع النوادر والطرائف
المختلفة ، لأن الجو الجماعي يضيف روح المرح على النادرة ، أكثر من الجو الفردي ، حيث
يفقد الضحك كالعذوى . لذلك يقول الجاحظ في معرض روايته لأحد أخبار البخلاء
" . . . ولو كان معي من يفهم طيباً ما تكلم به لأتى عليّ الضحك ، أو لقضى عليّ . ولكن ضحك
من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب " (٥) .

-
- (١) البخلاء ، ص ٧ .
(٢) انظر نفسه ، ص ٧ .
(٣) نفسه ، ص ٧ .
(٤) انظر نفسه ، ص ٧ - ٨ .
(٥) نفسه ، ص ١٢٤ .

د - الخرافة :-

لقد سبقت الإشارة ، إلى أن الخيال الفني ، يدور حول دائرة الواقع والحياة ، وما يجوز أن يكون فيها . فإذا أفرط في الخيال ، خرج من المعقول ، إلى اللامعقول ، ومن الخيال الفني ، إلى الخرافة التي تعشعشع في عقول العوام والطغام ، لتستهزئ بها فأنتى توجد الخرافة ، يتفشى الجهل ، ويتقهقر الفكر والعلم ، ويتراجع العقل .

ولعل تركيبة الجاحظ الفكرية ، واتساع علمه ، واتجاهه في الاعتزال ، الذي يعتسده على تحكيم العقل في المسائل والأمور المختلفة ، ودراسته للمنطق والفلسفة كل ذلك ، جعله يرفض الكثير من المعتقدات التي كانت سائدة في عصره بين العوام ، من مثل " زواج الإنس بالجن " (١) ، واعتقادهم بأن الشياطين تصرع الإنس (٢) فيحاول تخنيدها ، ومناقشتها مناقشة منطقية عقلية ، لإثبات سذاجة مثل هذه المعتقدات ، ثم يعلق قائلاً : " وقد يكون هذا الذي نسمعه من اليمانية والقحطانية ، ونقروءه في كتب السيرة ، قص به القصاص ، وسَمَرُوبه عند الملوك " (٣) .

ومن الملاحظ ، أن بعض هذه الخرافات ، ينسب إلى النساء ، وذلك إيماناً بما في تحقير عقولهن ، والتقليل من أهميتهن . ولقد سبق الحديث عن صورة المرأة ، فسي القرنين الثاني والثالث الهجريين ، حيث منعت من الخروج والحرية ، ومن التفكير والتعبير ، فركنت إلى الإيمان بمثل هذه الخرافات نتيجة لتفشى الجهل بين النساء من جرّاء حبسهن في البيوت . ولذلك يقول الجاحظ : " وللنساء وأشباه النساء في هذا وشبهه خرافات ، عسى أن نذكر منها شيئاً إذا بلغنا إلى موضعه . ان شاء الله " (٤) فإذا كانت الظروف الاجتماعية التي أحاطت بالنساء آنذاك هي التي جعلت الخرافة تتفشى بينهن ، فمسا دفاع الرجل عن نفسه ، لئلا يعلل الرغم من أنه كان يملك مطلق الحرية ، فقد كان يؤمن بالخرافات

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٣٧١ .

(٢) انظر ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ .

(٣) نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧١ ، وانظر ، الحيوان ، ج ٧ ، ص ١٠٦ ، وانظر ، نفسه ، ج ٧ ، ص ١٢٨ .

(٤) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٥٣٤ ، وانظر ، نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٣٤ .

شأنه في ذلك شأن النساء . فما من شك في أن الظروف الاقتصادية ، كان لها الدور الأكبر في هذا الشأن ، فحين يتفشى الفقر ، يشيع الجهل ، وتعمش الخرافة ، وكذلك أثر الظروف الاجتماعية والسياسية العامة . (

ولكنهم أنفوا من نسبتها إليهم . فألقوا بها على النساء ونسبوها إليهن ، وكأن المرأة ، خلقت لتحمل كل ما من شأنه الأذى بعقلها ، والتحقير لشخصيتها والتقلييل من قيمتها الإنسانية ، لتبرئ ساحة الرجل من كل أمر يشينه ، وتبرير كل عمل باطل يقوم به . ومن ذلك أنهم نسبوا الخرافة والجهل ونقصان العقل ، للمرأة لا للرجل ، مع العلم أنه شا ركها الإيمان بالخرافات والأساطير !

(وإذا كان الجاحظ يحمل على التفكير الخرافي ، فنراء لا يفتأ يبين مزايا العقل ، ويدعو إلى التفهم والتبين والتفكر ، ناشدا تحرير الطغام وذوي الأحلام الصغيرة ، والجهلاء ، من الخرافة وما تجره على الإنسان من الأباطيل ، وإنقاذهم من شر الاستمرار في الاعتقاد بها . فإنه يعجب أشد العجب من المتعلمين الذين وقعوا في حبالها ، فراحوا يروون في كتبهم من غرائب الخرافات ، ما من شأنه أن يعرضهم للتهكم والسخرية ، فيقول : " وقد رأينا أقواما يدعون في كتبهم الغرائب الكثيرة ، والأموه البديعة ، ويخاطرون من أجل ذلك بمرواتهم ويمرضون أقدارهم ويسلطون السفها على أعراضهم ، ويجترون سوء الظن إلى أخبارهم ويحكون حساد النعم في كتبهم ، ويمكنون لهم من مقالاتهم وبعضهم يتكسل على حسن الظن بهم ، أو على التسليم لهم ، والتقليد لدعواهم . وأحسنهم حالا ممن يحب أن يتفضل عليه ببسط العذر له ، ويتكلف الاحتجاج عنه ، ولا يبالي أن تُمنَّ بذلك على عقبه ، أو من دان بدينه ، أو اقتبس ذلك العلم من قبل كتبه " (١) .

الفصل الثالث

المعرفة عند الجاحظ وتجربته في التأليف

- ٠١ الموهبة والمعرفة .
- ٠٢ الكتاب في التأليف وتجربته .

١٠ الموهبة والمعرفة

أ - الموهبة :

لا شك ، أن الإبداع ، ليس في الآداب وحسب ، وإنما في جميع العلوم والمعارف ، يرتكز على أساس من الاستعداد الطبيعي عند المبدع ، وهو ما يسمى بالموهبة ، التي تنمو وتقوى وتشتد ، مع الدراسة والتمران ، وطول الدرس والبحث ، ليتشكل البناء القوي ، من العلم والمعرفة والثقافة ، على الأساس المتين من الموهبة . فيتفجر الإبداع عندئذ ، ليخرج في أقوى مراحلها وأعماقها وأسمائها . يرى الجاحظ أن للموهبة ، أثرها البعيد والعميق ، في توجيه ميول الإنسان وهي تختلف من فرد لآخر فتوجه صاحبها نحو الإبداع ، في ضرب من ضروب المعرفة ، أو فن من فنونها ، كالحساب ، أو علم الكلام ، أو التجارة أو الفلاحة ، أو اللحن أو الغناء بل إنها قد توجهه نحو تخصص معين في العلم أو الفن الذي يميل إليه طبعه بشكل عام ، كأن يتوجه المرء نحو الآداب ، فيبدع في فن من فنونه ، في الشعر أو الخطابة ، أو التأليف . . . وغير ذلك ، فلقد " كان عبد الحميد الكاتب وابن المقفع ، مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يذكر مثله " . بل إن الموهبة قد تتعمق لتختار جزئية من هذا التخصص كأن يتجه المبدع نحو الشعر ، ليدع في ضرب من ضروبه فاما أن يختار القصيد أو الرجز ، وقد يجمع بينهما . . . وهكذا . وقد يتقن المبدع ضربين من فنين مختلفين ، كأن يجمع بين إتقانه للخطابة من فن النثر ، وإتقانه لضرب من ضروب فن الشعر . (١)

فالقضية الأساسية إذن ، هي قضية الاستعداد الطبيعي الذي يخلق مع الطفل منذ تكوينه الأول . ولعل الجاحظ ، حين يدعو مرارا وتكرارا ، إلى ترك التكلف ، والابتعاد عن استكراه الألفاظ والمعاني ، فهو يدعو بذلك ، إلى ترك الطبيعة المهدبة بالعلم والمعرفة تجري في مجراها ، وتسير في مسربها ، دون محاولة للتشويه والتقيج ، بالتكلف والاستكراه . فإذا كانت هذه الطبيعة موجودة في الإنسان ، أبدع حقاً ، وآلا فليكن عن الخوض فيما لا يتناسب وموهبته .

(١) انظره البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

والموهبة تنتقل ، من الخصوص ، إلى العموم ، إذ قد لا تقتصر على الفرد ، وإنما تتسع لتشمل أمة بأكملها ، أو شعباً برمتيه . ولهذا نجد الشعوب بشكل عام تختلف فني توجيهاًتها الفنية والعلمية ولذلك فإن " جملة القول أننا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس . فأما الهند فإنما لهم معان مدونة ، وكتب مخلدة ، لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف ، وإنما هي كتب متوارثة ، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة .

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق . . . (١) ولكنه لا يحلل السبب في ذلك ، ولا شك أن هناك عوامل متعددة ، شكلت مع الزمن ، خصوصية في التوجه العام للأمة الواحدة كالعوامل البيئية والجغرافية والتاريخية ، واللغوية . . .

وتستوقف الجاحظ فكرة اشتراك الفرس مع العرب في الإبداع الخطابي ، ليستدرك عليها بقوله ، إن الفرق بين خطابة الفرس ، وخطابة العرب ، أن الأولى لا تتأتى إلا بعد طول دراسة وأعمال فكر ، أما خطابة العرب فمرتجلة ، مما يدل على أن موهبة العرب في الخطابة هي موهبة أصيلة خالصة ، تتعالى على محاولات الفرس الخطابية . فكأنه لم ترق له فكرة انتساب الخطابة للفرس كذلك ، إذ لا بدّ من أن يتفوق العرب عليهم في هذا المجال (٢) بل تأخذه الحمية للعرب ، فيمضي فيها إلى درجة أنه يذهب إلى نفي العلم والمعرفة عن العرب القدماء ، واصفاً إياهم بالأمية ، غير أنه لا يقصد الذم بدليل قوله ؟ " وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلمون ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ، وخطابواهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظه ويحتاج إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره ، واحتذى على كلام من كان قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بحقولهم ، من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب . وإن شيئاً هذا الذي في أيدينا جزء منه . لبالمقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد السراب

(١) البيان والتبيين ٥ ج ٣ ص ٢٧ .

(٢) انظر نفسه ٥ ج ٣ ص ٢٨ .

وهو الله الذي يحيط بما كان ، والعالم بما سيكون . . (١) بل إنه يريد أن يخلق على العرب صفة ، لا تجاريهم فيها أمة من الأمم ، وهي الموهبة الفنية الأدبية ، التي تجري نفسي عروقهم مجرى الدم ، حتى أنه ليشبهها بالإلهام لشدة تأصلها في نفوسهم ، ومن يريد التأكيد من صحة ما يذهب إليه ، يدعوهم إلى زيارة الأعراب الأثحاح في صحرائهم ، حيث " الفصاحة الثامنة " ، ليرى بأعينه ، الشعر الحقيقي الخالص ، والخطابة البليغة ، وهذا هو الفرق بين بلاغة العرب وبلاغة الفرس (٢) . فالأولى تنبع من موهبة صافية ، والثانية تأتسى بعد طول درس وتجميع وتكلف وتعسف .

وبعد ، فإن الجاحظ لا ينكر أثر المعرفة والعلم ، في دروس الموهبة والإبداع ، وإنما هو يتحدث عن الموهبة الخالصة ، دون محضات معرفية - إن جاز التعبير - تغطي على حقيقة هذه الموهبة ، فإذا جاء الحديث عن العلم والمعرفة ، نجده يتغنى بهما ويفضلهما ، ولا غرو في ذلك ، فإن العلم كان قوت يومه ، وغذاء روحه وعقله ، وبه بنى حياته العلمية ، وشهرته الإبداعية . إذ لا حياة لموهبة بلا علم يغذيها ، ومعرفة تنميها .

(١) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(٢) انظر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٩ .

ب - المعرفة :

لقد شغف الجاحظ بالمعرفة ، شغفا عظيما ، حتى غدت حاجته الذي لا ينقطع ، وفغدى لا يفتأ ينبه على أهميتها ، ولا ينفك يردد فضائلها ، ويدعو كل إنسان لأن ينهل من صنوفها . فالمعرفة غذا العقل والنفس ، كما الطعام غذا الجسد . ومن هنا نبع اهتمامه العظيم بالكتاب ، الذي هو ينبوع العلم والمعرفة .^(١) فينصح القاري ، يتصفح الكتاب ، ولا اطلاع عليه ، قبل اللون إلى التمعن في قراءته والتمعق في دراسته .^(٢) لأن ذلك أعلق في ذهنه ، يقدم للقارئ تصورا أوليا للموضوع ، واتجاه المؤلف وأسلوبه مما يشجع على قراءته ، ويحضر على مزيد من الاستزادة في ذلك العلم أو الفن . ومن جهة أخرى ، فإن الانطباع الأول ، الذي يأخذه القاري عن الكتاب ومؤلفه حين يتصفح ، ويلقي نظرة خاطفة على أبوابه وفصوله ، يعين على استيعاب أعمق للموضوع ، ويمهد الطريق لتركيز أشده ، ويسهل القدرة على التفهم والاستفادة .

وبما أن الإبداع العلمي والأدبي والفكري . . . يحتاج إلى المعرفة ، والموهبة معا فقد وضع الجاحظ نهج الاستفادة من هذه المعرفة ، حيث " ينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا ، كسبيل من كان قبلنا فينا . على أننا وقد وجدنا من العبرة أكثر ما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجدون من العبرة أكثر ما وجدنا . " .^(٣)

فهو يدعو غير مرة ، إلى ضرورة الاستفادة من الماضي ، من أجل بناء الحاضر والمستقبل ، فكما أفادنا السابقون ، علينا أن نعيد اللاحقين ، هذا مع العلم أن اللاحقين يجدون من المنفعة والاستفادة أكثر من السابقين ، لتطور العلم وتزايد المعرفة ، فالتطور الإنساني ، يقتضي أن ينهل الخلف من علم السلف ، ويزيد عليه من علمه وما توصل إليه من تجاربه . فهكذا تتكون الحضارات الواحدة تلو الأخرى ، وتتطور الحياة ، وينتشر العلم ، وتشيع المدنية .

ولذلك ، يرى أن حفظ العلم يكون بجمعه ، وضمه إلى ما يجد منه ، وترتيب ما يتشابه من ضروره بعضه مع بعض ، ومن هنا تنبع أهمية الخط ، في تخليد ما يكتب العلماء على

(١) انظر رسائل الجاحظ ج ٤ ص ٢٠٤ .

(٢) انظر نفسه ج ١ ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٣) الحيوان ج ١ ص ٨٦ ، وانظر رسائل الجاحظ ج ١ ص ٣١٦ .

مدى الحقب والدمور، بالوسائل المتاحة لهم ، فقد كان الاوائل يقيدون خواطرهم ومآثرهم بالنحت على الصخر، لعدم توفر الدواة والقرطاس وما شابه ذلك من أدوات الكتابة . وذلك لتخليد فكرهم وصلوهم ، فيستفيد منهم من يأتي بعدهم ، ليفيد على ما قيدوا جديده . فهذا هو سر التطور الحضارى . (١) " ولذلك قيل : " لا يزال الناس بخير ما بقى الأول يتعلم منه الآخر " . (٢)

ولذلك ، فإن من الواجب على العالم أن ينشر علمه ويظهره ، فلا يعمد إلى إخفاؤه ، وستره ، لأن في ذلك خيانة للعلم ، وللخلق العلي . فما ينتظر العالم باظهار ما عنده وما يمنعه الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجوم التقيّة ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم ! ؟ (٣) فيصور لنا الجاحظ بذلك ، ما كان يتمتع به مجتمعه في ذلك الوقت ، من الحركة العلمية النشيطة ، وما كان ينعم به الناس ، لا سيما المفكرون والأدباء والفنانون وعامة المثقفين ، من حرية الفكر والتعبير التي فتحت الباب على مصراعيه ، أمام المفكرين من جميع الاتجاهات والأديان للتعبير بلا وجل أو خوف ، عن آرائهم ومبادئهم . فكانت المناظرات بين الفرق المختلفة ، والأديان المتعددة ، خير مثال ، لهذه الحرية التي بين أحضانها ، ينمو التطور البشري ويتزعرع ، وتتجلى القيم الإنسانية في أجمل وأحلى صورها . هذه الحرية التي لا يزال الناس ، في وقتنا هذا ، وفي معظم أجزاء المعمورة ، يناضلون في سبيلها ، ويبدلون اقدام السخية من أجلها . حيث إن كبت الحريات ، وخنق الفكر ، يؤدي بالضرورة إلى سيادة الجهل أو الانحطاط والتخلف في كل أمر من أمور الحياة ، ليس على صعيد الفكر وحسب ، وإنما على صعيد الاقتصاد والحياة الاجتماعية والسياسية كذلك . وقد حمل المعتزلة ، لواء الحرية وشعار العقل ، فراحوا يناقشون عن دينهم وفكرهم ، بسلاح المنطق والفكر والمناظرة ، الذي وقفوا به في وجه المخالفين ، لا سيما الزنادقة ، والشموعيين ، فليس يجد في الفكر قمع جسدي ونفسي ، بل إنه قد يزيد من تماسك المخالفين ، بمبادئهم وأديانهم ، فالشراقة تقابل بشراقة

(١) انظره رسائل الجاحظ ج ٢ ص ٣٨٣ .

(٢) نفسه ج ٢ ص ٣٨٣ .

(٣) الحيوان ج ١ ص ٨٦ - ٨٧ . وانظره نفسه ج ١ ص ٨٤ . وانظره رسائل الجاحظ

ج ٤ ص ٢٩٦ .

وإذا كانت الموهبة ، هي أساس الإبداع ، فإن المعرفة هي أساس حياة هــهـهـه
الموهبة ونموها وتطورها ، وإلا كانت كالزبد يذهب جفاء . " ويد الإنسان لا تكون أبداً إلا
خرقا ، ولا تصير صنّاعا ما لم تكن المعرفة ثقافا لها . واللسان لا يكون أبرأ ، ذاهبا في طريق
البيان ، متصرفاً في الألفاظ إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به ، منقطة له ، واضعة له في
مواضع حقوقه ، وعلى أماكن حظوظه ، وهو علّة له في الأماكن العميقة ، ومصرفة له
في المواضع المختلفة . " (٢)

غير أنه ينبغي للمرء ، أن لا يغتر فيظن أن بإمكانه الإحاطة بكل أنواع المعرفة ، وأصناف العلم وضروبه ، حتى ولو بلغ من العلم مبلغا عتيدا ، وذهب فيه مذهبا بعيدا ، ^(٣) لأن ذلك من الخرور ، والغرور بغرض ، ومن الكبر ، والكبر مقتوت ، فالتواضع سمة العلماء ، وصفة العظماء ، وإذا مهما بلغوا من العلم والعقل ، ومهما ارتقوا وعلوا وتساموا ، في الفكر والخلق ، فإنهم لن يصلوا مرحلة الإعجازه وذلك " لأن الإنسان ، وإن أضيف إلى الكمال وعرف بالبراعة وغمر العلماء ، فإنه لا يكمل أن يحيط علمه بكل ما في جناح بعوضة ، أيام الدنيا ، ولو استمسك بقوة كل نظار حكيم ، واستعار حفظ كل بحاث واع وكل نقاب في البلاد ، ودراسة للكتب " ^(٤)

وللعالم صفات معروفة ، أولها سعة العلم والرواية ، وجودة الحفظ ، ثم الإرادة القوية ، والمرونة الفكرية ، والإحساس المرفه ، والقلب الصادق ، والمبر على ما بُعد وَصْعَب ،

(١) انظر، الحيوان، ج ٦، ص ٣٢٠.

(۲) نفسه مج ۱ ص ۱۱۶ - ۱۱۷.

(٣) انظر نفسه ج ٥ ص ١٩٩. وانظر رسائل الحافظ ج ١ ص ١٥٧.

(۱) نفسه ج ۵ ص ۲۰۰.

وغرض من المسائل ، لتحقيق سحة الفهم ، ووضوح الفكر في الذهن ، ثم صحة الطبع والحرص ، وحسن العادة ، بالإضافة إلى " إفراط الشهوة وفراغ البال ، وبعد الأمل ، وقوة الطمع في تمامه ، والانتفاع بشمرته " دون أن يسرع إليه الملل ^(١) ، وذلك لأن الملل يقطع القابلية للقراءة والدرس ، فيعرض المرء عن الكتاب ، وعن المعرفة ، ويترك إلى الجهل ، وطول الراحة والجمام ، الذي يورث الجمود والتخلف . وبذلك يلتحم العقل والفكر والاخلاق ، وتشابك الصفات العلمية العقلية ، مع الصفات الشخصية ، لترقى بالمتعلم ، إلى مصاف العلماء ، والسادة . " ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : " تفقهوا قبل أن تسودوا " ^(٢) .

ويبلغ الإنسان من العلم ، على حسب هدفه منه ، والأهداف كثيرة ، فمنهم من يطلبه لذاته ، ولرغبة جامحة في نفسه تدفعه للاستزادة ، فهذا المتعلم ، يظل في طلب العلم حتى نهاية عمره ، وذلك لأنه لا حدود للعلم يقف عليها المرء ، وينتهي إليها طالب العلم . " ولم يزد له طلباً إلا ازداد فيه رغبة " . ومنهم من يطلب منه مقداراً يفي بحاجته ، فيكتفي منه بذلك المقدار مع انتهاء الحاجة ، وهذا الصنف من طلاب العلم ، يقتنع بالقليل . غير أن العلم لا يكون أبداً ، وسيلة للاغتناء ، والكسب المادي ، أو وسيلة للظهور والكبرياء ^(٣) .

فلا مناص من الاختيار ، إماً تحصيل العلم ، وإماً تحصيل المال ، وهذه قضية تتمثل بالخلق العلمي ، فحين يهيب الإنسان نفسه للعلم ، فإنه لا يطلب مقابل ذلك مالا ومكسباً ، بل يجد في طلب العلم ، بنية صافية صادقة خالصة ، بغية الإفادة والتفهم ، وتغذية العقل والروح ، بالمفيد والمتع في آن واحد ، " وليس من نظرفي العلم على الرغبة والشهوة له كمن نثار فيه على المكسبة به والهرب إليه ، لأن النفس لا تسمح بكل قواها إلا مع النشاط والشهوة ، وهي في ذلك لنفسها مستكرهة ولها مكابدة . والسامة إلى من كانت هذه صفته أقرب ، وله ألزم " ^(٤) .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٥ ، ص ٢٠٠ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٨٧ .

(٣) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

(٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٩٦ .

فأساس طلب العلم إذن، وقوام امتلاك زمامه، في الرغبة فيه، والتوق إليه، لكي تنشط له النفس، ويتفتح له العقل، وإلا أسرع إليه السأم، فلا تقبل النفس إلى طلب العلم إلا وهي له كارهية. فالسأم يقتل العلم والعقل شرقتلة ويقضي على الإبداع، ولذلك كان على رأس موانع العلم الخطيرة. ويقسم الجاحظ موانع المعرفة إلى قسمين أساسيين: الأول: ما في أصل الطبيعة من الآفات.

والثاني: ما هو مكتسب كالحوادث المختلفة التي يتعرض لها الإنسان.

فما يندرج منها تحت القسم الأول، أي ما هو غريزي وطبيعي في الإنسان، كأن تكون الآفة في تركيب الجسم " من قبل الأخطا الأربعة على قدر القلة والكثرة، والكتافة والدقّة ".

وأما ما يندرج منها تحت القسم الثاني، أي المكتسب، فمثل " سوء العادة "، فالقراءة عادة حسنة، يعتادها الإنسان منذ صغره، فاما أن يعتادها المرء، ولتحول إلى طبيعة أصيلة فيه، واما أن يعتاد تركها، ليغدو من الصعب عليه أن يتناول كتاباً، مما يؤدي إلى " إهمال النفس "، فينضب فكره، ويجف خاطره، وبالتالي " يستثقل النظر " في الأمور والقضايا الجادة المختلفة. وما يندرج تحت هذا القسم الثاني كذلك، الهيموم التي تعرض للمرء وتشغله، وتجزي قواه، فتمنعه من الانصباب على القراءة، بمجامع قوته، وفراغ البال ضرورة أساسية، ليتفرغ المرء للقراءة والدرس، والتعمق والتفهم.

ومنها أمور، لا تخص القارئ، أو طالب العلم، وإنما هي عوامل خارجية، يكون الملوم فيها المعلم " ومن ذلك ما يكون من خرق المعلم، وقلة رفق المؤدب، وسوء صبر المثقف^(١) ".

هذه هي الموانع التي ينبغي لطالب العلم أن يتجنبها، ويتلاقى منها ما يستطيع تلافيه فيما يتعلق بموانع العلم المكتسبة، فيصبر على نفسه، ويوجهها التوجيه الصحيح، ويعودها العادات الحسنة، ويعلم نفسه الصبر، وإطالة النظر، ولا يتردد على القساة والجهلة من المعلمين، لأن قدرًا من الملامة يقع عليهم.

(١) انظر، البيان والتبيين، ج ٣، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

أما فيما يختص بتركيبية المتعلم الجسمية ، من " الأخلاط الأربعة " المذكورة ، فليس الذنب ذنبه ، ولا حول له ولا قوة . إذ ما من علاج لهذه المعضلة .

وفي مقابل موانع العلم ، يعرض الجاحظ للمشجعات التي تحض على العلم ، فينبها ما يتصل بأصل الطبيعة كالذكاء ، اللامع ، والخواطر الوفيرة ، وحب المعرفة . فإذا جبل الإنسان على هذه الأمور " وقعت المعرفة وتمت النعمة " .

ومنها ما يتصل ، بتحمود العادات الحسنة ، مثل حب المعرفة التي تدفع إلى الاستزادة منها ، وأن يصفى المرء ذهنه وباله من كل ما يشغله من عموم الحياة ومتاعها . (١)

ومن المشجعات على العلم كذلك ، التأني ، وانتهاز الفرصة المواتية (٢) ، كما أن للأسلوب أثره البعيد في اجتذاب القاري ، فإذا كان أسلوب الكتاب ، جامدا ثقيلا ، كان من أعظم موانع العام ختلرا ، وذلك لأنه يسئ القاري ، ويبيده عن الكتاب ، لأنه متى ثقل الدرس تناقلت النفس ، وتفاعست الطبيعة ، فيعتاد المرء طول الراحة ، التي تضعف العقل ، وتوهنه ، حيث إن الحاجة المستمرة والملحة ، إلى القراءة ، تستدعي الفكر والخواطر وتفني العقل والقلب بها ، وقلة هذه الحاجة ، تدعو إلى نضوبها بالضرورة (٣) ، لأنه " مع قلة الحركة وبعد العهد بالتصرف يحدث العي ويظهر العجز ويبطئ الخاطر . ومع ذهاب البيان يفسد البرهان ، وفي فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين " . (٤)

فهو يؤكده غير مرة ، أن إهمال العضو ، يؤدى إلى ضعفه رويدا رويدا ، إلى أن يؤدى به إلى العجز التام ، فهذا هو شأن العقل ، واللسان ، والموهبة . . . ولذلك فإن الحاجة تقضي إلى متابعة الدرس والقراءة ، وتمارين هذه الأعضاء ، لأنها أساس الإبداع الفذ ، وبيان اللسان ، والفصاحة التامة . ولذلك فإن الأسلوب الشائق ، يشجع على الاستمرار في القراءة

(١) انظره البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٢) انظره رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٣) انظره نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .

(٤) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .

واعتماد هذه العادة ، لتصبح حاجة متأصلة في الإنسان ، تدعوه إلى ملئها وإشباعها ، لتحقيق الغاية الأولى والأساسية ، من الفهم والإفهام .

ومجمل القول إذن ، إن جماع العلم ، يقتضي وفرة الخواطر ، ومعرفة وجوه الكلام ، وكثرة الحفظه ، وكتابة ما يرد من العلم ، " وأن لا تخلي نفسك من الفكرة إلا بقدر جماع الطبيعة " وبذلك تكون كثرة الأفكار والخواطر في الذهن ، على قدر ما تسمح به طبيعة المرء ، وعلى قدر فراغ ياله . . . فلا تخرج مقتسرة أو متكلفة ، وأن تكون غايته في طلب العلم على سبيل الرغبة والرغبة ، لا المنافسة والشُّرَّة : فالرغبة في العلم تدفعه للاستزادة ، والرغبة منه ، تدفعه للوقوف عند كل ما يقرأ ويكتب ، فيجبل نظره فيه ، ويعيد قراءته لمزيد من الحرص والتوقي ، ومزيد من التأني والتعمق فيسرع دونما عجلة ، ويتأنى دونما إبطاء ، ليوفي كل أمر حقه وشرطه ويجني ثمار ما درس ، ويخرج نفسه برد اليقين ، فالعلم لا وجود بنفسه وجوهه إلا لمن وفاه حقه من الدرس والمتابعة ، بنية صافية ، وعقل متفكر متعمق ، راغباً فيه ، ومترفعاً به عن غايات " التكسب " و " التبذل " . (١)

هذاء وأصناف العلم والمعرفة ، لا عدد ولا نهاية لها ، ولذلك ينصح الجاحظ طالب العلم ، فيقول : " وخصلة ينبغي أن تعرفها وتقف عندها ، وهو أن تبدأ من العلم بالمهم وتختار من صنوفه ما أنت أنشط له ، والطبيعة به أغنى ، فإن القبول على قدر النشاط ، والبلوغ فيه على قدر العناية . . (٢)

وعمد العلم ، وأساسه ، كثرة السماع وحسن الإصغاء ، لأن ذلك من شأنه أن يستدعي الأفكار والخواطر والهواجس ، التي تعين على عمق التفكير ونشاط العقل ، والإقبال على القراءة ، (٣) وأكثرهم تفكراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علماً أرجحهم عملاً . (٤)

(١) انظر رسائل الجاحظ ج ٣ ص ١٠٤ - ١٠٦ .

(٢) نفسه ج ٣ ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) انظر نفسه ج ٣ ص ٢٣٩ .

(٤) نفسه ج ٣ ص ٢٣٩ .

ومما لا شك فيه أن الصحة الذهنية، تتركز على الصحة الجسمية، والعقل الصحيح في الجسم الصحيح، ومما أن التجارب تعلم الإنسان وتزيده فكراً وعلماً ومعرفة، فإن المبصر يصير أكثر خواطر من الأعى، لأن البصر يعني خيال المرء، ويزيد من تفكره، فللرؤية أكبر الأثر في استدعاء الخواطر وما يمكن أن يرد على نفسه، ويقع في خلد من المواجهات والفكر، أما الأعى، فإنه يقتصر على التجارب التي يخبرها من السمع، وسائر الحواس الأخرى دون البصر، وليس الكمال كالتقنين. وكذلك الأمر بالنسبة للمبصر السامع، فهو أكثر تجارب وبالتالي أكثر خواطر، من المبصر الذي لا يسمع^(١) لعدم قدرته على الإحساس بالأصوات المختلفة، كالالموسيقى، وأصوات الطبيعة، وغير ذلك مما من شأنه أن يفجر الإبداع. وإذا كان التاريخ يحدثنا عن مبدعين علا نجمهم، وصارت شهرتهم في الآفاق، على مر العصور والأزمان، على الرغم من فقدانهم لإحدى حواسهم، فإن أمر هذه القلة القليلة من المبدعين، يجري على شواذ القاعدة.

وللعلم، والبحث العلمي بشكل خاص، طريقتان ومنهجان، وهما: الاستنباط، والحفظ، فيعمل الجاحظ، سبب مقت العلماء، والحكما، من ذوي التفكير، وأنصار الاستنباط، للحفظ، وذلك لأنه أدعى للاتكال والتقليد، ويحول دون استعمال العقل والتفكير،^(٢) فيعتاد العقل التلقي، دون تمييز ومناقشة لما يتلقى وفي ذلك قتل لمكة التحصيل والتفكير والتثبت والتمييز، والنقد والاحتجاج. فهم يرون أن الاستنباط هو الذي يغني بصاحبه إلى برر اليقين وعز الثقة.^(٣)

وبيّن الجاحظ رأيه في هذه القضية، ليتخذ مكانه، في منزلة وسط تجمع ما بين الحفظ والاستنباط فيقول: "والقضية الصحيحة والحكم المحمود: أنه متى أدام الحفظ أضرب ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أضرب ذلك بالحفظ، وإن كان الحفظ أشرف منزلة منه، ومتى أهمل النظر لم تسرع إليه المعاني، ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه، وقيل مكثها في صدره".^(٤)

(١) انظر رسائل الجاحظ ج ٣ ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) انظر نفسه ج ٣ ص ٢٩.

(٣) نفسه ج ٣ ص ٢٩.

(٤) نفسه ج ٣ ص ٢٩ - ٣٠.

فمن الخطأ الفادح إذن ، الاتكال على أحد هذين المنهجين دون الآخر ، لأن ذلك أدعى للإهمال والضرر . ولعله في قوله **إِنَّ** " الحفظ أشرف منزلة " من الاستنباط ، يريد بذلك الدفاع عن منهج العرب القدماء ، الذين كانوا يقيّدون حكمهم وأفكارهم وآراءهم الفلسفية . . . شعرا لا نثرا ، فكانوا يحفظون الشعر ويجيدون روايته ، حيث كان لكل شاعر رواية يحفظ شعره ، ويرويه ويشهره ، لتحفظه الاجيال تلو الاجيال . غير أن لكل مقام مقال ، فللاستنباط مقامه ، وللحفظ مقامه ، ولذلك فإنه لا يكتمل علم العالم ، إلا بهما معاً ، ولا يملك بزمام المعرفة إلا باثمالها وترباطها في نهجه وبحثه " وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط . (١)

وعلى أية حال ، فلا بدّ للباحث ، من خلّو باله ، وسلّو قلبه ، من كل هم أو هاجس يبعده عن بحثه ، ويقصيه عن علمه . كما لا بدّ من الرغبة الجامحة في العلم ، ليتم له ما يؤمل . (٢) ولكي يتسنى له ، قوة الحفظ ، وتماه ، لا بدّ من انتقاء الوقت المناسب ، واختيار الساعة المواتية ، حيث يرى أن أنسب الأوقات ، وقت السحر ، حيث يكون الذهن صافياً بعد راحة طويلة ، ونوم عميق ، وقبل التفز في خضمّ المهوم اليومية ، والأعمال المرهقة في سبيل لقمة العيش . (٣) ولكي يكون العقل مهيئاً للبحث العلمي . والقراءة المتعمنة ، فينبغي أن يحمل المرء بمقدار لا يتجاوزه ، كيما يؤثر على قوته فيضعفها ، وينبغي له أن يجمّ نفسه ويريحها ، شرط أن لا تتجاوز المقدار ، كي لا يذهب بنشاطه . وذلك " لأن للجسم مقدارا هو المصلحة ، كما أن للكّد مقدارا هو المصلحة " . (٤)

ولذلك ، يدعو الجاحظ مراراً ، إلى استعمال العقل ، وتمرنه ، ويحذّر من منية إهماله ، لأن العقل " أطول من العين ، وأحوج إلى الشد من السيف " فإذا أهمل فلا دواء ينجع عندئذ ، ولا معالجة تنفع ، (٥) وأنسى له حياة بعد موت سببه الإهمال والتعود ، بدلاً من

(١) رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

(٢) انظر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

(٣) انظر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

(٤) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

(٥) انظر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .

النشاط والمران . فهو ينصح كل إنسان أن يسرع إلى تدارك الأمر قبل فوات الأوان ، فيحاول تنشيط ذهنه باعتياد القراءة ، وإيقاظ عقله الوسنان ، بعد طول غفوة^(١) ، وآلا فمن راقته بعد التفاقم لم يدرك شيئاً من حاجته .^(٢)

وإذا كانت البهائم تستجمع قواها ، وتظل في حالة تيقظ مستمر ، حين تحس بالخطر ، فإن الإنسان أولى بالتعلم والتعرف والتيقظ .^(٣) فلقد سني العقل كذلك ، لأنه يمسك باللسان ، وينهاه عن الجمالة والضرر " كما يعقل البعير " . ولهذا الأمر سمي " حِجْراً " . إذ يحجر على اللسان كما " يحجر على اليتيم " . ولقد وردت هذه " التسمية للعقل ، في القرآن الكريم .^(٤) في قوله تعالى : (هل في ذلك قسم لذي حجر)^(٥) .

وإذا ابتغى المرء علماء وخلصت نيته للتعلم ، فينبغي عليه إذن ، أن يتحلى بالصبر والثاني ، فيستزيد من العلم شيئاً فشيئاً ، ولا يحاول أن يتعجل الأمر ، فيعود عليه بالضرر الشديد شأنه في ذلك ، شأن الغذاء الذي إذا التهمه الإنسان كله دفعة واحدة ، أصابته التخمسة ، وأضر ذلك بصحته .^(٦)

وأخيراً ، يقول في العلم بصورة عامة : " والعلم أصل لكل خير ، وبه ينفصل الكم من اللوم ، والحلال من الحرام . والفضل من الموازنة بين أفضل الخيرين والمقابلـة بين أنقص الشرين .^(٧) "

والآداب ، ضرب من غروب العلم ، وصنف من صنوف المعرفة ، ولا غناء للإنسان عنه ، ولذلك يدعو الجاحظ إلى تعلم الآداب بجميع فنونه وعلومه .^(٨)

(١) انظر رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .

(٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .

(٣) انظر البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

(٤) انظر رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ١٤١ .

(٥) الفجر ، ٥ .

(٦) انظر رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣١٨ .

(٧) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٥ .

(٨) انظر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٨١ .

(١) والأدب عنده ينقسم إلى نوعين (١) "أدب خلق" (٢) "أدب رواية" (٣) ، والخلق في المفهوم الأدبي ، بمعنى الإبداع ، فينبغي للأديب أن يكون مبدعا وراوية في آن واحد ، شريطة أن يكون عقله المتأمر عليهما ، والسائس لهما "إن طمع إلى أن يكون أدبيا مفلقا خنذا يشار إليه بالبنان" (٤) وهو في ذلك كله لا ينفك ، يؤكد أهمية سيادة العقل ، في كل أمر من أمور الحياة ، وكل ناحية من مناحي العلم .

والنحو ، علم مهم من علوم الأدب ، وفن رائد من فنونه ، إذ هو عماده وأساسه ، يقضي المتأدب من الوقوع في برائن الغلط ، وفاحش الخطأ ، لذلك يتطرق الجاحظ ، إلى قضية مهمة ، يبارحها ، وهي قضية لاتزال مطروحة حتى وقتنا هذا ، وتشكل معضلة ، تعاني منها الأجيال العربية المتعاقبة ، ومن الواضح أن الصبغة في عصره ، كانوا يمانون منها ، وتمثل في كيفية تلقين النحو للصبية ، بيسر ، دونما تعقيد أو غموض ، أو الغوص فيما من شأنه أن يحول دون فهم هذا العلم المهم ، فيقول طارحا المشكلة مع حلها : "وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤدّيه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه ، وشعر إن أنشده ، وشي إن وعفه . وما زاد على ذلك فهو شغل عثم هو أولى به ، ومذهل عما هو أرد عليه منه من رواية المثل والشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع . وإنما يرغب في بلوغ غايته ومجاوزة الاختصار فيه ، من لا يحتاج إلى تعرف جسيمات الأمور ، والاستنباط لخوامض التدبر ، ولمصالح العباد والبلاد ، والعلم بالأركان والقضايا الذي تدور عليه الرحى ، ومن ليس له حظ غيره ولا معاش سواه .

وعوض النحو لا يجري في المعاملات ولا يضطر إليه شيء . . (٥)

فالسبب إذن في عدم فهم النحو ، حق فهمه ، يعود إلى المعلمين الذين يدخلون بالصبغة في مناهات لا قبل لهم بتعلمها ، من عوض النحو وغامضه ، فيدعوهم الجاحظ إلى الترفق في تعليمه للصبغة وتيسيره عليهم ، كي لا يحولوا دون إتقانهم لهذا العلم الأساسي من علوم اللغة والأدب .

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٩٥ .

(٢) في رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٩٥ ، وردت كلمة "خلق" محرّكة بضم الخاء واللام ، والسياق يدل على أن الصواب "خلق" بفتح الخاء وتسكين اللام ، لأن "الخلق" في الأدب يقابل الرواية .

(٣) رسائل الجاحظ ، ج ٤ ، ص ١٩٥ . (٤) انظر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٥) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٨ .

٢٠ الكتاب وتجربة الجاحظ في التأليف

أ - الكتاب :-

لقد سبق عرض رأي الجاحظ في "الخط" ، كونه وسيلة من وسائل البيان ، وما هو ذا يعود ثانية لبسط الحديث عن هذه الوسيلة ، مبينا فضائلها وأهميتها ، مجسدة في الكتاب السندي يحوي الكنوز العقلية والعلمية والتراثية . . .

وينبع اهتمامه بالكتاب ، أنه كان يجد فيه من الفضل العظيم ، مما جعله يهب نفسه للعقل والادب والعلم . فكانت نتيجة ذلك ، أن خرج على الإنسانية ، بكتب موسوعية اجتازت الأزمنة والعصور ، لتصل إلى أيدي كل متأدب ومتعلم بالعربية .

وعلى الرغم من الأحداث والخطوب التي مرت به ، في حياته الطويلة ، فقد ظل الكتاب صديق عمره الوفي ، يلزمه في حله وترحاله . ولهذا فهو يعرض لتجربة صداقته الطويلة للكتاب وما فيه من فوائد جليلة ، تروي النفوس الغليظة ، المتعطشة للمعرفة ، التي تنشد إحياء العقل والقلب معا . فيجد فيه الإنسان ، ما لا يخطر على بال ، أو يعين على خاطر ، فيسهب فسي تعداد فوائده الجمّة ^(١) ، ومجمل القول في ذلك ، بأنه معجب بالكتاب أيما إعجاب ، ومفتتن به أيما افتتان ، يقف مذهشا أمام قدراته الخارقة ، حيث ينطق الموتى كما ينطق الأحياء ، ويسافر بالإنسان إلى البلاد البعيدة ، والمناطق النائية ، ويتنقل به بين الهزل والجدة ، ومن علم إلى علم ، ومن فن إلى آخر . فهو نعم الصديق الوفي ، الكاتم للأسرار ، الحافظ للودائع ^(٢) ، وهو من خلال حديثه عن فضائل الكتاب ، يعرض للأخلاق القويمة التي يمثلها من البر ، والإنصاف ، والرفقة السلسة ، والكفاية ، والوفاء ، والصراحة والشجاعة والصدق فيخني الإنسان بذلك ، عن مجالسة أهل السوء وذوي الجهل ^(٣) ، كما يقصيه من الوقوع في أمور تدعو إلى التسخف ، والتباهي ، وحب الغلبة والتصنع ، وحب الرئاسة

(١) انظر الحيوان ج ١ ص ٣٨ - ٤٧ ، ٤٨ - ٥٠ ، ٥٢ - ٨٤ ، ٨٥ - ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، وانظر رسائل الجاحظ ج ١ ص ٣١٥ - ٣١٦ ج ٣ ص ٢٧ - ٢٨ ، ٤٢ ، ٤٣ ج ٤ ص ٢٩٦ .

(٢) انظر الحيوان ج ١ ص ٣٨ - ٤٠ (٣) انظر نفسه ج ١ ص ٥٠ - ٥٢ .

والظهور ، وغير ذلك مما ينتاب الشخص حين التلاقي للمناظرة " وعند المواجهة والمقابلة " ،
 ما يحول دون تلقي العلم ، والتعمق في المعرفة ، والتعرف إلى الدلالات المختلفة (١) ،
 ولهذه الفوائد العلمية والأدبية ، المهدبة للعقل والنفس علميا وخلقيًا ، فإن المكب على
 قراءة الكتب ، وليجد فيها كل خير ومصلحة ، فهي ترتقي بالعقل ، وترفعه ، وتدأوي النفس
 وتثلج الصدر وتعمر القلب . (٢)

(فالكتاب ، هو السبيل إلى التطور الحضاري ، واستمرار البشرية ، حيث إنه يحفظ لنا
 علوم الأوائل ، ويخلد ما قد خلفه لنا الأسلاف ، به تدون المؤلفات المختلفة ، فيحفظ
 ما قد ينساه العقل الذي آلفه ، ولذلك احتل مكان السدرة ، بين الوسائل البيانية
 المختلفة ، فالكتاب قد يغني عنها ، إن لنا الأمر ، ولكنها جميعًا لا تحل محل الكتاب (٣))

(وقراءة الكتب عادة ، ينبغي أن يتعلمها الإنسان ويعتادها ، منذ نعومة أظفاره ، لتتأصل
 فيه ، وتغدو حاجة يومية ، تلج عليه كحاجته إلى المأكل والمشرب . . . ولذلك يدعو الجاحظ
 إلى تعليم الصغار ، وأذهانهم لا تزال ناصعة ، وقلوبهم خالية ، فيعلق العلم الفيلسوف
 بعقولهم ، وتمتدح الأخلاق القوية بنفوسهم ، لتخرج تربيتهم أحسن تربية ، وليكون حب
 المعرفة هدفًا يتوقون إليه كل يوم ، حين تغدو قراءة الكتب عادة لا يبرحونها ، ولا يستغنون
 عنها . (٤) : وكانت كما قال الشاعر :

أناي هواها قبل أن أعرف الهوى
 فصادف قلبًا خاليًا فتمسكًا (٥)

ويشير فني استشهاده بالأشعار المختلفة ، والأقوال في هذا الصدد فيقول :
 " ومن كلامهم : التلم في الصغر كالنقش في الحجر " ويورد أيضًا قول الشاعر صالح بن

(١) انظر الحيوان ج ١ ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) انظر نفسه ج ١ ص ٩٩ .

(٣) انظر نفسه ج ١ ص ٤٧ - ٤٨ ، وانظر رسائل الجاحظ ج ٣ ص ٢٧ - ٢٨ .

(٤) انظر الحيوان ج ١ ص ٤٠ .

(٥) نفسه ج ١ ص ٤٠ .

عبد القدوس :

" وَإِنْ مِنْ أَدَبَةٍ فِي الصَّبَا
كَالْعُودِ يُنْتَقَى الْمَاءُ فِي عَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مَوْقِعًا نَازِحًا رَأً
بَعْدَ الَّذِي قَدْ كَانَ فِي يُسَيْهِ "

ويورد أيضا قول شاعر آخر :

"مَيِّتٌ مِنْ مَيِّلِ الْغَلَامِ الْمُسَوِّدِ
وَلَا يَنْفَعُ التَّادِيْبُ وَالرَّأْسُ أَشَّيْبُ "

ولا ينسى الجاحظ دعابته وسخريته، فيورد قول شاعر آخر :

"وَتَلُومُ عَرَسًا، بَعْدَ مَا هَرَمَكْتَ
كَمِنْ الْمَنَاءِ رِيَاضَةُ الْمَكْرِمِ (١) "

فهو يهتف " اعتياد الراحة "، والركون إلى اللهو، والتشاغل باللعب، أشدّ المقت، لأن ذلك قتال للعقل، فتاك بالروح، ولهذا فلو تناسى الإنسان جميع ما للكتاب من فوائد، واستذكر أمراً واحداً فقط، وهو أنه يشغلك عن سخر المعنى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكسب ما أشبه اللعب، لقد كان على صاحبه أسبغ النعمة وأعظم المنفعة (٢) .

فالكتاب إذن ضرورة من ضرورات الحياة، وفي هذا المعنى يستشهد بالأقوال المختلفة للتدليل على أهمية الكتاب (٣) تحت عنوان " أقوال لبعض العلماء " في فضل الكتاب (٤) ومنها قول المهلب لبنيه في وصيته : يَا بَنِي لَا تَقُومُوا فِي الْأَسْوَاقِ إِلَّا عَلَى زُرَّادٍ أَوْ وَرَاقٍ . حيث يضع الاهتمام بالكتاب إلى جانب الاهتمام بآلة الحرب والقتال .

(١) انظر، الحيوان، ج ١، ص ٤٠ - ٤١ .

(٢) نفسه، ج ١، ص ٥٢ .

(٣) انظر، نفسه، ج ١، ص ٥٢ - ٥٤ .

(٤) نفسه، ج ١، ص ٥٢ .

(١) ومن الأمثلة الأخرى : "وسمعت الحسن اللؤلؤي يقول : غبرت أربعين عاما ما ملست ولا بيت ولا انكأت إلا والكتاب موضع على صدري" (١). بل انه يبلغ من شدة حرصه على الكتاب والعلم والثقافة العامة ومن شدة اصراره على الارتقاء بالعقل وبالنفوس وبالحنارة مبلغا أنه يدعو الناس الى عشق القراءة ، لأن محبة الشيء يعتبر المحرك الرئيسي للإقبال عليه ، والقراءة لا تأتي بالإكراه ، وإنما بالتحبيب والترغيب. فلا بد لنشر الثقافة من اقتناء الكتب ولا بد لاقتنائها ، من بذل المال عن طيب نفس في سبيلها ، يقول : فالإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد من أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ، ولا يجمع العلم ، ولا يختلف إليه ، حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألدّ عنده من الإنفاق من مال عدوّه . ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ، ألدّ عنده من انفاق عشاق القيان والمستهترين بالبنيان لم يبلغ في العلم مبلغا رخيصا . وليس ينتفع بانفاقه ، حتى يؤثّر اتخاذ الكتب إيثارا لإعرابي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الإعرابي في فرسه : (٢)

فطريق العلم والسبيل إليه إذن ، يكمن في القراءة أولا فالسمع ثانيا ، وأن يبذل الإنسان من حرّ ماله من أجل العلم فيقبل على شراء الكتب بصددرحب ، لا سيما أن الكتب في ذلك الزمن المزدهر ، المتقد نشاطا علميا وفكريا ، وأدبيا ، كانت رخيصة الثمن ، وفي متناول الجميع . فكان ذلك سببا من أسباب انتشار العلم والفكر .

ولعله بذلك ، يجيب عن مسألة ، دار النقاش حولها وطال ، واستمر حتى وقتنا الحالي ، تتمثل بالسؤال التالي : هل الثقافة ضرورة أم أنها مظهر من مظاهر الترف الاجتماعي ؟ ومن الواضح ، أنه يجدها ضرورة ، بل هي ضرورة ملحة أساسية لكل إنسان ، ولقد سبق توضيحه أن الاديب يتوجه إلى الناس كافة ، في كتاباته ، في موضع سابق من هذا البحث ، كما سبق عرضه لكيفية النهوض بالمجتمع فكريا وثقافيا ، ملقيا هذه المسؤولية على عاتق الأديب . فليتعد عن حوشي اللفظ ، وغريب المعنى وتكلفهما ، فيكون كلامه مفهوما ، وألفاظه

(١) انظر ، الحيوان ، ج ١ ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٥٥ .

كريمة ومعانيه شريفة ، كما يلقبها على عاتق الناس ، إذ عليهم أن يكثروا من القراءة ، ليدرسوا عقولهم على التفهم ، وأذهانهم على حسن التلقي ، ليرتقوا بذلك إلى مستوى الكتابة الأدبية العامة ، فتحقق بذلك الغاية الأولى من البيان وهي الفهم والإفهام . ولعل هذا الأمر يؤدى بانسان ، إلى الإقبال على التفقه في أمور دينهم ، وإن الإقبال على القراءة في كسل علم وفن ، والإلمام بصنوف المعرفة وضروبها ، ليساعد الناس على حسن التفهم لحقائق الدين . وليس تفهم العالم كثرة الجهل ، وبذلك يتقدم الفكر ويرتقي بالناس عامة ، لتتطور طرائقهم في التفكير في جميع مناحي الحياة ، إذ ليس الشعب المتطور فكريا ، الممسك بزمام التحضر ، ويقود بفكره العالم ، كالشعب المتخلف ، المنشغل بتفاهات الأمور ، المتمسك بقشور الحضارة لا بيوهرها ، فلا يستطيع أن يدرك كنه الحضرة ، ولا يقدر أن يتفهم سر التقدم ، ولذلك يرى الجاحظ ، أن خير الكتب وأفضلها على الإطلاق " كتب الله تعالى فيها الهدى والرحمة والإخبار عن كل حكمة ، وتعريف كل سيئة وحسنه وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف والمهاريق والمصاحف . وقال الله عز وجل (أَلَمْ نَكُ الْكِتَابُ لَارِيبَ فِيهِ)^(١) وقال (ما فرطنا في الكتاب من شيء)^(٢) ، ويقال لأفقه التوراة والإنجيل : أهل الكتاب^(٣) . وذلك لأنها تمثل فكر الأنبياء ، فلا وجود لحضارة أو أي شكل من أشكال التقدم البشري ، بلا فكر يرفده ، ويوجهه ويدفعه نحو الأمام . ولقد رأينا ما نعمل الفكر الإسلامي بأمة العرب حيث ارتقى بها ودفعها إلى أعلى درجات الحضارة الإنسانية ، فقاتت العالم كله روحا من الزمن ، حين كانت الأمة العربية الإسلامية ، أمة علم وجوعهر ، لا أمة قشور ومظهره ، كما آلت إليه في وقتنا هذا .

(ولعل خير دليل على أهمية الكتاب والقراءة ، تكرار ذكر الكتاب ولوازمه كالقلم والحبر على القراءة في القرآن الكريم ، فيستشهد بما تيسر له من الآيات القرآنية في هذا الصدد .^(٤) مثل قوله تعالى (يَا قُرْآنُ أَرَأَيْتَ إِنْ كُنَّا نَحْمِلُ غَلَّكَ)^(٥) . وقوله تعالى : (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)^(٦) .

(١) البقرة ١ - ٢ . (٢) الانعام ٣٨ .

(٣) الحيوان ١ ج ١ ، ص ٨٦ ، وانظر رسائل الجاحظ ١ ج ١ ، ص ٣١٦ ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ .

(٤) انظر الحيوان ١ ج ١ ، ص ٤٢ ، ٤٨ ، ٦٢ ، ٩٧ .

(٥) العلق ٣ - ٤ . (٦) القلم ١ .

وقد ساء الجاحظ أن يظن بعضهم مثل إبراهيم بن السدي أن إسراف الزنادقة في بذل المال لهدف إخراج كتبهم في أحسن صورة ، وأنهم حرصا على انتقاء أجود أنواع الورق ، والجبر ، والتفنن في الخط^(١) أن يكون ذلك "دليلا على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليل على شرف النفس ، وعلى السلامة من سكر الاوقات ."^(٢)

فيرد على هذا التوهم ، بأن الزنادقة لا يبذلون الأموال في سبيل العلم ، وإنما ينفقونها على كتب ديانتهم وحسب ، شأنهم في ذلك شأن النصارى الذين ينفقون أموالهم على صلبان الذهب ، وشأن المجوس في إنفاقهم على بيوت النار . . . وذلك ممن قبيل "الديانة" . و على طريق تعظيم الملة " لا غير . والدليل على ذلك ، أنهم لا ينفقون الأموال في تأليف الكتب في العلوم المختلفة أو شرائها ، أو تنقيتها ، وإنما حصروا حرصهم هذا على كتب ديانتهم وحسب . ولو أراد المسلمون لصنعوا أحسن من ذلك ، بعنوية ودون تكلف ، إذا وجدوا في ذلك زيادة في التبسط والخشوع^(٣) .

ومن هذا الحديث ، عن الزنادقة يتجلى ما كان يتمتع به المجتمع الإسلامي ، في ذلك العصر ، من حرية فكرية ، أتاح المجال لكل الفرق والاتجاهات السماوية والوثنية ، للبروز والتعبير عن نفسها ، فحتى الزنادقة ، وهم أعداء الإسلام ، كانوا يتمتعون بحرية التعبير والفكر ، بدليل أنهم كانوا يقفون للمناظرة ، أمام علماء المعتزلة ، ومن بينهم الجاحظ الذي وقف في وجههم ، سدا منيعا ، يوقف كل محاولاتهم للنيل من الإسلام ، فتصدى لهم بالفكر والمنطق ، لا بالسيف ، وقطع الرقاب . ولعل أكبر دليل على هذه الحرية التي منحست إليهم ، في عهده ، عهد مجد المعتزلة ، أن توفر المال اللازم بين أيديهم ، مما أتاح لهم فرص تحسين كتبهم وتزيينها ، ولو كانوا منوعين من حرية التفكير والتعبير عن آرائهم ، لما استطاعوا إبداء هذه المبالغة في العناية بكتبهم ، وإلى هذا الحد ، وعلى هذا النحو .

(١) انظره الحيوان ج ١ ص ٥٥ .

(٢) نفسه ج ١ ص ٥٥ — ٥٦ .

(٣) انظر نفسه ج ١ ص ٥٦ .

ويبلغ شغفه بالكتاب ، أن يفنائه على مؤلفه ، فيحتج على ذلك ، بقوله : إن الكتاب ينقل أفكار الكاتب ، إلى الناس جميعهم ، في كل زمان ومكان ، فيخلد لها ، غير القرون والعصور في حين يفنى المؤلف ، ويذهب عقله ، ليبقى أثره مخلداً بين صفحات كتبه . وهنا مكمّن التطور الحضاري ، ويظهر أثر السلف في تطور الخلف ، إذ لولا كتبهم التي سطروا بسين طياتها أفكارهم وعلومهم ، وآثارهم ، لانقطع الإنسان عن ماخيه ، ولعلّ نخلة من الحكمة وسببه إلى المعرفة ، وفي ذلك أعظم الخطر على الإنسان وعقله وتطوره ، فكك حضارة تجمع إلى قليلها ، كثير من سبقاتها من حضارات الأمم الماضية تفيد منها ، وتعلمها ، لتضيف عليها ثم يبنّى حضارة جديدة ، فتأخذ ما جمعت سابقاتها وأغاثته ، لتضيف بدورها جديدها وهكذا تتكون الحضارات الواحدة تلو الأخرى ، وتتطور الإنسانية .^(١) ولقد سار الجاحظ نفسه على هذا النهج ذاته ، مستفيداً من علم سابقيه ، ليضيف جديده . ولعلّ أبرز دليل على ذلك ، استشهاد المكثر ، بأقوال صاحب المنطق "أرسطو" مستشهداً بأقواله تارة ، ومفتداً بعضها تارة أخرى . . .

من جهة أخرى ، فإن الكتاب يفضل مؤلفه ، لأن الإنسان ، لا يجد في كل وقت معلماً ذا صبر واتقاد ، يتقنه ويعلمه ، فإذا كانت عملية التعليم هذه ، شديدة وطوياً على المعلم ، فإن مقاومة الرغبة في مخالفة العالم ومناظرته أشد . فإذا لم يجد المرء المعلم السذي يتحلى بسعة صدره فعليه بالكتاب الذي هو سبب العلم والتعلم ، والمحرك للهمم ، المشجّع على العلم والأدب ، والانتفاة من الجهل والخمول . إذ لولا الكتب لعَمّ الجهل ، ولساءت الحال ، ولأصابت الناس مضرة عظيمة ، لا دواء لها ، فالعلم سبب للسيادة والعلو ولا يتأتى ذلك إلا بالقراءة المستمرة ، ودوام مطالعة الكتب .^(٢)

ولذلك فهو ينتقل إلى الحديث عن "فضل القلم" .^(٣) كما يتحدث عن نعمة اليد التي تسطر بالقلم ، مبيّناً منافعها ، ومتطرقاً إلى الحديث عن وسائل البيان^(٤) ، ليختتم

(١) انظره الحيوان ، ج ١ ص ٨٥ — ٨٦ ، وانظره رسائل الجاحظ ج ١ ص ٣١٦ — ج ٤ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .

(٢) انظره الحيوان ، ج ١ ص ٨٧ .

(٣) انظره نفسه ، ج ١ ص ٤٨ — ٤٩ .

(٤) انظره نفسه ، ج ١ ص ٤٩ — ٥٠ .

(١)

حديثه بهذا بقوله : " . . . وإنما قصدنا بكلامنا إلى الإخبار عن فضيلة الكتاب . " هذا بالإضافة إلى فائدته الإعلامية ، وفي عصر الجاحظ ، إذا عرف الناس بوساطته أخبار غيرهم من سكان المدن الأخرى ، يقول : " وما يدل على نفع الكتاب ، أنه لولا الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرقة والعصل وبغداد وواسط ، ما كان بالبصرة وما يحدث بالكوفة فسي بيأس يوم ، حتى تكون الحادثة بالكوفة غدوة فتعلم بها أهل البصرة قبل المساء . " (٢) مما يبين كيفية تنقل الأخبار ، في ذلك العصر ، من مدينة لأخرى .

فهذا الحديث المطول عن منافع الكتاب ، وفوائده ، وكونه ضرورة كقوت الإنسان اليومي ، إذ ينبغي له أن يغذي قلبه وعقله ، كما يغذي جسده ، وإنما هي دعوة حارة ، وإغراء لكل ذي لب ، لأن يقتني الكتب ، وأن تصبح القراءة جزءاً من حياته اليومية ، لأن الكتاب هو أعظم هدية حظي بها الإنسان ، فهو اختراع من الله تعالى ، ومنحنا إياه ، ودلنا عليه وأخذ بثوابينا إليه . " (٣)

-
- (١) الحيوان ، ج ١ ، ص ٥٠ .
 (٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٩٦ - ٩٧ .
 (٣) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

تأليف الكتاب :

بعد هذا العرض المطول ، لأهمية الكتاب ، ينتقل الجاحظ إلى الحديث عن عملية التأليف ، موجها الأدباء والكتاب بعامة ، إلى الخطوات التي ينبغي لهم أن تكون نتسبب أعينهم ، أبان انهماكهم في التأليف ، وذلك بعد خبرته الطويلة المتعدة في هذا المجال :

ولعل أولى هذه النصائح ، هي أن يفترض الكاتب وهو مكب على تأليف كتابه ، أن الناس جميعاً أعداء له ، عالمون بموضوعه الذي يكتب فيه ، متفرغون له ، ينتظرون منه سقطة أو خطأ ما ، ليشنوا عليه حرباً بلا هوادة فيها ، فإذا فكر على هذا النحو ، كان متيقظاً ، حريصاً فيما يكتب ويؤلف ، مستعداً للإجابة عن أي سؤال يطرح عليه ، قادراً على الدفاع عن نفسه أمام النقاد ، وأمام خصومه ، فيتجنب بذلك السدود ، واستعجال الرأي الذي يكثر فيه الغلط .^(١)

والنصيحة الثانية ، فيدعو فيها المؤلف إلى إعادة النظر فيما يكتب ، لأنه حين يبتدئ كتابه ، يأخذه الإعجاب به ، ولكن حين تهدأ نفسه ، ويعود إليه رشده ، ويصفو عقله ، فإنه يجيل النظر فيما كتب ، متوقفاً عند كل فصل من فصول كتابه ، وأبواب من أبوابه ، وقسوف الخائف من الوقوع فيما قد يعيب كتابه ، من فاحش الزلل ، أشد من وقوف الطامع في النجاة من الخطأ ، لأنه بذلك يحاسب نفسه في كل حرف يخطئه ، وكل كلمة يكتبها ، لكيلا تلسعه ألسنة النقاد اللاذعة ، فيظل في خشية منهم ، وخوف من أن تكون سيرته معهم ، سييرة من ساروحيدا بفرسه ، أو اختلى بعلمه ظاناً أن لا خصوم ، ولا أنداد له " من أهل صناعته " فيعرض نفسه لما هو في غنى عنه ،^(٢) فينبغي للمؤلف إذن " أن لا يتكل على عجز الخصم ، وأن لا يعجب بظهوره على من لا حظ له في العلم . " ^(٣)

(١) انظر الحيوان ج ١ ، ص ٨٨ .

(٢) انظر نفسه ج ١ ، ص ٨٨ . وانظر رسائل الجاحظ ج ٤ ، ص ٩٧ ، وانظر نفسه ج ١ ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(٣) رسائل الجاحظ ج ٣ ، ص ٢٩٩ .

(١) والنصيحة الثالثة ، أن يبدأ المؤلف بالأوضح والأقرب ، وبالأصل قبل الفرع ، والعبرة من هذا الترتيب ، هي أن الفرع عادة ، يعتمد على الأصل ، فإذا بدئ بالأصل أولاً ، فإن المعاني تظل على درجة سواء من الإفهام ابتداءً بالأصول ، وانتهاءً بالفروع ، فلا يقع التباس أو غموض على القارئ لأشد حين يفهم الأصل ، فإنه بالضرورة سوف يفهم الفرع ، وليس الأمر كذلك ، إذا عكس التركيب ، وابتدأ المؤلف كتابه بالفرع قبل الأصل . (١) وهنا تبرز أهمية الدراسة الفلسفية المنطقية ، حيث إنها تدخل في صلب العلم ، وفي جوهر غايته من الفهم والإفهام ، إذ تشرف على ترتيب المؤلف ، لأفكاره ومن ثم نقلها إلى القراء لتحقيق الغاية المرجوة ، ويعود نفعها على الجميع ، وكل كلام أُبني على فرعه ، ولم تخبر عن أصله ، فهو خداج (٢) لا غناء عنده ، وراهب لا ثبات له . (٣) وقد نرى كثيراً من المؤلفين لا يتمون بهذا الترتيب المنطقي ، فينكبون على التأليف ، دون تمييز بين الأصول والفروع . (٤) ويريد بذلك أن مثل هؤلاء المؤلفين ، ينشغلون في الجزئيات والفروع ، بدلاً من أن يتجهوا إلى القضايا الأساسية ، والأصول ثم يندرجون من خلالها إلى معالجة الفروع وما يترتب عليها .

(١) والنصيحة الرابعة ، أن يحرس المؤلف أشد الحرص على الإتيان بالحجج المنطقية التي تعجز خصومه ومناظريه ، وتفهمهم ، فلا يكفي " بكشف قناع الباطل " وإضعافه ، بل يقتلعه من جذوره ، ويبطل حججه (٥) ، مما يدل على أن الجاحظ لا ينزع إلى مجتهد الإصلاح ، وإنما هو من أنصار التفسير الجذري . مثل الباطل في ذلك كمثل الشجرة ، فليست تصلح ويستقيم أمرها بمجرد إصلاح شأن فروعه ، لأن جذورها الفاسد ، هو الذي يغذي تلك الفروع ، فلا بد إذن من اقتلاع الشجرة من جذورها .

- (١) انظر رسائل الجاحظ ج ٣ ص ٢٩١ .
 (٢) وفي الحديث: كُلُّ صُلَاحٍ لَا يُقْرَأُ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ ، فَهِيَ خَدَاجٌ ، أَوْ نَقْصَانٌ . . .
 الأصمعي : الخداج النقصان ، وأصل ذلك من خداج الناقة إذا ولدت ولدا ناقص الخلق أو لغير تمام . لسان العرب (خدج) .
 (٣) رسائل الجاحظ ج ٤ ص ٦٥ .
 (٤) انظر نفسه ج ٣ ص ٢٩٩ .
 (٥) انظر نفسه ج ١ ص ٣١٤ .

والنصيحة الخامسة ، أن ينوع المؤلف في أسلوبه ، فلا يكون كتابه كله جذاً ، ولا كله هزلاً ، فكانت هذه السمة ، تميز منهج الجاحظ في كتبه ، فينتقل من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، وذلك لأن من طبيعة الإنسان ، أنها تمل الشيء مهما حسن وأطرب ، إذا طال ذلك عليها ، شأنها في ذلك شأن الراحة التي لا يعقبها العمل ، فتطاول ليعتادها العقل ، فتذهب فطنته ، وإذا كانت هذه سيرة الأولين في تأليفهم الصغيرة ، فما بالناس بالتأليف الكبيرة التي تثقل على القاري ، إذا طال فيها الجد ، والغاية أولاً ، وأخيراً من هذا المنهج ، هي الإفادة والإفهام .^(١) ولكن ذلك لا يعني أن يخرج الهزل عن حده ، وإلا تحول إلى السخف ، وأعرض عنه من يبتغي الفائدة الجادة ، ولكل أمر حدة ، الذي لا ينبغي أن يتعداه ، ولكل مقام مقال ، وعلى أن الكتاب إذا كثرت عزله سخف ، كما أنه إذا كثرت جده ثقل . وهذه هي القاعدة التي ينبغي للمؤلف أن يسير عليها ، فالإفراط في كل شيء مذموم^(٢) فهو إذن يدعو المؤلف إلى مراعاة الحالة النفسية للقاري ، فلا يشغل عليه بالكلام الطويل الجاد ، لأن في ذلك أعظم الخطر ، حيث يمتنع التواصل ، بين المؤلف والقاري ، بابتعاد الثاني عن الاقبال على قراءة كتب الأول ، فيسود الجهل الذي يحطم الأمانة بأكملها ، وكذلك الأمر إذا طال عليه الكلام الهازل ، حيث يفقد الإحساس بأهمية الكتاب ، ولا يجد ضالته المنشودة من الكلام الحكيم ، والعلم الصحيح والمنطوق الصائب . . . فيعرض عن الكتاب وعن القراءة ، ليفقد تدريجياً هذه العادة ، الضرورية ليعض في غياهب الجهل .

وأخيراً يقول مطبقاً هذا المنهج " ولا بد للكتاب من أن يكون فيه بعض ما ينشط القاري ، وينبغي للناس عن المستمع . فمن وجد في كتابنا هذا بعض ما ذكرناه ، فليعلم أن قصدنا في ذلك إنما كان على جهة الاستدعاء لقلبه ، والاستمالة لسمعه وبصره . والله تعالى نسأل التوفيق . " ^(٣) فعلى ضوء التحليل النفسي للقراء ، يؤلف الجاحظ كتبه ، فإذا كانت الغاية الأساسية ، هي الفهم والإفهام ، والتأثير في الناس ، فلا بد إذن من

(١) انظر الحيوان ج ٣ ص ٥٧ وانظر رسائل الجاحظ ج ٣ ص ١٥٣ .

(٢) انظر رسائل الجاحظ ج ٣ ص ١٥٣ .

(٣) نفسه ج ٣ ص ١٥٣ .

استمالتهم بكل ما يملكون من جوارح ، بأفئدتهم وأبصارهم وأسماعهم ، ولذلك ، فهو يدعو
الكتاب إلى السير على خطاه . واحتذاء حذوه ، حتى تعم الفائدة ، ويسود العلم ، وما
غایتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيرا . (١)

(والنصيحة السادسة ، أن يضع الأصل بإحكام ، وبجميع جوانبه ، فالأصل هو قوام الكتاب ،
ونظامه ، إذ عليه تعتمد الفروع ، وفي ذلك صلاح الكتاب ، إذ أن المؤلف لا يستطيع استقصاء
كل فكرة وحصر كل ما يتصل بالموضوع الذي هو في صدره ، فهذا ما لا يمكن الواضع ولا يحتفل
الكتاب ، ولو أن هذا الاستقصاء ، كان ممكناً ، لطال الكتاب إطالة تشق على النفس ، وتورث
النعاس ، وتذهب بالنشاط ، إلا لمن صحت إرادته ، وأفرطت شهوته وقوي طبعه ، وحسن
احتسابه . (٢) وهذه سمة القلة القليلة من أرباب العلم ، وذوي الألباب . ولذلك كسان
في إحكام الأصول ، ما يغني عن استقصاء الفروع ومحاولات حصرها ، إذ ليس بإمكان المؤلف
أن يأتي عليها جميعاً ، وهذا هو أساس المنهج العلمي السليم في الأبحاث والمؤلفات
المختلفة . (٣)

(والنصيحة السابعة ، أن يكون المؤلف عالماً بمعتقدات خصه وحججه وخفايا اتجاهاته
... حتى ليظن القارئ ، إذا ما اكتفى بقراءة عرض المؤلف لآراء خصه ، أنها آراء
المؤلف نفسه ، من شدة علمه بها ومعرفته بأمورها . (٤) وهذا بسبب من الاعتزال ، الذي
يدفع العالم إلى البحث عن المعرفة ، بجميع جوانبها ، وتلقي العلم بمختلف فروعه . فضرب
بذلك علماء المعتزلة المثل ، باتساع العلم والمعرفة حيث كانوا يدرسون مبادئ الفرق المخالفة
لفرقتهم ، والديانات المخالفة لديانتهم ، ويطلعون على مختلف علوم عصرهم وآدابه وفنونهم ،
حتى وصفت ثقافة الواحد منهم بأنها " موسوعية " . ولعل خير دليل على ذلك ، كتب
الجاحظ التي بين أيدينا ، حيث تثبتنا عن عقل موسوعي المعرفة ، وذلك نادر الوجود . (٥)

(١) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٧ .

(٢) انظر الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، العثمانية ، تحقيق عبد السلام هارون ، مصر
١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م / ص ٢٧٩ .

(٣) نفسه ، ص ٢٨٠ .

(وأما النصيحة الثامنة، وهي آخر هذه النصائح، فهي أن يبتعد المؤلف عن الصنعسة والمبالغة في استخدام المحسنات اللفظية، والإعجاب بالنفس و... وما إلى ذلك مما يراه مذموماً في الأسلوب، وحذر من الوقوع في برائته غير مرة، وفي مواضع متعددة، فينبغي للكاتب إذن أن يتسم أسلوبه بالسهولة والوضوح، والسلامة، فينسب أسلوبه طبيعياً غير معقد ولا غامض، ليحتذي بذلك أسلوب السابقين الخالي من الصنعة اللفظية، والتعقيد^(١) فهو يستمد أدلته من التراث والتاريخ، لأنه الرافد الذي يغذي الحاضر والمستقبل، فالكاتب الناجح، هو الذي يستفيد من تجارب الماضين، ليطور أسلوبه ويجدد فيه.

هذا، وينبغي للمؤلف أن لا يدهش من نفسه، إذا وجد أنه قد تجاوز في كتابه المقدار الذي قدره قبل بدئه بالتأليف، يقول مشبهاً المؤلف بالمؤدب: "وليعلم أن صاحب القلم يعثره ما يعثر المؤدب عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة ١٩ لأنه ابتداء الضرب وهو ساكن الطباع، فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه، فأشاع فيه الحرارة، فزاد في غضبه، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار". وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يبتدي الكتاب وهو يريد بمقدار سطرين، فيكتب عشرة! ^(٢) والجاحظ بذلك يدخل في التحليل النفسي للمؤلف إبان انهماكه في الكتابة والتأليف، فالأفكار تتداعى وتتواصل وتتولد، وكل واحدة منها تجر أخرى، وكل رأي يدعو آخر، فينشط الكاتب، ويتفتق ذهنه عن نظريات وتحليلات وفكر جديدة لا بد من وضعها في كتابه، ليجد أنه قد قطع شوطاً بعيداً في كتابه، وأنه قد سار فيه سيراً طويلاً، وحين ينتهي منه، يكشف أنه أضخم مما تصوره قبل ابتدائه. وربما أن هذا هو السبب في أسلوب الاستطراد الذي يميز أسلوبه بشكل عام، فالعلوم كثيرة والمعارف واسعة، والنظريات فنية والأفكار جديدة، كل ذلك لا بد من تربيته أولاً، ومن ثم كتابته، فيبدأ حديثه بالموضوع لتبدأ الأفكار والمعاني بالتداعي الواحدة تلو الأخرى، فقد تعن له فكرة جديدة، من كلمة يكون قد كتبها ويستذكر بيت شعر، أو حديثاً نبوياً أو آية أو قولاً، ليستنبط من

(١) انظر، رسائل الجاحظ، ج ٤، ص ٢٥٣ — ٢٥٤.

(٢) الحيوان، ج ١، ص ٨٨ — ٨٩.

هذه الأمثلة أفكاراً جديدة . . . وهكذا يكبر الموضوع ويخرج عن الأساس ليعود إليه ثانية بعد إشباع الرغبة في كتابة الأفكار الجديدة والأمثلة التي خطرت له وتولدت في أثناء الكتابة في الموضوع الأساسي . وهذه التجربة الطويلة في التأليف والكتابة جعلته يقف على كل عقبة قد تواجه المؤلف ، وكل أمر قد يحترق فيه ، فيطمئن الكاتب بأن ما يحدث معه ، يحدث مع غيره من المؤلفين ، فلا يعجب ، إذا وجد نفسه قد كتب ما لم يكن في الحسبان ، لأن ذلك دليل على ختوبة العقل ، وغنى الأفكار وسعة العلم .

وبعد انتهاء المؤلف من كتابه ، تأتي المرحلة التالية ، وهي مرحلة مراجعة الكتاب ، وإعادة قراءته والنظر فيه ، وفي ذلك مشقة كبيرة ، إذ يضطر إلى إصلاح لفظه ، أو توضيح إعجامها ، أو إعادة كتابتها إذا سقطت . . . حتى يستقيم الكلام ، ويتصل ويتسلسل ، فيكون إنشأ عشر ورقات من حر اللفظ وشريف المعاني ، يسر عليه من إتمام ذلك النقص ، حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام ^(١) . فمثل التأليف ، كمثل البناء ، حيث الكلام يرتبط ببعضه ببعض ، والأفكار تتوالى ، والفروع تبني على أصولها . . . وهكذا يتكون البناء الفني ، من حيث الشكل والمضمون ، فإذا ما أعيد النظر فيه مرة أخرى ، فأضيفت ألفاظ ، وأزيلت أخرى ، واختلف ترتيبها . . . فإنه لا مفر من أن يطرأ ، بعض التغيير على تركيب الأسلوب ، وهنا تكمن الصعوبة ، في سد الثغرات ، بحيث لا يختل البناء الفني العام ، والتدرج المنطقي للمضمون .

فإذا كان المؤلف نفسه ، يجد في تصحيح كتابه كل هذه المعاناة ، فما بالنا بالوراق الذي استؤجر لهذا الغرض ! عندئذ يقع الضيم على الكتاب ، حين تتداوله أيدي الوراقين الواحد تلو الآخر ، ليغير كل منهم في الكتاب ويبدل ، ليغدو كله خطأ وكذبا ، هذا عند الاكتفاء بنسخ الكتاب وتصحيحه ، وقياساً على ذلك فإن القارئ ، يستطيع تصور ما قد يصير إليه الكتاب حين يترجم ، فيصير من فساد الوراقين ، إلى فساد المترجمين ، ليتعظم الخطأ ويتضاعف الفساد ^(٢) .

(١) انظر الحيوان ، ج ١ ، ص ٧٩ .

(٢) انظر نفسه ، ج ١ ، ص ٧٩ .

بعد هذا العرض، لما يلاقى المؤلف، من الكد والتعب، والمعاناة والاجهاد، لكي يخرج كتابه في أحسن صورة، وأبهى حلة، لا يجد الجاحظ بداً، من إجراؤه مقارنة ما بين الولد والكتاب،^(١) فهو من شدة شغفه بالكتاب، فلقد وصل به شغفه وولعه، حد تفضيله على الابن، معللاً هذه الفكرة الغربية، بأن الكتاب يحدثه الإنسان بإرادته. فالكتاب، إبداع الإنسان، وهو الذي أوجده بعد أن لم يكن موجوداً، فالفاظه ومعانيه وحركاته... كل ذلك، من هذا القبيل. أما الابن فهو نصيب الإنسان، يأتي دون إرادة حقيقية منه، أي لا يبدع الإنسان الإنسان، ولكنه يبدع ألفاظه ومعانيه وأفكاره بين طيات كتابه.^(٢) ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره، وفتنته بكلامه وكتبه، فوق فتنته بجميم نعمته.^(٣)

فكان كتابه ملاذه الأول والأخير، فصرف نفسه وقلبه وعقله، إلى البحث والدرس، والكتابة والتأليف، والمناظرة والمجادلة، فكان إبداعه صورة عن ذكاء عقل، ونباهة متميزة، وعق في التفكير، وملكة نادرة، وصبر جبار استطاع به أن يجتاز المآسي التي وقفت في طريق حياته الطويلة، كال فقر في بدايته، والعرض المضني في أخرياتهما فلم يتنسه عن الاستمرار في التأليف، والعطاء الفكري والأدبي، حتى آخر رفق من حياته.

ولذلك، يخشى على كتبه خشية الإنسان على ولده، ويحرص عليها لكيلا، يعمل فيها الحسدة، والجهلة، أقلامهم، ليلبدلوا فيها ويغيروا ويحرفوا منها، فينتقصوها، ويزيلوها عن جهتها، لكي يسيئوا له وينالوا منه، فيتقولوا عليه الأقاويل، وينسبوا له ما لم يقل. ولذلك كان يعمل من كتابه حين ينهي، عدة نسخ، ليفرقها على "الثقات والمستبصرين الذين كانوا في هذا الشأن"، ثم كَتَمُوا ذلك بالعزلة والتوبة منه، كصالح ابن أبي صالح، وكأحمد بن سلام، وصالح مولى رشيدة. "ل تكون هذه النسخ المتعددة

(١) انظر الحيوان، ج ١، ص ٨٩.

(٢) انظر نفسه، ج ١، ص ٨٩.

(٣) نفسه، ج ١، ص ٨٩.

المرجع غير المحرف^(١)، "فان شيب به شوب يخالفه"، وأضيف إليه ما لا يلائمه، رجعنا إلى النسخة المنصوبة، والأصول المخلدة عند ذوي الأمانة والثقة، واقتصرنا عليها، واستعلينا بها على المبطلين، ودفعنا بها إرغال المدغلين، وتحريف المحرفين، وتزييد المتزيدين، إن شاء الله. " (٢) وبهذه الطريقة المبتكرة، ينعكس كل مزور، ويردع كل حاقد حاسد، فينام قرير العين، لأن كتابه الذي كابد من أجله ما كابد، وعانى في سبيله وجاهد، في مأمن من التزوير والتغيير، ومعزل عن التحقير والتشهير، حيث الأصول في أيد أمينة، فإذا دخل كتابه تحريف ما فإن الأصول تفضحه، وتنتصر للجاحظ وفكره، ممن أراد النيل منه.

والطريقة الثانية في حفظ الكتاب، هي جمع أوراقه بين دفتين من الجلد، لصونها من التشتت، والضياع والفرقة، فيجمع الشكل إلى شكله، والشبيه إلى شبيهه. "فإن التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسناً، والاجتماع يحدث للمساوي في الضعف قوة. فإذا فعلت ذلك صرت متى وجدت بعضها فقد وجدت كلها، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها، فإن نشطت لقراءة جميعها مضيت فيها. " كما أن هذا الجمع والتأليف، يختصر من الوقت والجهد الكثير الكثير في البحث عن الفكرة التي يريد ها، أو الموضوع الذي يبتغيه، فيسدي الجاحظ بهذه النصيحة، على لسان محمد بن عبد الملك الزيات، ولعل في قوله " سمعتك وأنت تريدني " إشارة إلى أنه كان يدع أوراقه متفرقة غير مجمعة، فيدعوه ابنن الزيات إلى جمع الأوراق في دفاتر، وعدم تفريقها، وإهمالها، لكي يسهل على المؤلف قراءتها وحفظها من الضياع، وتوفير الوقت، في البحث عما يريد منها، وقد أخذ الجاحظ بهذه النصيحة، فعمد إلى جمع أوراقه، وترتيبها في دفاتر، وتغليفها بالجلود الثمينة^(٣).

والجاحظ، كاتب يحترم نفسه، والفن الحقيقي، ينطلق في حريته، انطلاق الطائر في سماءه، ليخلق في أعاليها، ولذلك فلقد هجر الوظيفة، من أجل الانقطاع إلى العلم والأدب والفكر، والدرس والبحث والتأليف، لأنه علم أن الوظيفة تقيد الكاتب، فتقتل الحرية، وتجهز على الإبداع، لتنشب الموهبة يوماً بعد يوم، كالجسم الذي ينخر المرض في عظامه، ليموت.

(١) انظر رسائل الجاحظ، ج ٣، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) نفسه، ج ٣، ص ١٣٦.

(٣) انظر نفسه، ج ١، ص ٢٤٦ - ٢٤٨.

بيطه ، وهكذا تغدو الوظيفة ، برتابة أعمالها ، وتشابه أيامها ، وسيلة للمعيشة ، وقتل الوقت ، فتقضي على النشاط الذهني والفكري للكاتب المبدع ، فتقتل فيه شرقتلة !

ولذلك ، فهو حين يتحدث عن الكتاب ، وينشيء رسالة في ذمهم ، فهو يقصد بهم تلك الفئة ، التي تمتلئ الكتابة ، وتتكسب بها ، فهو لا يكتبون أفكارهم ، بل ينسخون أفكار غيرهم ، ولا يعبرون عن أنفسهم ، بل يعبرون عن الآخرين . ولذلك فقد تحولوا إلى أخلاق العبيد . وهذا الضرب من الكتابة " لا يتقلدها إلا تابع ، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم . ولم نر عظيما قط تولى كفاية نفسه ، أو شارك كاتبه في عمله " ، وهذا ولا يملك الكاتب من أمره شيئا ، فعليه إذا أراد زيادة في معاشه ، أن يشتكي إلى سيده ويستزيده ، ولا يحق له أن يترك سيده الذي يكتب له ، متى شيا ، وأراد ، أو اذا وجد أنه قد مال عن الطريق الصحيح ، ولذلك " فأحكامه أحكام الأرقاء ، ومحلّه من الخدمة محلّ الاغبياء " . (١)

ولهذا ، فقد كان السيد الشريف ، يترفع عن الكتابة بيده ، ويتفاخر برداة خطه ويعمد إلى تقبيحه اذا كان حلوا . . . (٢)

ويبلغ مقتله وبغضه لهذه الفئة المذكورة ، المدعية للعلم ، المزهوة بنفسها فينعتهم بقوله : " خَلَقَ حُلوة ، وشَمَائِلُ معشوقة ، وتَظَرُّفُ أهل الفهم ، ووقارُ أهل العلم ، فان أقيمت عليهم الإخلاص وجدتهم كالزبد يذهب جفاء ، وككتبة الربيع يحرقها الهميم من الرياح ، لا يستندون من العلم إلى وثيقة ، ولا يدينون بحقيقة ، أخفر الخلق لآماناتهم ، وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم ، الويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون " . (٣)

فكان ظاهريهم مكذبا لباطنيهم ، ومظهرهم مخالفا لحقيقتهم . فهو حائق عليهم أشد الحنق ، إذ لا أخلاق تحكمهم ، ولا مبادئ توجههم ، يبيعون شرفهم بالثمن البخس !

(١) . انظر رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) . انظر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

(٣) . نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٩ .

ولهذا ، نزه الله تعالى ، نبيه عن الخط والكتابة ، وترفع عنها السادة والقادة وذوو الشأن والمكانة . (١)

وكل ذلك ، يوضح لنا الصورة الاجتماعية ، التي كان عليها الكاتب ، والذي يقصد به الخطاط ، أو الناسخ . فالمبدع يلقي ، والكاتب ينسخ ، ولعل هذه المقتطفات القليلة ، تدل على أن رسالته في " ذم أخلاق الكتاب " (٢) إنما يقصد بهم هذه الفئة من الناس ، وليست كما قد يظن بعض الناس أنه يذم الكتاب بمعنى المبدعين في فن النثر ، كما هو متعارف عليه في عصرنا الحاضر ، ويفسرون ظنهم ، بأن أسلوب الجاحظ يمدح الشيء ، ويذمه في الوقت نفسه لإظهار براعته الفنية . وليس هذا يريد ، ولا إليه ذهب ، ولا يسمح المجال بتفصيل ما جاء في رسالته تلك ، في هذا الموضع ، ولذلك فقد اكتفي بهذه الأدلة القليلة ، التي توضح أنه إنما يذم الفئة المتكسبة بمهنة الكتابة ، وذلك لدفع الوهم في أنه يقصد ذم الكتاب المبدعين . إن جاز التعبير - إذ كيف يذمهم وهو واحد منهم ، بل هو رئيسهم !

وبعد هذا التبرير على المتبنين للكتابة ، لتوضيح اللبس الذي قد يقع في تعريف كلمة " الكتاب " التي عنوان بها رسالته في ذمهم . يختتم هذا الفصل ، بحديث للجاحظ عن قيمة الكتاب العظيمة ، وميزة وراثته ، معتبرا إياها ، كنزا من الكنوز ، فيقول : " ووراثه الكتب الشريفة ، والأبواب الرفيعة ، مثبته للمورث ، وكنز عند الوارث ، إلا أنه كنز لا تجب فيه الزكاة ، ولا حق السلطان . "

وإذا كانت الكنوز جامدة ، ينقصها ما أخذ منها ، كان ذلك الكنز مائعا يزيد ما أخذ منه ، ولا يزال بها المورث مذكورا في الحكماء ، ومنوها باسمه في الأسماء ، وإماما متبوعا وعلمنا منصوبا . فلا يزال الوارث محفوظا ، ومن أجله محبوبا ممنوعا ، ولا تزال تلك المحبة نامية ، ما كانت تلك الفوائد قائمة ، ولن تزال فوائدها موجودة ما كانت الدار دار حاجة ، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر ، ما كان من فوائدها على الناس أثر . (٣)

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) انظر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٨ - ٢٠٩ .

(٣) الحيوان ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

ب - تجويته في التأليف :-

لقد عاش الجاحظ ، سنين طويلة ، عامرة بالعطاء الأدبي والفكري ، إلا أن مرّ العصور وتقادّم الزمن ، وتعاثب الحقب ، أسدل الستار على كتب كثيرة ألفها ، ورسائل عديّدة أنشأها ، فاخفت وضاعت ، ولم يسلم منها سوى الكتب التي بين أيدينا ، والتي نجت من حوادث الدهر ، وكوارث التاريخ .

ومن حسن الحظ ، فإنه يذكر أسماء بعض كتبه الضائعة ، مما يقدم لنا فكرة عنها ، إذ إن عناوينها تدل على موضوعاتها ، من مثل كتبه في موضوع " الإمامة " ، حيث يقول : " ولما قرأ المؤمن كتبي في الإمامة فوجدها على ما أدر به " وصرت إليه وقد كان أمر اليزيدي بالنظر فيها ليخبره عنها (١)

وقد وصف المؤمن ، كتابه هذا ، بقوله " وهذا كتاب لا يحتاج إلى حضور صاحبـه " ولا يفتقر إلى المحتجين عنه ، قد جمع استقصاء المعاني واستيفاء جميع الحقوق ، مع اللفظ الجزل ، والمخرج السهل ، فهو سوقي ملوكي ، وعامي وخاصي . (٢) فهذا الوصف ، وهذه السمة التي رآها في كتبه لتوضح توجه الجاحظ ، في كتاباته وتأليفه ، فإننا قصد " بالعامي " في هذا النص ، عامة المثقفين ، كما قصد " بالخاص " الخاصة منهم ، أي طبقة العلماء والمفكرين والأدباء . . . لا سيما أنه يشير بوضوح ، إلى الطبقة الاجتماعية ، بقوله " سوقي ملوكي " . . . وهذا يؤكد منهج الجاحظ ، في حرصه على التوجه إلى الناس كافة ، فيحاول أن ينفذ إلى قلوبهم وعقولهم ، ليؤثّر فيهم وينشر الوعي الفكري بينهم ، ويرفع من المستوى العام للأمة العربية الإسلامية ، على تفاوت الطبقات بين أفرادها . فهو يؤكد مراراً أنه ينبغي لكل أديب ومفكر أن يتوجه بلغته السهلة ، غير المعقّدة ولا المبتذلة إلى الناس جميعاً . وهذا التأكيد إنما ينبع من الفكر الاعتزالي ، حين هبّ المعتزلة ، وهم فئس أوج نشاطهم ، وقمة تألّفهم ينشرون مبادئهم بين الناس . فيبين كيف يكسب الأديب جمهوره ، وكيف يصل إلى قلوب الناس من خلال تجويته .

(١) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٣٧٤ .

(٢) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ .

ولا تزال الرغبة في الوصول إلى الناس جميعهم ، بأفكاره ونظرياته وآرائه ... تلح عليه ،
فينعت كتابه الذي رسمه " بالحيوان " قائلاً : " وهو كتاب يحتاج إلى المتوسط العامي كما
يحتاج إليه العالم الخاص ، ويحتاج إليه الرّيفي كما يحتاج إليه الحاذق " . (١)

ومن خلال حديثه عن كتابه هذا ، يبين هيئته والصورة التي عليها ألفه وهي صفة كل
كتاب جيد ، حيث إن اسمه يشير لمضمونه ، على أن مضمون الكتاب أعمق من اسمه ، إذ أنه
على الرغم من أن عنوان الكتاب يشير إلى موضوع " الحيوان " فإنه يتحدث فيه عن أمور مختلفة
وموضوعات متعددة ، بالإضافة إلى الموضوع الأساسي الذي يدل عليه عنوانه ، أي " الحيوان " .

كما أن الكتاب مرتّب ، بحيث يبدأ بالعام وينتهي بالخاص ، " إذ كان جليله يتقدّم دقيقه ،
وإن كانت مقدماته مرتّبة وطبقات معانية منزلة " .

ولذلك ، فقد يحتاجه المتعلّم المبتدئ ، لتعريف عقله ، وترويض نفسه ، وتدريب ذهنه
على القراءة ، ليعتادها مع طول العمران والتدريب ، كما يحتاجه العالم المتمكّن ، فينكب
على قراءته ، كانياً نفسه مؤونة الكد في البحث ، من أجل تحصيل العلم ، المجموع والمؤلف
في هذا الكتاب .

ففي الوقت الذي يتحمّل فيه المؤلف عناء التأليف ، ومشقة الكتابة والبحث وما يتعرض إليه
من انتقادات المغرضين والحساد والمنافسين له ، مع عرضه عقله المكدود على العقول
الفارغة ، ومعانيه على الجهابذة " ، يكون فيه القارئ ، مرفهاً نشيطاً ، يقرأ بمجامع عقله ،
موفراً على نفسه الوقت والجهد ، فيدرك مبتغاه ، ويحقق منيته ، من الكتاب ، فهو يفخر
بأن كتابه ، على هذه الصفة ، من الإفادة للناس جميعهم ، على مختلف مستوياتهم ، بل إنه
يفخر بأن كتابه ، قد تعدّى العرب ، ليشمل الأمم الأخرى من العجم كذلك ، حيث يشبع
رغبة الجميع ، والسرف في ذلك أن هذا الكتاب على الرغم من كونه " عربياً أعرابياً وإسلامياً
جماعياً " فإنه قد أخذ من الفلسفة بطرق ، وجمع بين منهجي " السماع " و " التجربة " كما

جمع ما بين القرآن والسنة وبين الإحساس والغريزة . فهو يصراً أولاً على التزامه بالإسلام ديناً وبالعرابية انتماءً . فالعرب هم أبناء اللغة العربية التي بلسانها نزل القرآن الكريم ، ولذلك فهو يؤكد عمومية الإسلام ، وخصوصية العروبة وأصالتها في كتابه . ولذلك فقد ناسب المسلمين والعرب على السواء . وكأنه يتحرز بذلك من اتهام معارضي له بالخروج عن العروبة والإسلام ، لكونه قد تأثر فيه بمعارف الأمم الأخرى ، ومن أبرزها فلسفة اليونان حيث يذكر فيه غير مرة ، كتابي " المنطق " و " الحيوان " لأرسطو ، وكتاب " اقليدس " وغيرها ، ولا تعارض بين الدين والفلسفة . (١) ولذلك تفرد هذا الكتاب برأيه ، بشموليته إذ " يشتميه الفتيان كما تشتميه الشيخ ، ويشتميه الفاتك كما يشتميه الناسك ، ويشتميه اللاعب ذو اللهو كما يشتميه المجد ذو الحزم ، ويشتميه الغفل كما يشتميه الأريب " ويشتميه الغبي كما يشتميه الفطسن . (٢)

ولكي يكون الكتاب على هذه الصفة ، من الشمولية ، ليقراء الناس ، من جميع البيئات والمستويات ، ينبغي أن يكون أسلوبه ولغته في منزلة وسط ، ما بين لغة " الحاذق المستغني " ولغة " الرضيع المبتدئ " ، فلا تعلو لغة الكتاب ، فيستغلق فهمه على الأول - أي العالم - ولا تنحط ، فتصبح دون مستوى لغة الثاني - أي المبتدئ - (٣) هذا ما يصف به كتابه " في الرد على المشبهة " . (٤)

وهذه الفكرة ، يؤكد ها غير مرة ، ويصر عليها في كل مناسبة تسنح ، وكل فرصة تلسوح ، حيث إن همه الأوحده نشر الفكر والثقافة والوعي بين الناس ، جميع الناس . ولذلك فإن كتابه هذا " كتاب قصده ، ومقدار عدل ، لم يفضل عن الحاجة ، ولم يقصر عن مقدار البغية ، على أن الكلام لا ينبغي أن يكثر وان كان حسناً كله ، إذا كان السامع لا ينشط له ، وجاز قدراً احتمالاً ، لأن غاية المتكلم انتفاع المستمع " . (٥) هذه الغاية هي التي تحدوه لأن يضع

(١) انظره الحيوان ج ١ ص ١٠ - ١١ .

(٢) نفسه ج ١ ص ١١ .

(٣) انظره رسائل الجاحظ ج ١ ص ٢٨٩ .

(٤) انظره نفسه ج ١ ص ٢٨٩ وقد أثبت المحقق جزءاً من كتاب الجاحظ " في السرد

على المشبهة " انظره رسائل الجاحظ ج ٤ ص ٥ .

(٥) رسائل الجاحظ ج ١ ص ٣١٤ .

نصب عينيه في كل لحظة من لحظات تأليفه لكتابه ، أن يدخل كلامه إلى قلوب الناس جميعهم ، فيحرص على أسلوبه وألفاظه ، ليقبها من التبذل ، ويقصمها عن التوعر والتوحش . ولذلك يتميز أسلوبه بالإفهام ، وبالجزالة ، والدقة ، في الوقت نفسه ، فخرج راقيا سلسا ، وألفاظه منتقاة ، ومعانيه متخيرة . ولذلك ، فهو يحرص على قارئه ، أشد الحرص ، فإذا أراد الكاتب أن يكسب قلب جمهور القراء ، وثقتهم ، عليه أن سيراعي طبائعهم ، فلا يطيل عليهم ، لأن الإطالة في الموضوع نفسه ، مدعاة للسأم ، ومجلبة لقلّة الصبر ، وهذا هو السبب الذي يجعله دائم التيسير في منهجه وموضوعاته .

وأما موضوع كتابه هذا " في الرد على المشبهة " ، فيجمله بأنه تبليان تأويل آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وقع في خطأ تأويلها الكثيرون ، ويستعين في تأويلها ، بالحجج والأدلة المختلفة ، وبالأشعار الصحيحة والأمثال السائرة ، كما استعان بالأقوال المعروفة ، وتبنى منهج " القياس على الموجود " (١) .

وأما عن موضوع كتابه في " الفُتْيَا " فيقول : " وعندي - أبقاك الله - كتاب جامع لاختلاف الناس في أصول الفُتْيَا التي عليها اختلفت الفروع وتضادت الأحكام ، وقد جمعت فيه جميع الدعاوى مع جميع العلل " . (٢)

فهذا العلم الواسع ، وهذه المعرفة المتعمّكة ، التي تتيح له ، معرفة الاختلافات الفكرية ، بين الناس ، جليلها ودقيقها ، لهو من تأثير الاعتزال ، الذي يحتم على علمائه ، التعرف إلى جميع علوم العصر وآدابه وفنونه ، ومبادئ الفرق المختلفة ، والأديان السماوية منها والوضعية ، لكي يكون بمقدور العالم الدّفاع عن دينه أحسن دفاع أمام الأديان الأخرى ، والاحتجاج لمبادئ فرقته أمام الفرق الإسلامية المختلفة ، حيث الاختلاف فيما بينها يكمن في الفروع لا في الأصول . فالمعتزلة ، وأرباب العقل ، والعلم ، والقول بحرية الإرادة الإنسانية ، استطاعوا النهوض بالفكر الإسلامي ، وتحقيق الحرية الفكرية التي عاشت في كنف التسامح الديني والفكري .

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٣١٤ .

مما سبق ، يتبين أن هدف الجاحظ الأول ، هو الوصول إلى جميع الناس ، على اختلاف مستوياتهم وطبقاتهم وأعمارهم ، لإفهامهم والتأثير فيهم . وهذا يتماشى مع ما كان يهدف إليه المعتزلة بعامة ، من نشر مذهبهم بين الناس ، لا سيما أنه يلاحظ ، من بداية هذا البحث ، أن فكرة الفهم والإفهام ، تسيطر على ذهنه في نقده اللغوي والأدبي جميعاً ، حتى لتكاد أن تكون الأساس الذي يبنى عليه نقده . وبذلك فهو يحسم الخلاف الذي لا يزال مطروحاً حتى وقتنا هذا ، والمتمثل في الجمهور الذي ينبغي أن يتوجه له الأديب ، كما سبقست الإشارة . فالأديب يتوجه إلى الناس جميعهم في كتاباته ، لأن القراءة ليست ترناً طبقياً وإنما هي ضرورة ، وحاجة ملحة ، ينبغي أن يعتادها الإنسان منذ نعومة أظفاره . ولذلك فإن المؤلف ، دائماً ، يضع نصب عينيه جمهوره . فإذا كان هدفه الكتابة النبيلة ، التي تبتغي إفادة الناس وتوعيتهم والارتقاء بعقولهم ، سلس أسلوبه ، وراقت ألفاظه وسمت معانيه ، وخرج كلامه طبيعياً ، غير متكلف ولا معقد ، تتناوبه الجزالة والسهولة في آن واحد . دون ضعف يساوره ، أو ابتدال يحيق بالفاظه ومعانيه .

وهو ، وإن كان ينظر إلى كتبه نظرة استحسان ، لما لاقى في سبيلها من الجهد والدرس وطول البحث والتعب ، فإنه يخشى أن يكون شأنه في ذلك شأن الأب الذي يعجب بابنه ، ولقد سبقت الإشارة إلى هذه المشابهة ، أو شأن الشاعر المعجب بنظمه ، وذلك في معرض حديثه عن كتابه في " الفتيان " ، فهو لا يأمن على نفسه الغلط في استحسانه لكتابه هذا ، كما يغلط الأب والشاعر .^(١) في محاولة منه في ممارسة ما نسميه بالنقد الذاتي . وأخيراً ، يقول عن كتابه " البخلاء " ، " ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبين حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة . وأنت في ضحك منه إذا شئت ، وفي لهو إذا مللت الجد ."^(٢) وهذا هو الظاهر ، من الكتاب ، غير أنه يحمل بين طياته ، ويستر بين نواذره ، نقداً اجتماعياً لاذعاً ، يتخفى وراء هذه السخرية المحيية غير

(١) انظر ، رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣١٧ .

(٢) البخلاء ، ص ٥ .

المؤذية ، فهو يشفق على ما وصل إليه هو ، لا البخلاء الأغنياء ، من انحطاط وذل وجهه .
فسخرته منهم ، مترجمة بالشفقة ، والنزعة إلى المرح والضحك .

وبالإضافة إلى ذلك ، يذكر الجاحظ أسماء كتب أخرى كثيرة ، أودى بها الزمن منها
"كتاب الجوارح" الذي يتلو كتاب "البيان والتبيين" كما يشير بنفسه .^(١) و "كتاب
الرجل والمرأة" .^(٢) و "كتاب الزرع والنخل" .^(٣) و "كتاب العرجان" .^(٤) الذي يسبق فـسـى
تأليفه "البيان والتبيين" ومنها "حيل اللصوص" و "غش الصناعات" و "الملح والطارف" .^(٥)

كما يشير إلى بعض كتبه ، بذكر موضوعاتها مهملاً أسماءها^(٦) في معرض تعدادها لأسماء
كتب له كثيرة ، لا مجال لحصرها في هذا الموضع ، مجعلاً موضوعات بعضها ، راداً على ما أخذ
عليه فيها ، ومعظمها لم يصل إلى أيدينا ، والظاهر أنه ألفتها جميعاً قبل كتاب "الحيوان"
حيث يذكر أسماءها فيه .^(٧) كما يشير إلى أحد كتبه على ما يبدو من خلال ذكر موضوعاته .^(٨)

وأما الكتب التي يذكرها في غير كتاب "الحيوان" ، فلا يعرف تاريخ تأليفها إن كان قبل
هذا الكتاب أم بعده ، منها "اختصاص الشتاء والصيف" .^(٩) ويقول كذلك : "وقد كتبت
- مد الله في عمرك - كتباً في مفاخرة قحطان ، وفي تفضيل عدنان ، وفي رد الموالي إلى
مكانهم من الفضل والنقص ، وإلى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف . وأرجو
أن يكون عدلاً بينهم ، وداعية إلى صلاحهم ، ومنبهة لما عليهم ولهم" .^(١٠) كما يشير
إلى أحد كتبه بذكر موضوعاته الأساسية .^(١١)

- (١) انظر البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٩٤ - ٩٥ .
- (٢) انظر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٥ .
- (٣) انظر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .
- (٤) انظر نفسه ، ج ٣ ، ص ٧٤ .
- (٥) انظر الحيوان ، ج ١ ، ص ٣ .
- (٦) انظر نفسه ، ج ١ ، ص ٤ .
- (٧) انظر نفسه ، ج ١ ، ص ٤ - ١٢ ، ٣٠٦ ، ٣١١ ، ج ٤ ، ص ٢٨ ، ٣٧٨ ، ج ٦ ، ص ١٦٤ .
- (٨) انظر نفسه ، ج ٧ ، ص ٦٥ .
- (٩) انظر رسائل الجاحظ ، ج ٢ ، ص ٩٥ .
- (١٠) نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢ .
- (١١) انظر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٢٥ .

أما الكتب التي قد يستشف تاريخ تأليفها بالتقريب ، من خلال بعض إشارات ، أثناء عرضه لها ، فمنها " كتاب المعرفة " الذي ألفه قبل كتاب " العثمانية " ^(١) ، ومنها " كتاب المسائل " ، ويبدو أنه ألفه بعد " العثمانية " ^(٢) وقبل " البخلاء " ^(٣) ، ومنها " كتاب الشعوبية " الذي يسبق تأليف " البخلاء " ^(٤) .

ويختتم هذا الفصل ، بحديث المجاحظ عن تجربته الخاصة في تأليف كتاب الحيوان ، وما صادفه في أثناء ذلك من عقبات وعراقيل ، ولعل أشدها وقوعه فريسة العرض الموعن الأليـم ، زد على ذلك " قلعة الأعوان " ^(٥) ، مما جعل الألم يتضاعف ، حيث من المعروف تأثير المرض الجسدي ، على نفس المريض ، على الرغم من وجود أحبابه وأصحابه حوله ، يوفر له كل رعاية ، ويحيطونه بكل محبة ، فما بالنا برجل مريض تكتنفه الوحدة والوحشة ! يدفعه ولعـه بالمعرفة ، وشغفه بالتأليف ، إلى التحامل على نفسه ، وتناسي آلامه وأوجاعه في سبيل البحث العلمي ، فعلى الرغم من " طول الكتاب " ^(٦) ، فقد كان ينشط ، إلى تليقظ الأشعار وتتبع الأمثال ، واستخراج الآتي من القرآن والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور في الكتب وتباعدها ما بين الأشكال ^(٧) . وهذا يدل على أنه كان يتبع منهج البحث العلمي الصحيح ، في الرجوع إلى القرآن الكريم ، والكتب المختلفة ، لتكون مراجع له في أبحاثه الأدبية والفكرية المتنوعة . فيرى القاري ، لكتبه ، أنه يتحرى الدقة في نقل الشواهد والأمثلة المختلفة ، حتى إذا وجد اختلافاً ، عند روايته للشاهد ، يجده يثبت كلا الوجهين ، مما يدل على الأمانة العلمية التي كان يتحلى بها . فكانت كتبه ذات قيمة أدبية عظيمة ، من حيث كونها مراجع لا يستغني عنها دارس الأدب بمختلف فروع وعصوره . وبذلك يلتص العذر لنفسه ، ويعتذر للقاري ، إذا وجد في أثناء قراءته لكتابه هذا " خلا " هناك أو خطأ هناك ^(٨) ، من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، أو من تقطيع نظام ، ومن وقوع الشيء في غير موضعه ^(٩) .

(١) انظر العثمانية ، ص ٢٦١ .

(٢) انظر نفسه ، ص ٢٨٠ .

(٣) انظر البخلاء ، ص ٥ .

(٤) انظر نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٥) انظر الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٠٨ .

(٦) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠ .

(٧) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

(٨) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

(٩) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

فللقدر الجسدية ، حكمها على الإنسان ، كما أن للسّن حكمه ، وليس الشاب الصحيح الجسد والنفس ، كالطاعن في السّن الذي تتناوبه الأوجاع والأمراض فتؤثر في قدرته الذهنية والنفسية . ولقد أثبت الجاحظ أن الشباب يسكن في العقل والنفس ، لا في الجسد ، إذ علس الرغم من المرض الذي كان يوهنه ويضعفه ، فإنه استطاع أن يهب للبشرية كتباً خالدة ، وفكراً لامعاً ، بذكاء نادر ، ومملكة فذة ، فتمت عبقرية كانت تسكن داخل الجسد المريض الناحل .

وأما هدفه من تأليف " الحيوان " ، فهو إيهام القارىء * مواقع الحجج لله ، وتصريف تدبيره ، والذي أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته ^(١) ، ولذلك حمل نفسه كل هذه المعاناة التي لاقى فيها من المشقة ما لاقى ^(٢) . وهذا الهدف السامي ، الذي يدعو إلى التأمل في مخلوقات الله ، لمعرفة حكمته في خلقه ، التي هي الدليل على وجوده وأبداعه ، لهم من تأثير الاعتزال الذي يحث على التفكر وطول التأمل في كل ما في هذا الكون للاستدلال على الخالق .

وبعد هذا الشرح ، لحقيقة معاناته خلال تأليفه لكتابه هذا ، فانه يشق عليه أن يرى حساده وأعداءه ، ينهشون لحمه ويترصون به في كل كلمة يكتبها ، وكل فكرة يعلنها ، يحاولون تزوير كلامه ، والخط من قيمة كتبه ، و " الطعن عليها بقول أو إشارة " بدافع من الحسد والبغض وقلّة الحيلة والجهل ^(٣) ، ولذلك ، يرجو القارىء لكتبه ، أن يفعل ذلك بنية صادقة ، خالصة لحب المعرفة ، وقلب مترقق ، إذ يقول : " فإن نظرت في هذا الكتاب فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج ، ولا يذهب مذهب التعنت ، ومذهب من إذا رأى خيراً كتبه ، وإذا رأى شراً أذاعه " ^(٤) فمن يهم بقراءة كتاب ، ينبغي له أن يحرر نفسه من كل فكرة مستترة في خفاياها ، تعميه عن حقيقة ما يقرأ ، وأن يظهر دخيلته من كل ما من شأنه أن يجلب الحقد والحسد ، ويدعو إلى المقارنة والمنافسة ، وليذكر نفسه في كل مرة تسول له نفسه الطعن بالمؤلف وفكره ظلماً وجوراً ، أنه قد يتعرض للموقف

(١) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ . (٢) انظره نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

(٣) انظره رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٣٤٠ - ٣٤٢ . وانظره الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

(٤) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

نفسه ، فيؤلف كتابا ، ليجد من يتعرض له ، فتقع عليه العقوبة ، كما أوقع الظلم على غيره . (١)

وبعد ، فمن خلال هذا الحديث ، عن تجربته في تأليفه لكتاب " الحيوان " ، تلوح نبذة الأسى والحزن ، والمكروه الذي لاقاه الجاحظ ، من جراء الحسد والحقد الأعمى اللذين دفعا ببعض النقاد إلى النيل منه ، ومن فكره وكتبه . فالجسد مريض ، والذهن مكدود ، والنفس متعبة ، والأعداء كثرة ، والعقل تواق للمعرفة ، شغوف بالعلم ، مولع بالعطاء والإقصاد .

(١) انظر ، الحيوان ، ج ٤ ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

خاتمة

ومعد ، فإن هذه الدراسة ، تخلص إلى أن النقد الأديبي ، قد خطا خطوات مهمة في مسيرته التاريخية ، في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، على يد أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، الذي طرق باب النقد من جوانبه المختلفة ، ووضع أسس نظريات كتب لها الاستمرار والتطور على أيدي النقاد اللاحقين .

ولعل من أهم القضايا والنتائج ، التي توصلت إليها هذه الدراسة ، تفسير فني اتجاهين رئيسيين وهما : النقد اللغوي ، والنقد الأدبي .

ففي النقد اللغوي يعالج قضية العلاقة بين القول والمعنى ، والقول والصمت ، وفيها يحلل ظاهرة الصمت من حيث هو السكوت عن قدرة ، لا عن عجز ، وهو تحليل ينفذ فيه إلى أعماق النفس الإنسانية ، وخطورة الصمت تكمن في السكوت عن قول الحق ، لأنه يفقد وعندئذ في معنى النطق بالباطل ، ولعل تحليله للمعنى والحصر والبهذر ، باعتبارها من آفات البيان ، تعد دراسة نفسية ولغوية ، لا نعرف أن أحدا سبق الجاحظ إلى دراستها بهذا العمق والتفصيل .

ويؤكد أن البيان الصحيح والمنطق الحسن والبلاغة ، لا يتأتى إلا بالرياضة والدراسة وذلك انطلاقاً من إيمانه أن الإنسان قد منح الاستطاعة والعقل ، وهما يفرض إرادتهما ، ويتغلب على نفسه ، وما قد يواجهه من الصعوبات . فمفهوم البلاغة عنده يتمثل بالتلازم بين العقل والأدب ، وبالعلاقة التي تربط بين التأثير النفسي والمعنوي ، والتأثير اللغوي والبلاغي ، ولذلك نجد داء الربط بين الفكر واللغة ، فهو يرى أن الفقر الفكري يؤدى إلى الفقر اللغوي بالضرورة ، وبالتالي فإن وضوح اللغة ، ودقة التعبير يرتبطان بوضوح الفكرة وخصوصيتها في ذهن القائل ، وهذا مبدأ مهم من مبادئ النقد الحديث .

وفي تحليله لطرق التعبير عن المعاني ، وما تفرّد به من الحديث عن حال المتلقي في جميع أحواله ، ومختلف أطواره ، فهو يحوم في ذلك كله ، حول نظريته في " الفهم والإفهام " ، ونستطيع بحق ، أن نعتبر الجاحظ صاحب نظرية خاصة في هذا الموضوع . فالمراد هو الإفهام بالقول الفصيح المعرب ، وأن المبالغة في تهذيب اللفظ وتنقيح معناه عن هذه الغاية ، ومن هنا ينطلق إلى الإجابة عن السؤال المطروح ، حول قضية مهمة وهي " لمن يكتب الأدب ؟ " ، ليخلص إلى أن الأدب يتوجه إلى الناس جميعهم على مختلف مستوياتهم الثقافية والفكرية ، ولذلك ينبغي له أن يستعمل لغة متوسطة ، ليست بالفريية الوحشية ، ولا بالمبتذلة السوقية ، فالمعنى الشريف يعبر عنه اللفظ البليغ ، وكذلك فإن المعنى المبتذل يعبر عنه اللفظ الرديء ، ومن هنا كانت انطلاقته بالقول إن الألفاظ تكون على أقدار المعاني ، وأن هنالك بعض المواقف ، يحتاج فيها الإنسان ، إلى السخيف من المعنى واللفظ ، ولذلك نراه يردّد كثيراً المقولة المشهورة " لكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال " وهي تنبئ عن نظرية في تغير الظروف والأحوال ، ووجوب الانسجام مع هذا التطور ، وذلك التفسير .

ويمرض نظريته في قوله تعالى : " علم آدم الأسماء كلها " . وخلاصة رأيه في هذا الموضوع أن " الأسماء " في هذه الآية تتضمن المعاني بالضرورة ، أي أن الله تعالى علم آدم الأسماء بمعانيها . وهي نظرية يميز بها الجاحظ ولم يسبق إليها على حدّ ما نعلم . فهو في كل موضوع يحرص على تأكيد المساواة بين اللفظ والمعنى ، فجوهر نظريته يقوم على أن اللفظ هو الوسيلة إلى المعنى ، وهذا يعني أن المعنى هو الغاية عنده ولكنّ اللسان لا يبلغها إلاّ بالبلاغة ، وفي ذلك دحض لما ذهب إليه كثير من الباحثين حيث فهموا من قوله " المعاني مطروحة في الطريق . . . " ، أنه يهتم بالألفاظ دون المعاني وهذا لا يتناسب وتكوينه الفكري والأدبي ، فهو صاحب مدرسة في الاعتزال ، ومن أصحاب مقولة " العقل قبل النقل " .

ويقف الجاحظ موقفاً واضحاً من طبيعة التأثير بين اللغات المختلفة ، إذ لا يرى حرجاً من الاستعانة بألفاظ من لغة أعجمية ، وهذا يدل على سعة أفقه ، وتقبله للتطورات التي

قد تطرأ على بعض ألفاظ اللغة ، من جراء ذلك التأثر .

ويرى أن الأصل في البيان ، يكون في استجابة الطبيعة ، وأصالة الموهبة فسي النفس من ناحية ، والرغبة التي تدفعه إلى بذل الجهد في التمرن والمتابعة كي يمتلك زمام البيان ، وأن يأنس من نفسه نفوذاً في الخطابة والبلاغة ، فعليه حينئذ أن يتحلّى بالجرأة والإقدام ، فلا يثنيه عن تحقيق بغيته أحد .

وله آراء نقدية في الصور البيانية المختلفة ، ويسترعي الانتباه موقفه من الفرق بين " الاستعارة " و " المثل " من حيث الدلالة الحسية والمعنوية . والقضية المهمة التي يطرحها في موضوع " السجع " ، فتتمثل في الرد على من يدعي أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد نهى عنه ، وفي هذا الصدد يطبق قاعدته المشهورة أنه متى " زالت العلّة زال النهي " ، وهذا اتجاه مهم في منهجه الفكري والأدبي ، وكذلك موقفه في الفرق بين " المبالغة " و " الإفراط " .

ويرى أن للبيان وسائل متعددة غير اللفظ ، وهي الإشارة ، والخط ، والعقيد . وفي هذه الوسيلة الأخيرة ينوه بأهمية خطوط الهند في رسم الأعداد ، و " النصب " أو " الحال " وتكمن أهميتها في دلالة هيئتها على وجود الخالق وإبداعه . وفي مناقشته هذه تتجلى نزعة الكلامية .

وفي مجال نقد اللغة ، فإن له نظرية في " علم اللغة العام " وفي تأثر اللغات بعضها ببعض ، وفي اختلاف اللهجات ، وبعض الألفاظ بين الأمصار العربية المختلفة ، كما أن له نظرية في " تعلم اللغات " . وفي هذا المجال يتطرق إلى قضية الحسن والترجمة ، ويعتبر ما كتبه حول الترجمة مشاركة أصيلة ومبدعة في هذا المجال .

ويعتبر حديثة في اقتران الحروف ، وخروجها من مخارجها الصحيحة يشكّل أساساً في علم " اللسانيات " ، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم البيان ، وكذلك حديثه عن أدوات النطق : اللسان والأسنان ، وأمراضها وعيوبها ، ونظريته في الأصوات .

وفي النقد الأدبي ، يتحدث عن فن الشعر وصناعته ، ولعل ما كتبه عن الشعر العربي ومراحل تطوره ، يعتبر مصدرا مهما من مصادر دراسة هذا الفن ، ومن أهم القضايا التي طرحتها في الشعر : رأيه في بدايات الشعر العربي قبل الاسلام بفترة تتراوح بين مائة وخمسين ومائتي عام ، وأن النشأ سبق من الشعر ، ومناقشة الاشكال في هذه القضية ، وكذلك الرد على من ينسب الشعر إلى القرآن الكريم وهذه من أخطر القضايا التي يتناولها في فن الشعر ، ويعالج كذلك قضايا الوضع في الشعر ، والسراقات الأدبية ، والفرق بينها وبين التأثر الأدبي ، وكذلك الشعر والموسيقى . وكون الشعر مصدرا مهما من مصادر المعرفة ، ويتطرق إلى شعر المرأة ، ليعلل سبب قلته ونسوره .

ويتطرق في النثر إلى فن الخطابة ، ويمتبر ما كتبه فيه من المصادر الأساسية في دراسة هذا الفن ، كما يتطرق إلى فن المناظرة ودورها في مذهب الاعتزال ، وأما فن النادرة عنده ، فيبرز في أدبه الساخر ، فيتحدث عن علاقة النادرة بالواقع والممكن ، ومدى انسجامها مع شخصيات الرواة . وفي هذا الفن يقترب الجاحظ من الأدب التشليلي الضاحك .

وقد كان لمذهب الاعتزال ، أثره الواضح في نقده اللغوي والأدبي جيمعا ، فكان من الأصول التي كوّنت اتجاهاته النقدية والأدبية ، وقد بينت هذه الدراسة ، أن القسرة الكرم والأحاديث النبوية الشريفة ، إلى جانب التراث الأدبي شعرا ونثرا ، كانت من الأصول المهمة في تكوينه النقدي والفكري ، فضلا عن اطلاعه الواسع من خلال الترجمات على ما نقل إلى العربية من تراث حضارات الأمم السابقة .

ثبت المصادر والمراجع

١. احسان عباس
تاريخ النقد الادبي عند العرب : نقد الشعر من
القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، عمان -
الاردن ١٩٨٦م.
٢. احمد بن حنبل
مسند الامام احمد بن حنبل، بيروت - لبنان
٣. احمد مطلوب
البلاغة عند الجاحظ، العراق، ١٩٨٣م.
٤. الاخطل ، ابو مالك غياث بن غوث التغلبي
شعر الاخطل، صنعة السكري روايته عن ابي جعفر محمد
بن حبيب، تحقيق فخرالدين قباوة بيروت ١٩٧٩م -
١٣٩٩هـ
٥. ادريس بلملح
الرؤية البيانية عند الجاحظ، الدار البيضاء،
المغرب.
٦. الاصبهاني، ابو الفرغ علي بن الحسين
كتاب الاغانى، دار الكتب ، مصر.
٧. امرؤ القيس
ديوان امرؤ القيس، تحقيق محمد ابو الفضل
ابراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٦٤.

٨. أوس بن حجر
ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح د. محمد يوسف نجم،
بيروت ١٩٦٠م.
٩. بدوى طبانة
دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية الى
نهاية القرن الثالث، القاهرة، ١٩٦٥م.
١٠. بدوى طبانة
معجم البلاغة العربية، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
١١. البسيوني احمد منصور
الخصومة بين القديم والجديد في النقد العربي
القديم ١٤٠١هـ - ١٩٨١ .
١٢. جابر عصفور
الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند
العرب، بيروت - لبنان ١٩٨٣م.
١٣. الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر
البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة
١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.
١٤. الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر
الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، بيروت ١٤٠٨هـ /
١٩٨٨م.
١٥. الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر
رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مصر
١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
١٦. الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر
البخلاء، تحقيق طه الجاجري، القاهرة ١٩٧١م.

١٧. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر
العثماني، تحقيق عبدالسلام هارون، مصر، ١٣٧٤هـ /
١٩٥٥م.
١٨. الجهمي: محمد بن سلام
طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر،
القاهرة.
١٩. الحاتمي: أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر
حلية المحاضرة في صناعة الشعر، تحقيق جعفر
الكتاني، العراق ١٩٧٩م.
٢٠. حسن السندوبي:
أدب الجاحظ، القاهرة ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١م.
٢١. حميد بن ثور الهلالي
ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعه عبدالعزيز
الميمني، القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥١م.
٢٢. الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي
تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.
٢٣. داود سلوم
النقد العربي القديم بين الاستقراء والتأليف،
بغداد ١٩٧٠م.
٢٤. داود سلوم
مقالات في تاريخ النقد العربي، العراق ١٩٨١م.
٢٥. داود سلوم
النقد المنهجي عند الجاحظ، بغداد ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٢٦. الراعي النميري
ديوان الراعي النميري، تحقيق راينهت فاييرت،
بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م.
٢٧. الزركلي : خير الدين
الاعلام، بيروت ١٩٧٩ك.
٢٨. الزمخشري: محمود بن عمر
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل
في وجوه التأويل، تحقيق مصطفى حسين أحمد،
القاهرة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣م.
٢٩. الزمخشري: جاد الله محمود بن عمر
الفاث في غريب الحديث، تحقيق علي محمد البجاوي
ومحمد أبو الفضل ابراهيم، بيروت - لبنان.
٣٠. الشريف المرتضى: علي بن الحسين الموسوي العلوي
أمالي المرتضى : غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق
محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب
العربية، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤م.
٣١. شوقي ضيف
النقد ، مصر ١٩٦٤م.
٣٢. طه حسين
من تاريخ الادب العربي، العصر العباسي الاول (القرن
الثاني) بيروت شباط (فبراير) ١٩٧١م.
٣٣. عبد الحكيم بلبع
أدب المعتزلة الى نهاية القرن الرابع الهجري،
مصر - الفجالة
٣٤. عبيد بن الأبرص
ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق حسين نصار، مصر

١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م.

٣٥. عز الدين اسماعيل
في الادب العباسي الرؤية والفن، بيروت ، ١٩٧٥م.
٣٦. عمر بن ابي ربيعة
شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة المخزومي، تأليف
محمد محيي الدين عبدالحميد، مصر ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.
٣٧. القرشي: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب
جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والاسلام، تحقيق
محمد علي الهاشمي، دمشق ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
٣٨. القيرواني الازدي: أبو علي الحسن بن رشيق
العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده، تحقيق محمد
محيي الدين عبدالحميد، مصر ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.
٣٩. المزباني : أبو عبدالله محمد بن عمران
الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء، تحقيق محب
الدين الخطيب، القاهرة ١٣٨٥هـ.
٤٠. محمد بركات حمدي أبو علي
الاصول الادبية في كتاب البيان والتبيين، عمان
١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
٤١. محمد خير شيخ موسى
فصول في النقد العربي وقضاياها، الدار البيضاء -
المغرب ١٤٠٤ - ١٩٨٤م
٤٢. محمد زغلول سلام
تاريخ النقد الادبي والبلاغة حتى القرن الرابع
الهجري، الاسكندرية ١٩٨٢م.

٤٣. محمد الصغير بناني
النظريات اللسانية والبلاغية والادبية عند الجاحظ
من خلال البيان والتبيين، الجزائر ١٩٨٣ م.

٤٤. محمد طاهر درويش
النقد الادبي عند العرب الى نهاية القرن الثالث
الهجري، القاهرة، ١٩٧٩ م.

٤٥. محمد مصطفى هدارة
مشكلة السرقات في النقد العربي، دراسة تحليلية
مقارنة، بيروت، دمشق، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.

٤٦. مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : (ابو الحسين)
صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت -
لبنان

٤٧. مصطفى الصاوي الجويني
معالم في النقد الادبي، الاسكندرية

٤٨. النابغة الذبياني
ديوان النابغة الذبياني، جمع وشرح وتعليق محمد
الطاهر بن عاشور، الجزائر ١٩٧٦ م.

٤٩. ياقوت
معجم الادباء ، دار المستشرق، بيروت - لبنان .

٥٠. يوسف حسين بكار
بناء القصيدة في النقد العربي القديم (في ضوء
النقد الحديث) بيروت - لبنان ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م.

فهرست الأعلام
حرف الألف

- آدم عليه السلام : ص ٦٧ ٦٨ ٦٩ ١٠١ ١٦٦ .
ابراهيم بن سلمة : ص ٦٠ .
ابراهيم بن السندی : ص ٢٧٦ .
ابراهيم بن سيار النظام : ص ١٤١ .
ابراهيم بن محمد الامام : ص ٦٠ .
ابن ابي طريفة : ص ١٥ .
ابن ابي عتيق : ص ١٢ ١٤ .
ابن ابي كريمة : ص ١٩٧ ١٩٨ .
ابن أنس : ص ١١٥ .
أبو اسحاق : ص ١٩٥ ١٩٦ .
أبو الاسود الدؤلي : ص ٢٠ .
أبو بصير = أنظر الأعشى :
أبو الخطاب = أنظر "عمر بن أبي ربيعة" :
أبو عثمان = أنظر "الجاحظ" .
أحمد بن سـلام : ص ٢٨٥ .
أحمد بن عبد الوهاب : ص ٧٤ ٩٤ .
الأخنف بن قيس : ص ٥٠ .
الأخطـل : ص ٢٠١ .
أرسطو : ص ٥٩ ٤٦ ١٥١ ١٥٩ ١٦١ ١٦٨ ١٧٤ ١٩٠ .
٢٩١ ٢٧٧ ١٩٢ .
أسامة : ص ١٩٥ ١٩٦ ١٩٩ .
الأسـدي : ص ٩٩ .
أسلم بن زرعة : ص ١١٣ .
أسـما : ص ٢٢٩ .
اسماعيل بن ابراهيم : ص ٢٠ .

- الأشهب بن ربيعة : ص ١٢٠ .
 الأصمعي : ص ١٧٦ ١٨٨ ٥٧١ ٥١٨ ٥١٧ .
 الأغشي : ص ١٥٦ ١٤٥ ٥٨ .
 أفلاطون : ص ١٩٢ ٥١١٠ .
 الأثو الأودي : ص ١٩٩ ٥١٩٧ .
 اقليدس : ص ٢٩١ ٥١٥٩ ٥٥٩ .
 أم جنـدب : ص ٩ .
 امرؤ القيس : ص ١٥٥ ١٢٥٩ .
 أمية بن أبي الصلت : ص ١٣٣ .
 أوس بن حجر : ص ١١٠ ٥١٩٦ .
 ايساس : ص ١٠٦ .
 أيوب بن جعفر : ص ١٤١ .

حرف الباء

- الباخرزي : ص ٢١٥ .
 بشينة : ص ٢٢٩ .
 بشار بن برد : ص ١٣٦ ٥١٧٩ ٥٢٠٣ .
 بشر بن المعتمر : ص ٢٢٠ .
 بطليموس : ص ١٩٠ .
 أبو بكر الشيباني : ص ١٣٧ .
 أبو بكر الصديق : ص ٨٠ ٥٢٠٤ ٥٢٢١ ٥٢٢٢ .

حرف التاء

- التميمي : ص ٢٠٣ .

حرف الشاء

- ثمامة بن أشرس : ص ٨٤ .

حرف الجيم

الجاحظ

ص ١٨٠ : ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠

٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢

٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤

٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦

٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨

٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢

٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣

١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤

١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥

١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦

١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧

١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨

١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩

١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠

١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١

١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢

٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣

٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤

٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥

٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦

٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧

٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨

٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩

٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠

٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١

٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢

٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣

٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤

٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥

٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦

٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧

- جريســـــــــــــــــر : ص ٢٠٩٥١٧٢ .
 أبو جندب الهذلي : ص ٢٠٢ .
 أم جعفرـــــــــــــــــر : ص ١٨٠ .
 جميلـــــــــــــــــل : ص ٢٨٩ .

حرف الحاء

- حاجب بن زرارة : ص ٢١١ .
 الحارث بن حلزة : ص ٢١٣ .
 أبو الحارث جميل : ص ٢٥٣ .
 حسان بن ثابت : ص ٢٢٦٥٨ .
 أبو الحسنـــــــــــــــــن : ص ١٠٦ .
 الحسن البصري : ص ٢٤٤٥١١٥٥٥١٥٤٨ .
 الحسن اللؤلؤي : ص ٢٧٤ .
 حصن بن حذيفة : ص ٢١١ .
 الحطيئةـــــــــــــــــة : ص ٢٠٥٥١٨٨ .
 حماد الراوية : ص ٢١ .
 حميد بن ثور الهلالي : ص ٢٠٣ .
 حواء (عليها السلام) : ص ١٦٦ .
 أبو حيان التوحيدى : ص ١٥٨ .

حرف الخاء

- خالـــــــــــــــــد : ص ٢٢٧ .
 خالد بن الوليد : ص ٢٠٤ .
 خالد الحريص : ص ١٢ .
 خدّاش بن زهير : ص ٢١٢ .
 خفاف بن ندبة : ص ١١١ .
 خلف الأحمر : ص ١٩٧ .
 الخليل بن أحمد الفراهيدى : ص ١٨٦٥٩٠٥١٦ .
 الخنـــــــــــــــــســـــــــــــــــاء : ص ٢٢٩٥٨ .

حرف الدال

داود بن محمد : ص ١٨٠ .

أبو دبوبة الزنجي (مولى آل زياد) : ص ١٥٤

أبو دواء بن حريز الأيادي : ص ٩٨ .

ديمقراطيس : ص ١٩٠ .

حرف الذال

لبذكوانبي : ص ٢٠٢ و ٢٠١ .

حرف الراء

الراغب : ص ١٢٠ و ١٣٦ .

الرسول (صلى الله عليه وسلم) : ص ١٠١ و ١١١ و ١٣٣ و ١٤٦ و ١٤٧ و ١٥٠ و ١٧٧ و ١٩٨ و ٢٠٢ و ٢٠٣ و ٢٠٦

١٠٤ و ١٠٩ و ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٩ و ١٧٩ و ١٩٩ و ٢٠٦

٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣٨ و ٢٤٢ .

الرشيد : ص ٨٠ .

رفاعة القرظي : ص ٢٢٩ و ٢٣٠ .

روح بن أبي همام : ص ١٩٥ و ١٩٦ و ١٩٩ .

حرف الزاي

الزريقان بن بدر : ص ١٠١ و ١١١ و ٢٤٢ و ٢٤٣ .

أبو الزحيف : ص ٢٠٢ .

زارة بن عديس : ص ٢١١ .

زياد : ص ٤٦ .

زيان بن سيار : ص ٢٧ و ٢٠٣ .

زهير بن أبي سلمى : ص ١١١ و ١٥٥ و ٢٠٥ و ١٨٨ .

زيد بن جندب : ص ٢٣٩ .

حرف السين

- سفيان بن الأبرد الكلبي : ص ١٢٣ .
ابن سلام = أنظر محمد بن سلام .
سليمان (عليه السلام) : ص ٥٢ .
سليمان الأعرجي : ص ٢٢٨ .
سليمان بن يزيد العدوي الشاعر : ص ١٧٧ .
سهل بن هارون : ص ٢٤٧ .

حرف الشين

- شتيم بن خويلد : ص ٢٠٣ .
شريح بن أوس : ص ١٩٦ .
شريح بن هانيء الحارثي : ص ٢٢٢ و ٢٢١ .
أبو شمر : ص ١٤١ .
الشمر : ص ١٧٩ .
شوش : ص ١٨٠ .

حرف الصاد

- صالح بن أبي صالح : ص ٢٨٥ .
صالح بن حنين : ص ٢٥٣ .
صالح بن عبد القدوس : ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .
صالح مولى رشيدة : ص ٢٨٥ .
صحار العبدي : ص ١٠٠ .

حرف الضاد

- الضبي : ص ١٩٧ و ١٩٩ .
ضمرة بن ضمرة : ص ١٧٠ .

حرف الطاء

- طرفسة بن العبد : ص ٢٠٦ و ٢٠٩ .
طفيل الغنوي : ص ١٨ .

حرف العين

- أبو العاليسنة : ص ١١٦ .
- عباس الرعللي : ص ١١٣ .
- ابن عباس : ص ١١٧ و ٩٩ .
- عبد الحميد الكاتب : ص ٢٥٧ و ٢٤٧ و ١٥ .
- عبد الرحمن بن اسحاق القاضي : ص ٦٠ .
- عبد الرحمن بن الزبير : ص ٢٣٠ و ٢٢٩ .
- عبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي : ص ١٣٢ و ١٣١ .
- عبد الله بن جدعان : ص ٢١٢ و ٢١١ .
- عبد الله بن خالد الاموي : ص ١٨٠ .
- عبد الله بن عامر : ص ٤٦ .
- عبد الله بن عباس : ص ٤٨ .
- عبد الله بن عجلان : ص ٢٢٩ .
- عبد الملك بن صالح : ص ١٧٠ .
- عبد الملك بن مروان : ص ١٥ و ١٤ .
- عبد يغوث بن وقاص الحارثي : ص ٢١١ .
- عبيد : ص ٢١ و ١٧ .
- أبو عبيدة : ص ٨٢ .
- أبو عبيد الله : ص ٢٤٧ .
- العتابي : ص ١٣٦ و ٨٩ و ٥٥٧ و ٥٥٦ و ٥٥ و ٥٥٤ .
- العجاج : ص ٨٢ .
- عدي بن زيد : ص ١٣٨ .
- عسرة : ص ٢٢٩ .
- عزة : ص ٢٢٩ .
- عفر : ص ٢٢٩ .
- علقمة بن عبد الفحل : ص ٩ .
- علقمة بن علاثة : ص ٢١٢ .

- علي بن أبي طالب : ص ١٢ ٥ ٤٤٨ ٥ ٩٨ ٥ ١٧٩ ٥ ٢٢٣ ٥ ٢٤٤ .
- علي بن يحيى : ص ١٥٨ .
- العماني : ص ٨٠ .
- عمـ : ص ١٧٥ .
- عمر بن أبي ربيعة : ص ١٢ ٥ ١٣ .
- عمر بن الخطـ : ص ١١ ٥ ١٢ ٥ ٥٥ ٥ ١٢٢ ٥ ١٢٤ ٥ ١٦٨ ٥ ١٦٩ ٥ ٢٦٣ ٥ ٢٤١ .
- عمر بن عبد العزيز : ص ٥٠ .
- ابن عمـ : ص ١١٥ .
- عمرو بن الأهتم : ص ١٠ ٥ ٢٤٢ ٥ ٢٤٣ .
- عمرو بن بحر = أنظر " الجاحظ " .
- أبو عمرو الشيباني : ص ٩٠ ٥ ١٨٨ .
- أبو عمرو = أنظر كلثوم بن عمرو العتـ : ص ١٢٤ .
- عتـ بن عـ : ص ١٥ ٥ ٢٠٠ .
- عتـ : ص ١٦٦ .
- عيسى بن مريم (عليهما السلام) : ص ١٦٦ .

حرف الغـ

- الغنـ : ص ١١٣ .
- غيـ : ص ٢٤٧ .
- غيلان بن قرشة الضبي : ص ٤٦ .

حرف الفـ

- فرعـ : ص ١٨٢ .

حرف القـ

- قسـ بن ساعدة : ص ٢٤٢ .
- قيـ : ص ٢٢٩ .

حرف الكاف

- ٢٢٩ ص : كاهنة اليمين
- ٢٢٩ ص : كسـير
- ٢٢٧ ص : كعب بن طـارق
- ١٤٤ ص : ابن الكلبي
- ١٣٦ ص : كلثوم بن عمرو العتـابي
- ٢٠٧ ٢٠٦ ١٤٤ ١٣ ص : الكميـت بن زيـد

حرف السلام

- ٢٢٩ ص : لـبنـي
- ٢٢٩ ٢٢٦ ٢٢٥ ص : ليلى بنت النضر

حرف الميم

- ١٥٨ ١٥٧ ١٥٦ ص : مالك بن أسماء الغزاري
- ٢٨٩ ص : المأمـون
- ١٥٨ ص : أبو محـلـم
- ١٩ ص : محمد بن اسحاق بن يسار
- ١٨٠ ص : محمد بن الحجـاج
- ١٧٠ ص : محمد بن ذؤيب
- ٢١ ٢٠ ١٩ ١٨ ص : محمد بن سلام الجمحي
- ١٨١ ١٧٧ ص : محمد بن شبيب المتكلم
- ٩٥ ص : محمد بن عياد بن كاسب
- ٢٨٦ ص : محمد بن عبد الملك الزيات
- ٢٠ ص : محمد بن عـلـسـي
- ١٧٦ ص : أبو محمد اليزيدى
- ٢١٢ ص : مخارق بن شهاب
- ٢٢٩ ص : مرقـس
- ١١١ ص : مرداس بن أدية

- السيدة مريم : ص ٢٣٦ .
 أبو مسلم : ص ٦٠ .
 مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر: ص ١٣٦ و ٢٢٨ .
 المسيب بن علس (الضبي): ص ٩ .
 المسيح (عليه السلام) : ص ٢٣٦ .
 معاوية بن أبي سفيان : ص ١٠٠ و ٢٤٤ .
 ابن المقفع : ص ١٥ و ١٦ و ١٦١ و ٢٤٧ و ٢٥٧ .
 منصور النمر : ص ١٣٦ .
 منظور بن رواحمة : ص ١٢٢ .
 ابن منظر : ص ١٥٧ .
 مهلهل بن ربيعة : ص ١٨ و ١٨٩ .
 موسى بن سيار الأسواري : ص ١٥٣ .
 موسى بن عمران (عليه السلام) : ص ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ١٨١ و ١٨٢ .
 ابن ميادة : ص ١٢١ .

حرف النون

- النايف : ص ٥٨ و ١٠ و ١٤ و ١٥ و ٢١ و ٢٠٣ .
 النبي (صلى الله عليه وسلم) : ص ٢٠ و ٢٦ و ٣٧ و ٣٨ و ٤٢ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١ و ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٥٨ و ٥٩ و ٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ و ٧١ و ٧٢ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ و ٨١ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ و ٨٨ و ٨٩ و ٩٠ و ٩١ و ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠ .
 نصيب : ص ١٤ و ١٣ .
 النعمان بن المنذر : ص ١٧٠ .
 النمير بن تولب : ص ٣١ و ١١٩ .
 أبو نواس : ص ٧٩ و ٢٥٣ .
 ابن النوا : ص ٢٥٣ .

حرف الهاء

- هارون : ص ٢٨ .
 ابن عرملة : ص ١٣٦ و ٢٤ .
 هلال : ص ١٧٥ .
 الهمداني : ص ١٣ .
 هند : ص ٢٢٩ .
 الهيثم بن عدي : ص ١٤٤ .
 الهيثم بن مطهر : ص ٢٥٣ .

حرف الواو

- واصل بن عطاء : ص ١٧٧ و ١٧٨ و ١٧٩ و ١٨٠ و ١٨١ .
 الواقدي : ص ١٨٢ .

حرف الياء

- ياقوت : ص ١٥٧ و ١٥٨ .
 يحيى (عليه السلام) : ص ١٦٦ .
 يحيى بن علي بن المنجم : ص ١٥٧ .
 يزيد بن الصعق : ص ١١٢ .
 يزيد بن ناجية السعدي : ص ١٩٧ .
 اليزيدي : ص ٢٨٩ .
 أبو يكسيم : ص ١٧٥ .
 يونس : ص ١١٣ .

- All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٥٥٢ ٥٥١ ٥٥٠ ٥٤٩ ٥٤٨ ٥٤٧ ٥٤٦ ٥٤٥ ٥٤٤ ٥٤٣ ٥٤٢ ٥٤١ ٥٣٦	: البيان
٥١٠٠ ٥٩٧ ٥٩٦ ٥٩١ ٥٧٥ ٥٦٥ ٥٦٣ ٥٦١ ٥٥٧ ٥٥٦ ٥٥٥ ٥٥٤ ٥٥٣	
٥١٣٩ ٥١٣٨ ٥١٣٦ ٥١٣٤ ٥١٣١ ٥١٢٩ ٥١١٠ ٥١٠٩ ٥١٠٧ ٥١٠٥ ٥١٠٣	
٥١٦٤ ٥١٥٩ ٥١٥٧ ٥١٥٠ ٥١٤٨ ٥١٤٧ ٥١٤٦ ٥١٤٥ ٥١٤٣ ٥١٤٢ ٥١٤٠	
٥٢٠٥ ٥١٠٥ ٥١٩٥ ٥١٩٤ ٥١٨١ ٥١٨٠ ٥١٧٨ ٥١٧٠ ٥١٦٨ ٥١٦٧ ٥١٦٥	
٠ ٢٧٧ ٥٢٧٥ ٥٢٧١ ٥٢٦٥ ٥٢٦٢ ٥٢٦١ ٥٢٥٨ ٥٢٤٥ ٥٢٣٩ ٥٢٣٨ ٥٢٠٨	
٠ ٢٧٢	: البيانية
٠ ١٦٨ ٥١٥٧ ٥٥٣	: التبيين
٠ ٢٥٥	: التبيين
٠ ١٠٧ ٥١٠٦	: الترداد
٠ ١٣٠ ٥١٢٩ ٥١٢٦	: التشبيه
٠ ١٢٩	: التشبيه
٠ ١٠٧ ٥١٠٦ ٥١٠٥ ٥٩٨	: التطويل
٠ ١٠٧	: التقليل
٠ ١٠٧	: التكرار
٠ ١٥٨ ٥١٥٧ ٥١٢٦	: التورية
٠ ١٣٥	: جناس
٠ ١٣٣ ٥١٣٢ ٥١٣١ ٥١٦	: السجع
٠ ١٢٨	: الشبه
٠ ١٣٥	: طباق
٥١٦٦ ٥١٦٥ ٥١٦٤ ٥١٥٧ ٥٩٣ ٥٧٧ ٥٧٥ ٥٦٣ ٥٥٧ ٥٥٦ ٥٥٥ ٥٤٤	: الفصاحة
٠ ٢٦٥ ٥٢٥٩ ٥٢٤٣ ٥١٩٥ ٥١٧٨ ٥١٦٧	
٠ ١٣٩	: الفصحاء
٠ ٢٣٩ ٥١٣٨	: فصيح
٠ ١٢٨ ٥١٢٥ ٥١٢٤ ٥١٠٤ ٥٩٥ ٥٩٣	: الكناية
٠ ٢١١ ٥٢٠٦ ٥١٣٨ ٥١٣٧ ٥١٣٦	: المبالغة

- مبين : ص ٤١ .
- الملل : ص ١١٤ ٠ ١٢٠ ٠ ١٢١ ٠ ١٢٢ ٠ ١٢٣ ٠ ١٣٥ .
- المجاز : ص ٨٣ ٠ ٩٨ ٠ ٩٩ ٠ ١٠٠ ٠ ١١٠ ٠ ١١١ ٠ ١١٢ ٠ ١١٣ ٠ ١١٤ ٠ ١١٥ ٠ ١١٦ ٠ ١١٧ .
- ٠ ١١٧ ٠ ١١٨ ٠ ١٢٠ ٠ ١٢٤ ٠ ١٢٦ .
- المزدوج : ص ١٣١ .
- المطول : ص ١٠٥ .
- مفصلة : ص ٤٣ .
- الموجز : ص ٩٨ ٠ ١٠٥ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١
تمهيد	٧
الفصل الأول : النقد البياني عند الجاحظ:	٢٣
١ - التعبير والبيان عند الجاحظ :	٢٤
أ - في القول والعسي	٢٤
ب - في القول والصمت	٣٤
ج - البلاغة	٣٩
د - البيان	٤٢
هـ - الفهم والافهام	٥٤
و - اللفظ والمعنى	٥٤
ز - لكل مقام مقال	٩٣
٢ - أساليب التعبير ووسائل البيان عند الجاحظ :	٩٧
أ - الايجاز	٩٧
ب - الاطناب	١٠٥
ج - المجاز	١٠٩
د - الاستعارة	١١٨
هـ - الكناية	١٢٤
و - التورية والاشتقاق	١٢٦
ز - التشبيه	١٢٩
ح - السجع	١٣١
ط - البديع	١٣٤
ي - وسائل البيان	١٤٠

٣٩١٣٢٧

١٤٩	الفصل الثاني : النقد التطبيقي عند الجاحظ :-
١٥٠	٠١ نقد اللغة وعلم اللسانيات :-
١٥٠	أ - اللغة
١٥٥	ب - اللحن
١٥٩	ج - الترجمة
١٦٤	د - الفصاحة
١٦٧	هـ - اللسانيات
١٧٠	و - اللسان
١٧٣	ز - الأسنان
١٧٥	ح - اللثغة
١٨٣	ط - الأصوات
١٨٧	٠٢ نقد الشعر وفنونه :-
٢٠٥	١ - التكسب بالمدح
٢٠٩	٢ - الهجاء
٢١٦	٣ - بين شعر العرب والمولدين
٢١٩	٤ - الشعر والموسيقى
٢٢١	٥ - دور الشعر في الأخبار والروايات
٢٢٥	٦ - شعر المرأة
٢٣٨	٠٣ نقد النثر :-
٢٣٨	أ - الخطابة
٢٤٥	ب - المناظرات والرسائل
٢٤٨	ج - النادرة
٢٥٤	د - الخرافة

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : المعرفة عند الجاحظ وتجربته في التأليف :-	٢٥٦
٠١ الموهبة والمعرفة :-	٢٥٧
أ - الموهبة	٢٥٧
ب - المعرفة	٢٦٠
٠٢ الكتاب وتجربة الجاحظ في التأليف :-	٢٧١
أ - الكتاب	٢٧١
ب - تجربته في التأليف	٢٨٩
خاتمة .	٢٩٨
ثبت المصادر والمراجع	٣٠٢